أعمال الرعب الأصلية

عمرو المنوفي

الغرفة السابعة

7

بينك وبين نهاية العالم قرار أحمق واحد







الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -
ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكترونى:
baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
(+202) 01016685583
(+202) 01110094625

اسم العمل: الغرفة السابعة - رواية
المؤلف: عمرو المنوفي

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2023/26430
الترقيم الدولى:
9789778172645
تصحيح لغوي: نهى عبد الستار

الطبعة الأولى 2024

لا معجزات تحدث هنا.

ثلاثون ألف عامٍ قبل الميلاد

البعض منكم يستيقظ من النوم، فيشعر أن في يومه خطبٌ ما، شيء ما خاطئ سيحدث وعليه ألا يتخذ أي قرارٍ مصيري أو يخرج من البيت أو يذهب إلى العمل أو يقوم بأي نشاطٍ حقيقي.

فما بالكم بمن يولد، ومع الأيام يتأكّد من أن حياته كلها خطأ كبيرٌ.

وأن ذاكرته تحمل سرًا خطيرًا.

وأن بينه وبين نهاية العالم قرارٌ واحدٌ أحمق، وينتهي كل شيء.

عبءٌ ثقيل، ليس على فردٍ واحدٍ تحمله..

ولو سألني أحدكم عن أمنيتي بعد أن أُجبرت على حمل هذا العبء على كاهلي، لأخبرته كما قالها «كافكا» ذات يوم، ويقولها الأشخاص المحطمون ذوو الميول الانتحارية:

أتمنى لو أنني لم أوجد أو أُخلق من الأساس.

فما خضته من أهوال يكفي لتدمير أي إنسان وجعله يفقد الثقةَ في نفسه وفي العالم.

أعرف أن حديثي يضجُ بالسوداوية والإحباط، لكنني وحدي أمام المدفع، ووحدي من يتلقى القذائف، بينما أنتم تجلسون في مقاعد المتفرجين، فاغري أفواهكم من الدهشة والذهول،

تتابعون تلك الأحداث الغريبة والمخيفة التي أخوض غمارها، مستمتعين شغوفين للمزيد.

أنا لست بحاجة للنظر في عيونكم، أو رؤية أياديكم المتعرقة، أو سماع صوت ضربات قلوبكم المتسارعة، لأخبركم أنكم أدمنتم الخوف، وتدفق الأدرينالين في عروقكم، وأصبحت تثيركم مآسي الآخرين حتى لم تعد هناك ذروة تشبعكم.

هل أيقظتُ ضمائركم؟.

هل أثرتُ فضولكم ؟.

هل وضعتُ بين أسنانكم الفلفل الحار وضغطت عليه؟.

لنقلب إذا الصفحة أو لننظر إلى اليسار.

ماذا عن العنوان؟.

أخبرتكم..

لنقلب الصفحة أو لننظر إلى اليسار.

أعدكم بمغامرة أشد حرارة وصدمة من فلفل (سكوتش بونيه).

شيء ما خاطئ

أخبرها أكثرهم علمًا وخبرةً وأجرًا، أن الجن نفسه قد يخشى دخول مثل هذه الغرفة، فهنا الأثير منعكس، وكل شيء في غير موضعه، وعليها أن تتوقف عن العبث بالغرفة لأنها كانت وما زالت مدخلًا لشيء شريرٍ.

- انشقت الأرض وابتلعته.

كانت هذه هي إجابة أمي الوحيدة والثابتة على كل من سألها عن ظروف وملابسات اختفاء زوجها المريبة، والتي خلفت بعدها موجةً عاتيةً من والتساؤلات والانطباعات غير المريحة بين الأقارب والمعارف والجيران، وكل من عاصر معنا تلك الفترة العصيبة من حياتنا.

فأبي اختفى دون أن يترك خلفه أدنى أثر، يدل على سبب اختفائه أو مكان وجوده أو مصيره النهائي في أسوأ الأحوال، وكأنما انشقّت الأرض بالفعل وابتلعته.

ليترك خلفه لغزًا محيرًا عصيًا عن الحل، وزوجة مكلومة لا تتوقف عن ترديد مثل هذه الأوهام العصيّة عن التصديق. فصارت إجابتها حديث الساعة، وأصبح الظرفاء يتندرون بحكايتها.

وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان، أن تتحول مأساته إلى مادة للسخرية والفكاهة بين الغرباء والمقربين، الذين راحوا يتهامسون ويتغامزون كلما رأوها.

بينما أعمت الصدمةُ أمي مع رغبتها في الحصول على مساعدة سريعة لإنقاذ زوجها من مصيره المجهول، فلم تتروى أو تفكر في كيفية استقبالِ الناس لمزاعمها غير المنطقية، وطفقت تردّد حديثها الجنوني على مرأى ومسمع من الجميع.

ومع مضي الوقت أصبحت إجابتها المستفزة مصدر إزعاج لكل المحيطين بها، فهي إجابة لا يمكن أن تخرج عن شخصٍ عاقلٍ أو متزنٍ يمر بمثل هذا الظرف الشائك، الذي تقف فيه موقف المتهمة.

فالعُرف يضع الزوجة دائمًا أمام فوّهة المدفع عند مقتل الزوج، أو اختفائه لأي سبب من الأسباب.

والمحققون في مثل هذه القضايا تتوجه أصابعهم بالاتهام أول ما توجه إلى الزوجة، لأنها المستفيد رقم واحد من وجهة نظرهم.

ولم تتزحزح أمي عن موقفها أو تبدل من قناعتها أو إجابتها، ممّا دفع بعض المقربين ليتدخلوا وينبهونها لخطورة مزاعمها، والمصيبة التي ستُورط نفسها فيها لو لم تتوقف عن ترديد مثل هذه الخرافات، فكيف تنشقُّ الأرض وتبتلع إنسانا، إلا لو كان هناك من حفر ودفنه، بعد أن قتله، والمشتبه به الأول محددٌ وجاهزٌ.

وكما هو متوقع لم تبال أمي بنصيحتهم، ولم تلق أي صدى لديها، فعقلها غرق في عالم آخر من الحزن والكآبة والرفض،

فراحت تردّدها دون كللٍ أو مللٍ أمام القريب والغريب، كأنها تعاندهم، لدرجة أنه في أحد الاجتماعات العائلية المنعقدة لبحث حقيقة اختفاء أبي وأمام المجتمعين، تسببت في انفلات أعصاب شقيقة زوجها الكبرى (أحلام) التي يقتلها القلق على شقيقتها، فصفعتها لتخرس لسانها المنفلت، وهي تصرخ في غضبٍ:

- كفي عن كلام المخابيل هذا، واعترفي بجرمك.. ليت الأرض تنشق وتبلعك أنتِ.

وتسببت هذه الفعلة واتهامها المباشر أمام الناس، في مشكلة عائلية كبرى، تم احتواؤها على مضضٍ بتدخلٍ من أطراف عديدة، وبشكلٍ سريعٍ للتركيز على المصيبة الأكبر، وهي اختفاء الزوج، وإن أقرّت بعض القلوب في صمت بمقتله.

وفي محاولةٍ يائسةٍ من نساء العائلة ليعدنها إلى رشدها، ويعينوها على تخطي تلك المحنة الطارئة التي عصفت بعقلها، وخوفًا من الفضيحة وتفاقم الوضع تطوّع بعضهن للعناية بها.

وتناوبن خلال تلك الفترة العصيبة على رعايتها ورعايتي، فلم أكن قد تجاوزت العام ونصف حينذاك، وبحاجةٍ ماسةٍ لمن يهتم بي مع حالتها المتدهورة، وكلهن أمل أن يصل رجالهن في أقرب وقت إلى إجابة شافية عن حقيقة اختفاء الزوج، أو يأتوا بخبره لتنتهي مهمتهن الثقيلة.

وبرغم كل الجهود المبذولة، ومحاولتهن الصادقة لدعمها، تدهورت حالتها أكثر، وصارت أكثر تخبطًا وعدوانية.

بل واعتدت على إحدى نساء العائلة التي منعتها من تهشيم بلاط غرفة نومها، والحفر أسفله لإخراج زوجها أو جثته، فضاق صدر القائمين على رعايتها، وملوا من أفعالها، ومما ترده على مسامعهم ليل نهار من خرافات انشقاق الأرض وابتلاعها لزوجها، لتجهض كل مساعيهم، ولتزيدهم همًا وتعاسة.

كان اقتناعها بما تزعمه مطلقًا، ولم تتزحزح أو تبدي ولو جزءًا ضئيلًا من المرونة لتقبل أي رأي آخر، كهجر زوجها لها مثلًا؛ لدرجة أن إحدى نساء العائلة لمّحت لزوجها، أن عليه أن يجتمع مع كبار رجال العائلة في أقرب وقتٍ ليناقشوا فكرة عرضها على طبيب نفسي أو إيداعها إحدى المصحات قبل أن تفقد عقلها إلى الأبد، وتهيم على وجهها في الشوارع، وتفضحهم.

ولأن ارتباط الطب النفسي بالجنون أمرٌ شائعٌ في مجتمعنا، تجاهل زوجها الذي يفهم عقلية رجال العائلة بشكلٍ جيدٍ نصيحتها، فالعائلات لا تعترف بجنون أفرادها أو حاجتهم لعلاجٍ مماثلٍ، خاصة لو كانوا من النساء.

فقصة أن الأرض انشقت وابتلعت زوجها لم تخِل عليهم، ومحاولة ادّعائها الجنون لم يقبلوها، وكان اختفاء القائمات على رعايتها، الواحدة تلو الأخرى، رسالة شديدة القسوة،

مفادها أنها أصبحت عبئًا على الجميع، وأن صبرهن عليها قد نفد.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد!

فبعد الريح تأتي العاصفة.

والعاصفة كانت حملةً شعواء، قادتها شقيقة أبي الكبرى العمة (أحلام)، التي لم ترحب بأمي أو تودها يومًا، ودعمها فيها شقيقاتها الثلاثة، وكأنه لم يعد لديهن هدف في الحياة إلا إجبارها على الاعتراف بجرم لم ترتكبه.

ولم تكتفِ العمة (أحلام) فقط بملاحقتها، بل إنها هددتها على الملأ، بأنها لو كانت لها يدٌ وراء اختفائه أو سببٌ في إصابته بأدنى مكروه، ستشرب من دمها.

لتنقلب حياتنا رأسًا على عقب، فمعاملة شقيقة زوجها لها بمثل هذه الطريقة الفجة الخالية من الذوق أو الاحترام جعلها مستباحة من الجميع بشكلٍ مهينٍ، وأصبح للقريب والغريب الحق الكامل في التدخل في حياتها واستجوابها والضغط عليها، لتصبح في موضع دفاعٍ دائمٍ عن نفسها، وهو أمرٌ مرهقٌ نفسيًا وعصبيًا ليحتمله من هو في سنها الصغير، فهي لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها حينذاك.

وما ضاعف معاناتها أكثر، أنها عندما أرادت أن تثبت صدق روايتها، وقادتهم لمعاينة الغرفة التي اختفى منها زوجها، وأطلعتهم على شقوق الأرضية، والبساط الذي احترق في عدة مواضع، سخروا منها جميعًا، ونعتوها بالجنون وتلفيق

الأدلة، وأنها تكذب وتراوغ لتداري مصيبة أكبر.

أما ما عقّد موقفها أكثر، هو أن جميع العاملين ورواد المقهى المقابل للمنزل، والذين تواجدوا في ذلك التوقيت الذي حددته أمي كموعد لعودة أبي من العمل، نفوا بشكل قاطع رؤيته عائدًا إلى منزله أو خروجه منه في الصباح.

فهي على يقينٍ تامٍ من أنه خرج في الصباح إلى عمله، وعاد إلى المنزل في الموعد الذي ذكرته، وكنت أنا شاهدها الوحيد الذي لا يعي ما حوله، والذي كلما حاولت الاستشهاد به أو حثّه على الكلام خذلها وهو يردد بكل حماقةٍ: بابا.. بابا..

كانت بالفعل في موقف لا تُحسد عليه! ولذا ما فتِئت تكرر قصتها ألف مرة ليقتنعوا، وليصدقوا أن زوجها عاد من عمله في نفس الموعد الذي ذكرته، وأنها من فتحت له الباب بنفسها، وأنه كان شارد الذهن، بادي الإرهاق بشكل أثار شفقتها، وجعلها تلعن في سرها أيام تقفيل الميزانية، وضمير زوجها الذي يجعله يُفضل العمل على صحته وراحته.

وأنه للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيدٍ لم يداعب طفله الذي ركض نحوه، بل دفعه نحوها برفقٍ، ودخل مسرعًا إلى غرفته، فأدركت أنه يرغب في النوم أكثر من أي شيء آخر، فتركته على راحته.

وعندما طال نومه على غير العادة، دخلت عليه غرفته لتتفقده، كان الفراش مرتبًا وكأنه لم يمس، وعلى أرضية الحجرة آثار احتراق طفيفة طالت أجزاءً من البساط

وتجاوزته إلى البلاط نفسه، الذي ظهر فيه شقٌ طفيفٌ بالقرب من مكان الاحتراق، ولا شيء آخر، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته.

صحيح أنها أخفت عنهم موضوع الوميض القوي الذي خرج من تحت عقب الباب، والشبيه بفلاش كاميرا عملاقة، والصرخة المكتومة التي سمعتها خارجة من غرفته - وظنتها أوهامًا - قبل دقائق من دخولها عليه لتوقظه من النوم، فهي معلومات لن تضيف لهم الكثير، وستعقد موقفها أكثر.

إنها على يقين تام من أن زوجها دخل غرفته ليستريح، ثم حدث شيءٌ غامضٌ، ولم يخرج منها قط! وهي حكاية إن لم تُثر حولها الشكوك، فلا يمكن تصديقها.. لكنه ما حدث!

إنها تتذكر جيدًا أنها ظلّت جالسة على الأريكة المقابلة لباب غرفة نومه، تتابع أحداث أحد الأفلام الكوميدية القديمة على إحدى المحطات الفضائية - التي استولت في صفقة مشبوهة على معظم تراثنا الفني القديم - تقطع بها الوقت أثناء نومه، وتقطف بعض أوراق الملوخية لتعدّها للتخزين، كما أوصتها أمها منذ زمنٍ بعيدٍ، فالمرأة المدبرة لا تترك شيئًا للظروف.

حركتها كانت محدودة في محيط الأريكة وما حولها؛ لتمنع الصغير من هشم المزهرية الزجاجية، أو تمزيق كتابها الذي لم تنهيه بعد، أو نثر ما قطفته من أوراق خضراء في أنحاء الشقة، أو التسلل إلى الحمام لإغراق نفسه، وإغراق الأثاث؛ فلا يمكن أن يكون زوجها قد غافلها وخرج لأي سبب من

الأسباب دون أن تلمحه في تلك الثواني القليلة، إلا لو صار غير مرئي أو أنها فقدت بصرها، وهو ما لم يحدث على أرض الواقع.

كما أنه لا يوجد شخص عاقلٌ أو طبيعي، يغادر منزله أو يهجر حياته القديمة دون أوراقه الثبوتية ونقوده.

وهو قد تركهم جميعًا في حافظته الجلدية التي اهترأت أطرافها من كثرة الاستعمال، و التي وجدتها على الكومود المجاور للفراش بغرفة نومه، وبجوارها نظارته الطبية، أي في نفس المكان الذي اعتاد زوجها وضع حافظته فيه فور عودته من العمل.

وعندما قاموا بفحصها، وحصر محتوياتها، عثروا بداخلها على ما تبقى من راتبه، وبطاقته الشخصية، وكارنيه النقابة، والفيزا البنكية، وبعض الأوراق التي لا يشي محتواها بأي أهمية تذكر.

فواتير قديمة..

وقائمة ببعض الأغراض التي ينوي شراءها..

وورقة تحتوي على مصفوفات من الأرقام وبعض الحروف.

ليرد عليها أحدهم بأن المحفظة لا ترقى لتكون دليلًا لإثبات أي شيء، فلا يوجد من يبز الرجال في النسيان، وأن الموقف كله يحتمل أكثر من تأويل.

فأطلعتهم على ثيابه الموضوعة على علّاقة الملابس

التي بدّلها في يومه السابق، والتي لم تغادرها رائحته بعد، ونظارته الطبية التي لا تفارقه لأنه مصاب بقصر النظر، لتشعل على عكس توقعاتها المزيد من شكوكهم، ليجلدها بعضهم بتساؤلاتهم الخبيثة ويرمونها بنظراتهم المتهمة.

وفي تلك اللحظات الثقال، حمدت الله أنه لم يكن في منزلها حديقة لنبشوها كما نبشوا روحها، وكادوا يسلخون جلدها ليبحثوا عنه تحته.

وبغض النظر عن أي أحكام أو انطباعات مسبقة، فلو أننا نظرنا لادعاءاتها من زاويةٍ محايدةٍ، لوجدنا أن لديهم كل الحق في شكوكهم وظنونهم؛ فأي رجل هذا الذي يهجر بيته دون حافظته وهويته في زمن الإنسان فيه عبارة عن مجموعة من الأوراق، ودون أن يصحب معه أي نقود أو ثياب إضافية غير التي يرتديها، أو يترك رسالة يبرر فيها فعلته، إلا لو كان وراء الأمر مصيبة!

أو جريمة كما صرّح أحد الأقارب.

وهو القول الذي لم تغفره له أمي قط، بعد أن كشفت المحنة عن حقده الدفين، وهي التي كانت تعده من أهلها، فاتخذ جانب المشككين.

وما فاقم المشكلة أكثر، أنهم عندما تواصلوا مع زملائه في العمل، أكدوا جميعًا أنه لم يأتِ إلى العمل منذ عدة أيام، لتتعقد الأمور أكثر! فإن لم يكن يذهب إلى العمل.

فأين كان يذهب؟ وهل في الأمر ما يشين؟!

وإحقاقًا للحق، ومما سمعته عن أبي من كل من عاصروه.. كان إنسانا نبيلًا، طاهر الذيل، نقي السريرة، وهذه الأفعال لم تكن من شيمه، وليس له سوابق في مثل هذه الأمور الشائنة.

كما لم يكن له أي عداوات شخصية أو أعداء يرغبون في الإضرار به، أو الانتقام منه لأي سبب كان؛ فقد كان خدومًا، معطاءً ومعظم من علموا باختفائه حزنوا عليه كثيرًا.

وبرغم الجهود التي بُذلت للبحث عنه من قبل الأقارب والمعارف والجيران، ظل اختفاء أبي لغزًا عصيًا على الحل، ولم تضف جهود الشرطة وتحرياتها أي جديد، بل كادت تعقد الأمور أكثر.

فوكيل النيابة بعد الاستماع إلى أقوال أمي، ومع إصرارها على اختفائه المريب من غرفته، وحديثها عن الصرخة المكتومة والوميض وأثر الاحتراق، والشق، والأصوات التي بدأت تهمس لها ليلًا، أدرك أن هناك خطب ما بعقلها، وكاد أن يحيلها لمستشفى الأمراض النفسية والعصبية بالعباسية للتأكد من سلامة قواها العقلية؛ ولولا تدخل أحد أقارب أبي النافذين، وإجبارها على تغيير أقوالها؛ لربما دخلتها، ولم تخرج منها يومًا.

ولم يكن هذا لسوادِ عيون أمي كما أخبرتني صديقتها وتوأم روحها (سحر)-والتي عاصرت معها المحنة منذ البداية - بل لأنهم يخشون على مواقعهم ومناصبهم الحسّاسة من فضيحةٍ جديدةٍ، فيكفي فضيحة غياب أبي. كما أن أي منهم

لم يرغب في حمل عبء رعايتي والإنفاق عليّ في غيابها.

ولأن إيمان أمي بما ينكره كل من حولها، واقتناعها بأن زوجها اختفى في حادثٍ خارقٍ للطبيعة كان مطلقًا، ومع تلك الهمسات غير المفهومة التي باتت تطاردها وتثير فزعها، فإنها اضطرت ولأول مرة في حياتها أن تطرق باب الدجالين والمشعوذين الذين استغلُّوا اضطرابها ولهفتها، واستنزفوا أعصابها ونقودها.

وبتوجيهاتهم أقامت الطقوس التي يعتبرها رجال الدين كفرًا وشركًا، فقدمت القرابين الحيوانية للأسياد، وأحيت ليالي الزّار في غرفة نوم زوجها التي تربت على أنه مكان مقدس لا يدخله الغرباء، ليساعدوها في اكتشاف مخرجٍ سري، أو بوابةٍ سحريةٍ، أو نفقٍ مطمور غفل الباحثون عنه.

وبالطبع لم ينجم بحثهم عن أي من هذه الأشياء، فالغرفة لها مخرجٌ واحدٌ فقط هو الباب، ونافذةٌ وحيدةٌ موجودة في جدار الغرفة المواجهة له، مدعمة بقضبان حديدية لم تمس، وشقوق الأرضية لا تكفي لعبور إنسان.

لينتهي مشوار بحثها بالفشل الذريع والمزيد من المخاوف، بعد أن أجمع كل من استعانت بهم من هؤلاء الدجالين، أن بهذه الغرفة شيء غير طبيعي، وأنه قد تمّ بداخلها إحدى الممارسات المحرمة، فبداخلها أكبر تجمع للطاقات المتنافرة رصدوه في حياتهم.

وعندما سألتهم بعلمها المحدود، هل أصحاب تلك الطاقات

من الجن؟ نفى البعض، وعجز البعض عن تحديد كُنه المصدر، وإن أخبرها أكثرهم علمًا وخبرة وأجرًا، أن الجن نفسه قد يخشى دخول مثل هذه الغرفة، فهنا الأثير منعكس، وكل شيء في غير موضعه، وعليها أن تتوقف عن العبث بالغرفة لأنها كانت وما زالت مدخلًا لشيءٍ شرير.

بالطبع لم تفهم من حديثه إلا أن هناك شيئًا ما خاطئًا في الغرفة، وهذا أصابها بالذعر، فهي على علم بحادثة مقتل جدي فيها منذ سنوات خلت.

واستولت عليها الأفكار السلبية، وسكنها شعور غير مبرر بالذنب!

فراحت تجلد ذاتها، وتلوم نفسها دون هوادة، وبداخلها يقينٌ تامٌ بأن الزوجة الجيدة لا يتركها زوجها لأي سبب من الأسباب، ولا يختفي من حياتها بهذا الشكل المهين.

ومن أعماقها باتت تشك في كونها زوجة صالحة، على الرغم من أنها لم تقصر في حقوقه يومًا.

بل وطفقت تبحث في ذاكرتها عن أخطاء يمكن أن تكون قد اقترفتها دون قصد أو تعمد، لتبرر هجره لها ولطفلها الوحيد، وكيف يمكن أن تصلحها أو لا تقع فيها مجددًا عند عودته.

وفجأة، راحت تخبر كل من حولها أن أبي ما زال حيًا، وأنه يزورها في منامها، وأنه فقط في محنة، وأنه عائد قريبًا.

وراحت تزرع هذه الفكرة في أعماقي عبر السنوات، فباتت

قصة اختفاء أبي هي محور تفكيري واهتمامي في فترة طفولتي وصباي، مع رفضي التام لغيابه، وتركي وحيدًا في هذا العالم البائس أقاسي الأمرّين، مما جعلني غاضبًا على الدوام، ساخطًا عليه وعلى كل شيء، غارقًا في بحار التساؤلات التي لا ترحم: فلماذا جميع أقراني لهم آباء وأنا بلا أب؟.

ولماذا كل هذا الغموض المحيط بغيابه، فلا نعرف إن كان حيًا أو ميتًا، يحيا بشكلٍ جيدٍ أو يعاني في مكانه الغامض، لنستريح من كل هذا العناء.

لدرجة أني تمنيت بيني وبين نفسي، أن نعثر ذات يوم على جثته أو بقاياها، فعلى الأقل سأصبح مثل رفاقي اليتامى، وأعرف مكان مقبرته، وأزوره كما يزورون آباءهم الموتى، وربما أدعو له.

وأصبح الأمر يمثل عليّ ضغطًا نفسيًا مروعًا، وعلى أمي التي تدهور بها الحال، فأصابتها نوبات شرودٍ طويلةٍ، كانت تخرج منها بقصصٍ غريبةٍ عن أحداث وذكريات عاشتها بصحبتي أنا وأبي الغائب لم تحدث قط.

مع وسواسٍ دائمٍ بأن هناك من يحاول سرقة حياتها منها.

تعوّدت أن أسمع بكاء أمي الحار كل ليلة بعد صلاة الفجر، ودعاءها اللحوح إلى الله بأن يعيده إلينا سالمًا، وحاولت مرارًا أن أشدّ من أزرها، وأهون عليها محنتها دون جدوى، وكأنّ علاجها الوحيد هو عودته.

وبعد كل صلاة كنت أراها تخرج بعضًا من ثيابه لتحتضنها، وتتلمس فيها رائحته دون أن تمتلك القدرة على فعل أي شيء آخر، وكان هذا يعصِر قلبي عصرًا، فرحتُ أدعو الله إن لم يعده لنا أن تنساه، كي تنتهي معاناتها المستمرة.

في حين حرصت هي على تذكيري به دائمًا، وإخباري كم كان حنونًا وعطوفًا، وسعيدًا عندما أنجبتني، وكم كان يحلم باليوم الذي يراني فيه رجلًا ناضجًا، ويزوجني امرأةً جميلةً طيبةً تشبه أمي في طباعها وخصالها وجمالها، ويحمل بين يديه أبنائي الذي يحمل كبيرهم اسمه. وكأنها تخشى أن أنساه، أو أكرهه مع ما لاقيناه من صعوباتٍ ومشقةٍ في حياتنا، مع الضغوط المادية الطاحنة التي أثقلت كاهلنا من بعده، فهو لم يترك لنا أرضًا أو عقارًا أو معاشًا يسترنا ويقينا العوز والحاجة.

بل وحرصت على أن يكون معي دائمًا شيء من رائحته ومقتنياته، فجعلتني أرتدي خاتمه المصنوع من الفضة، والذي يزينه فص من عقيق أخضر اللون، والذي ورثه عن أبيه، لتظل ذكراه دائمًا وأبدًا حاضرة.

كان الخاتم رمزًا من رموز الرجولة، فلم أأنف من ارتدائه، ولكنه كان واسعًا مع صغر سني ونحافتي في حينها، فلفّت أمي على حلقته المعدنية بعض الخيوط ليناسب أصبعي، ولم يستقر في بنصري براحة إلا بعد أن تجاوزت عتبة المراهقة، تلك الفترة العصيبة من حياتي التي لازمتني فيها الكوابيس المرعبة، والرؤى المفزعة التي قضت مضجعي، وجعلتني

أقضي فترة النوم في هلعٍ متواصل.

فبمجرد أن أُغلق عيني وأتهيأ للنوم، ينسحب وعيي، وأجد نفسي مطاردًا من قبل طيفٍ دخاني أسود اللون، له عينان مخيفتان، وهيئة أفعوانية بشعة، ذكرتني بما قرأته مسبقًا عن مخلوقات الظلال والظلام، وهذا الطيف اللعين يستميت لإبلاغي برسالة عجزت عن فهمها تمامًا.

كانت فترةً ثقيلةً شديدة الوطأة على روحي، مع صغر سني والمسؤوليات الملقاة على عاتقي.

ففي الصباح كنت أواجه مسوخ الواقع في رحلة بحثي عن لقمة العيش، وفي المساء أواجه مسوخ أحلامي وحيدًا في غرفتي بلا سندٍ أو معينٍ، وفي الغرفة المجاورة تقبع أمي تطارد أوهامها الشخصية، وذكريات زوجٍ غائبٍ، لا تذكر أنها عاشت معظمها معه.

أسرةٌ مفككةٌ تقف على حافة الهاوية والجنون.

حاولت أن أتكيف مع تلك الكوابيس المزعجة والمتكررة، ولم أنجح.

وعندما كَسرت تلك الكوابيس حاجز النوم، وأصبحت أراها في يقظتي، أدركت أن الزمام بدأ يفلت مني، وأن ما أصاب أمي بدأ يصيبني، خاصة وأن تلك الكوابيس كانت تتخذ نمطًا واحدًا متكررًا، مما شككني في كونها مجرد أحلام أو كوابيس ناجمة عن ضغوط نفسية أو حياتية.

والشيء المزعج أكثر، أنه كان يصحبها دائمًا رائحةُ عفونةٍ قويةٍ ثابتةٍ، وكأنها بصمةٌ خاصة بذلك الطيف الأسود الرهيب، فلم أكن أشمها إلا مع ظهوره.

وعندما بحثت في الكتب الموجودة في مكتبة أمي، والتي تتحدث عن الأحلام، ومحاولات التواصل مع العالم الآخر والبصمات الروحية، التي ملأت بها مكتبتها في السنوات الأخيرة، أصابني المزيد من الذعر؛ فكل الدلائل والمعلومات تشير إلى أن الأمر يختلف عن كونه مجرد رؤى أو كوابيس عادية، بل هي محاولات مستميتة للتواصل معي من العالم الآخر.

والرائحة الكريهة الأقرب إلى العفونة، هي التي تميز الأرواح غير البشرية في المستوى النجمي، مثل الأرواح الشريرة أو الشياطين.

أي أن هناك روحًا شريرة تطاردني، وتحاول أن تبلغني برسالة من العالم الآخر.

كانت الفكرة مخيفة برغم غرابتها، وتركت بأعماقي أثرًا سلبيًا كبيرًا، خاصة وأنني كنت على علمٍ مسبقٍ بحادث مقتل جدي في إحدى غرف المنزل، وظننت أن هذا شبحه، الذي يحاول أن يدلّني على قاتله كما يحدث في القصص والأفلام.

واستمر هذا الوضع المرهق لسنوات وسنوات، دون أن أستطع اعتياده أو الفكاك من آثاره الجانبية السيئة.

وليت الأمر اقتصر على هذا، بل تطوّر بشكلٍ مزعجٍ، وبدأت

تنتابني حالات شرودٍ مماثلة لتلك التي كانت تنتاب أمي، يمتد بعضها لعدة ساعات، وخلالها كنت أحيا بوعيٍ كاملٍ حيوات مختلفة، أعمل فيها بمهن مختلفة، وأقترن بنساء مختلفات، وأتحدث بلغات مختلفة، وتسير حياتي في سبلٍ مختلفة، وكأن هناك عشرات النسخ مني، لديهم حيوات بديلة، وأنا أتلصص عليهم عبر نافذة خفية.

وعندما عجزث كتب أمي عن تفسير هذا التطور المرعب، بحثث في العديد من المواقع المختلفة عبر شبكة الإنترنت.

وبعد الكثير من التخبط بين التفسيرات والنظريات المختلفة، بدأت أشك في كوني أحد هؤلاء المنكوبين الذين أثرت عليهم تجارب مختبر (سيرن) التي استخدم فيها مصادم الهدرونات أو معجل الجسيمات حسب الاسم الشائع، والذي عن طريقه كانوا يحاولون الوصول للمادة الأولية التي خلق منها الكون أو كما يطلقون عليه (جسيم الرب).

ونتيجة خطأ ما، أو عن قصد تسببوا في خلق ثغرة بين العوالم الموازية، اختلط بسببها وعيي بوعي أشباهي هناك كما اختلط وعي أناس آخرين بوعي أشباههم، وأصبح الناس يتشاركون ذكريات أصيلة ليست موجودة في هذا العالم في الواقع.

لقد أطلق على هذه الحالة اسم (تأثير مانديلا) نتيجة إيمان الآلاف عبر العالم بوفاة (نيلسون مانديلا)، في سجنه في الثمانيات، ورؤية جنازته، وتصريحات أرملته، وهو ما لم

يحدث في عالم الواقع.

وهو ما تطابق مع حادثة اغتيال الرئيس الأمريكي (جون كيندي) حيث أكّد الآلاف أن من كان في سيارته هم أربعة؛ الرئيس وزوجته والسائق والحارس الشخص، في حين أكّد ما يوازيهم أنهم كانوا ستة.

وما يحدث معي يشبه التخبط الحاصل مع هؤلاء الناس الذين شهدوا تلك الحوادث.

مجموعة من السيناريوهات المختلفة عن الواقع، وما كان يمكن أن أمرّ به لو خُلقت في أحد هذه العوالم الموازية، ومنحت فرص مختلفة أو عشت في ظروف مختلفة.

والمخيف أن معظم هذه السيناريوهات لم تمنحني حياة وردية أو حياة يمكن أن تكون مستقرة، بل كانت جميعها سلسلة من الكوارث والمآسي التي لم تعرف نهاية سعيدة، وكأنما كُتب على جميع نسخي في كل العوالم أن تقاسي وتتعذب.

فمرة أفقد أمي في حادث، أو يقتل أبي أمام عيني، أو أسجن بسبب تهوري، أو أدخل شجارًا كبيرًا مع الأسطى (صبحي) ينتهي بطردي وسلوك طريق الجريمة، أو ألقي خطبة في مجلس الشعب، أو أسجن في زنزانة بيضاء بلا أبواب أو نوافذ، أو أحضر عرس (ندى) على شخص آخر، أو أجهز على شخص له وجه سحلية، أو أهبط بداخل مقبرة فرعونية قديمة على لوح مضاد للجاذبية، أو أشاهد معركة

يستخدم فيها المصريون القدماء أسلحة إشعاعية، ودروع من الطاقة ويقاتلون عدوًا خفيًا، أو يطاردني أنوبيس ومخلوقات بشعة خارجة من كتب الأساطير، لدرجة أني آمنت أن الجنون مرض وراثي انتقل لي من أمي.

واستمر الوضع من سيئ لأسوأ، حتى التقيت ذات يوم بأحد زبائن الورشة غريبي الأطوار.

كان رجلًا في الأربعينات من عمره، عريض المنكبين، طويل القامة بشكلٍ لافتٍ للنظر، وجهه من تلك الوجوه المستفزة التي تترك في داخلك انطباعًا دائمًا باللزوجة، والذي يتحدث بلكنةٍ عجيبةٍ، تخلط بين اللغة العربية الفصحى والعامية المصرية، بشكل مضحك.

وحضر هذا الزبون إلى الورشة بسيارته الحديثة موديل العام، مدعيًا أن هناك عطل ما بها، ويرغب في إصلاحه بشكلٍ سريعٍ.

ومن خبرتي وصوت السيارة الناعم، كنت موقنًا من أنه لا يمكن أن يوجد بها مثل هذا العطل الذي يدّعيه، وبرغم هذا لم أصرفه من فوره، أو أخبره بما دار في ذهني.

فالأسطى (صبحي) أخبرني ذات مرة أن الكثير من الزبائن الأثرياء مصابون بالوسواس القهري صوب مقتنياتهم، فقد تكون سيارةً جديدةً مثل هذه السيارة، ويخالج صاحبها شعورٌ زائفٌ بأن بها خطب ما، ولن يرتاح إلا بفحصها، وهو رزقٌ سهلٌ لن نرفضه لأن غيرنا لن يرفضه، وفي نفس الوقت

نحن لا نخالف ضمائرنا ونقوم بعملنا، ونريح قلب الزبون.

نحن مثل الطبيب الذي يتحصل على أجره بعد فحصك سواء كنت مريضًا أو موهومًا.

ومن هذا المنطلق بدأت فحصي للسيارة الحديثة التي يتعدى ثمنها المليونين من الجنيهات، لعل نظرية الأسطى (صبحي) تكون خاطئة، وبالسيارة عطلٌ خفيٌ، فالموديلات الجديدة لم تعد بكفاءة القديمة، ولكن ما ضايقني أن الزبون لم يجلس حيث أشرت له ليستريح حتى أنتهي من فحص سيارته.

بل أخذ على عاتقه أن يتتبعني أثناء فحص السيارة، بشكلٍ أثار ريبتي نحو ميوله، مما جعلني حذرًا في التعامل معه؛ خاصة وقد لاحظت أنه يضع مساحيق تجميل، ولديه تاتو يظهر جزءٌ منه من قميصه المفتوح، وأنه حلق حاجباه ورسم آخرين مكانهما.

وأثناء انشغالي في البحث وراء العطل، أظهر اهتمامًا شديدًا بخاتمي، مدعيًا أنه من المهتمين بمثل هذه الأشياء العتيقة، وأن الخاتم يبدو كقطعةٍ فنيةٍ فريدةٍ.

وكي أمنحه شيئًا يشغله عني وعن تتبعي، نزعت الخاتم - الذي كنت أعلم أنه مجرد خاتم عادي يوجد ألف شبيه له - من إصبعي ومنحته إياه، ليتناوله في لهفة.

وفي تلك اللحظة المشؤومة تلامست أصابعنا بشكل لا أظنه عفويًا، فشعرت خلالها بصدمةٍ كهربيةٍ خفيفةٍ، وبسبب توتري

منه فزعت وانتفضت، فقبض على الخاتم، وهو يقول بلكنته العجيبة:

- لا داعي لكل هذا (خوف)، (ده) مجرد تفريغ لشحنة كهربائية استاتيكية ساكنة، (بيحصل كتير) بسبب ملابس حريرية.

لوّحت له أن لا بأس، وأنا أقاوم مشاعر القرف والاشمئزاز التي غزت كياني، وقد بدأت أتيقّن من فكرتي السيئة عنه؛ وأن بسلوكه شيء خاطئ، فالرجل الحق لا يرتدي الحرير أو يضع المساحيق، كما أنه لا يحلق حاجبيه ويرسم بديلين لهما، ولا يدقّ تاتو.

وعندما طالت فترة تفحصه للخاتم، أشرت له أن يعيده لي، فمسّ حجره بشيء من المهابة، جعلتني أشك في قصده، وابتسم ابتسامةً مبهمةً نفرتني منه أكثر، ثم ناوله لي وهو يطلق تنهيدةً غريبةً، فأعدته إلى مكانه في إصبعي، ثم تنبهت إلى أن لون الحجر الأخضر صار باهتًا، فما الذي فعله به ذلك اللعين؟.

وبلا ترددٍ أو حياءٍ سألته، وعلى وجهي ملامح غضبٍ مستعرٍ:

- ماذا فعلت بالخاتم يا هذا، لماذا بهت فصّه بهذا الشكل الغريب؟.

أجاب بكل هدوء باللغة العربية الفصحى، وكأنه تخلى عن استخدام العامية بعد أن أيقن فشله في استخدامها:

- وما الذي قد أكون فعلته به في هذه الفترة القصيرة.. إنه مجرد خاتم رخيص من الفضة، كنت أظن أنه قطعة مميزة لأنه يشبه خاتمًا أثريًا قديمًا رأيته ذات يوم، وبفحصه وجدت أنه مجرد تقليدٍ رخيصٍ له، ربما بهت بهذا الشكل لرداءة الحجر أو بسبب سقوط بعض المواد الكيماوية التي تستخدمها في الورشة عليه.

كان تفسيرًا منطقيًا، لكنه لم يقنعني بشكلٍ كافٍ، فأنا متأكد من أن لونه كان طبيعيًا وأنا أرتديه هذا الصباح، وبأنني في ورشتي لا أستخدم أي من تلك المواد الكيماوية التي يمكن أن تفقد للحجر بريقه بمثل هذا الشكل.

إنه بحوزتي منذ سنوات، ولم يطاله أي سوء.

شيء ما من أعماقي أخبرني أن هذا الشخص القميء فعلها عن عمدٍ ليضايقني، لأني لم أتجاوب مع أغراضه الدنيئة.

وعلى الفور قرّرت أن أنهي هذه المهزلة، فقد نمى بيني وبين هذا الشخص نفورٌ كبيرٌ، فكل شيء به مريبٌ وبغيضٌ ومنفرٌ.

صحيح أننا في مهنتنا هذه نرى العجب العُجاب، ولكني لم أقابل من قبل شخص تظهر على وجهه ملامح القهر واللزوجة إلى هذه الدرجة، فقلت بلهجةٍ ذات مغزى:

- السيارة (فابريكة) ولا يوجد بها أي أعطال، وللأسف لن أستطيع مساعدتك.. ابحث عما تريد في مكان آخر.

رمقني بنظرةٍ لزجةٍ، ثم قال بلهجة أكثر لزوجة، عكّرت مزاجي:

- بل ساعدتني أكثر مما تظن.. وما أريده حصلت عليه وأكثر.

وللمرة الأولى منذ عملت في هذه المهنة، أشعر بالتوتر والارتباك بعد تعاملي مع أحد الزبائن، ولأتخطاه أشعلت سيجارة، ورحت أطلق دخانها وفي الهواء، وعيني لم ترفع عن سيارته الفاخرة حتى غادر واختفى من أمامي.

وعلى الرغم من رحيله، ظل مزاجي متعكرًا، واجتاحتني مشاعر متضاربة، وفي عقلي راح يتردد سؤالٌ واحدٌ:

- ماذا كان يريد هذا الداعر الحقير؟.

والعجيب أنه من يومها اختفت تلك الكوابيس والرؤى المفزعة، وزايلني الأرق، وأصبحت أنام في راحة.

بالطبع لم أربط بين اختفائها وبين ما حدث للخاتم قط، وليتني فعلت، لكن لا أحد ينتبه للكارثة إلا بعد وقوعها.

وإن استمرت نوبات الشرود في تنغيص حياتي، وبسببها ظلت ذكرى أبي الكئيبة حاضرة، ودفعتني دفعًا لألح على أمي لتقص عليّ ما حدث بينها وبين أبي قبل أن يتركنا ويغادر، محاولًا استخلاص سبب منطقي لفعلته العجيبة هذه، وما نمرُّ به من أحداث غير مفهومة، فمرة تستجيب، ومرة تنهرني، ومرة تجهش في البكاء.

وظل هذا اللغز شغلي الشاغل حتى شَببت عن الطوق، وأدركت أن الرجال ليسوا بحاجة لأسباب قاهرة ليهجروا أبناءهم وزوجاتهم؛ فالبعض يضج من المسؤولية وضغوط الحياة، والبعض يسعى خلف شهواته، فيبحث عن امرأة أفضل من وجهة نظره، وينجب منها أطفالًا آخرين يراهم سيحققون أحلامه، وينسى كل شيء عن حياته القديمة.

وكان هذا هو السيناريو الأخير الذي ركنت إليه، وأغلقت به صفحة أبي نهائيًا، وإن لم أتوقف عن تذكره ولومه في كل موقفٍ صعبٍ أمرُّ به؛ فلم تكن حياتنا سهلةً ولا بسيطةً كما أسلفت؛ فمن بعده اضطرت أمي بعد نفادِ معظم مدخراتها أن تتعلم مهنة الحيَاكة، لتدبر متطلباتنا المتزايدة، وصارت تسهر لفتراتٍ كبيرةٍ لتنجز أعمالها على ماكينة الخياطة التي اشترتها بالقسط حتى ضعف بصرُها، وأصابها المرض الذي تغيرت من بعده تمامًا.

واضطررتُ أنا حينذاك، برغم صغر سنّي إلى البحث عن عمل، دون أن أملك من مقوماته إلا الحاجة، لأدرك من وقتها، كم أن الحياة قاسيةٌ ومتعبةٌ ولا ترأف بالمحتاجين، وأن المرء لو سلّم عقله لأفكاره لضجّ، وربما اختار الانتحار.

ولأنه لم يكن مقدرًا لي سلوك هذا السبيل المظلم، فإنني وجدت عملًا بأجرٍ زهيدٍ في إحدى المكتبات بدوام جزئي.

وبرغم ثقل الأمر على صبيٍ مثلي، لكن ما شجعني على قبوله، هو تلك الكتب والروايات الخيالية التي تعجُّ بها أرفف

المكتبة بجوار المستلزمات الدراسية والخردوات والهدايا، والتي أدمنت قراءتها بإيعازٍ من أمي، وأعانتني بشكلٍ كبيرٍ على عبور هذه الأيام والمِحن الثقيلة وصارت مصدر سلوتي الوحيدة، وأصبحت تُلازمني في كل مكان.

ومع دوران عقارب الساعة السريع، بدأت أفقد اهتمامي بعودته، حتى أعاد هذا الاهتمام زيارةٌ معتادةٌ من العمة (سحر)، والتي كانت تعودها باستمرار ليتبادلا أحاديث النميمة، ولتهون عليها وحدتها ومصابها، لتتدفق الأسرار في تلك الزيارة الاستثنائية.

وأمام أدوات إعداد القهوة النحاسية، والتي طالما شاركتها مع أبي في بدايات زواجها، انفتحت سيرة الزوج الغائب كالعادة، وجلسن يستعرضن نفس السيناريوهات المُعادة، التي لم يملّا من مناقشاتها في كل لقاء عبر السنوات.

وكأنما فاض بأمي أخيرًا، أفصحت عن مكنون صدرها لصديقتها المقربة، وهي تعتقد أني أغطّ في نومٍ عميقٍ في غرفتي ذات الباب المفتوح الذي نقل إليّ كل كلمة تداولاها سويًا في هذا اليوم الكئيب، وبكل وضوحٍ.

واعتصرت قلبي قبضةٌ باردةٌ حينما راحت باكيةً تلوم نفسها على طيبتها وسذاجتها، وهي تُخبر صديقتها أن طباعه تغيرت كثيرًا في الأشهر الأخيرة قبل اختفائه، وأنها كانت تظن أن هذا راجعٌ لإرهاقه في العمل الذي كان يبيت فيه مؤخرًا أكثر مما يبيت في منزله، وأنها من غبائها، كانت

تُشفق عليه من كل هذا الحمل والإجهاد الذي أصابه، لتسألها صديقتها قائلة:

- هل شككتِ يومًا في سلوكه؟.

لتجيب إجابتها الدائمة بأنه كان رجلًا عاقلًا، ومحترمًا، وهي لم تقصر في حقه قط، ليسلك أي مسلك خاطئ قد يجلب لهما العار أو القيل والقال، لتمصمص صديقتها شفتيها بصوت مسموع، وتقول في لومٍ واستنكارٍ:

- يا خائبة، وهل لو تزوّج من أخرى لن يصير محترمًا، لقد سرقته منك امرأة أخرى لعوب وأنت ما زلت تعيشين في الوهم والذكريات.

وأعتقد أن حديث صديقتها الصريح القاسي آلمها بشدة لأنها عقّبت في حسرة، بأنه لو فعلها لن يكون محترمًا، لأن من يكسر قلب أنثى تحبّه ووهبت حياتها من أجله، لا يعرف شيئًا عن الرحمة أو الاحترام، ولكنها تثق في أنه لم ولن يفعلها.

وأثار هذا شكوك صديقتها، التي رأت أن وراء حديثها هذا سرّ، ومع ضغطها عليها، أخبرتها بسرّها الجديد، وهو أن زوجها عندما زارها لم يكن يزورها في الأحلام، بل كان يأتي لها في غرفة نومهما في هيئةٍ شبحيةٍ مخيفةٍ، تصحبها رائحةٌ منفرةٌ، وتحدث معها وأخبرها بأنه لم يتزوج عليها ولن يفعل أبدًا لأنه لن يخون عهده لها، وأن عليها أن تحمي ابنهما حتى يعود من أجله، وأنه في محنة شديدة. وأنها عاشت مع طيفه أحداثًا كثيرة، ورأت معه عدة مرات كيف سيكون المستقبل،

وأنها ليست متفائلة.

وعندما لامت عليها العمة (سحر) إخفاءها هذه التفاصيل الهامة عنها، لأنه قد يكون جنًا عاشقًا، والشقة بسم الله الرحمن الرحيم، حدثت فيها جريمة قتل، وهي ما زالت بخيرها وتغري الإنس والجن، و عليها أن تزور المشايخ.

لتخبرها بصوتٍ مضطربٍ أنها تعلم أنه هو وليس جنًا عاشقًا، وأنها لن تزور هؤلاء الدجالين.

وهي نقطة أرقتني كثيرًا، لأن وقتها لم تكن تلك الرؤى قد انقطعت عني بعد، وفي اليوم السابق لها وأثناء يقظتي انتابتني حالة من الشرود، ورأيت خلالها مشهد إعدامي في أحد الميادين العامة على يد سحليةٍ بشريةٍ غاضبةٍ، لها عينان مشوقتان كعيون الثعابين، وأنياب حادة.

ولأن اليوم يوم كشف الأسرار، عقّبت أمي بأنها كانت تشعر بأنه يخفي عنها بعض الأسرار، خاصة في الفترة الأخيرة. وظنتها في البداية بعض مشكلات عمله، وسيفصح عنها كعادته عندما تنتهي، وأنها كزوجة صالحة لم تكن لتضغط عليه ليفشيها، لأنه في النهاية ليس له غيرها ليشاركها همومه.

وهو نفس السبب الذي دفعها دفعًا لتتركه في خلواته العديدة التي كانت تطول لساعات بداخل غرفته؛ فهو لم يقصر معها بالشكل الذي يدفعها لتظن أن هناك امرأة أخرى في حياته.

ثم صمتت لبضع لحظاتٍ، وأكملت:

- ولم تكن هناك علامات أو آثار واضحة على ثيابه.

وبالطبع دغم كلّ هذا يقينُ العمة (سحر) التي تقوم بدور الناصحة والخبيرة، بأن هناك امرأة أخرى لا محالة أغوته أو سحرت له، وأمي حمقاء ساذجةٌ ولا مهارة لديها لتكتشف هذه الأمور.

ودغم حوارهم الحزين المتشكك هذا في رأسي السيناريو الأخير؛ ولذلك لم أغفر له غيابه المتعمد قط؛ فبعيدًا عن الرؤى والكوابيس وما نتج عنها من ضغوط نفسيةٍ وعصبيةٍ لا ترحم، فقد خُضت غمار الحياة العملية مبكرًا، والتي لم تكن سهلةً أو مستقرةً في البداية؛ فبعد التنقل بين عدة أعمال مجهدة، كعامل في مكتبة، وصبي في مقهى، ومساعد خبّاز، وعامل في مطعم، وعامل توصيل طلبات، انتهى بي المطاف، وكنت وقتها قد بلغت السادسة عشر من عمري، إلى العمل في ورشة لصيانة السيارات كصبي ميكانيكي، بجوار الدراسة.

وعلى يد الأسطى (صبحي) صاحب الورشة ذُقت طعم الشقاء والإهانة والعذاب وقلة الحيلة والقيمة.

الأسطى (صبحي) تربى على يد أبيه؛ الذي لم يرأف به حتى حمل لواء القسوة من بعده، وصار يعاقبني على أقل خطأ أرتكبه في عملٍ كنت أجهل عنه في البداية كل شيءٍ.

وعندما اعترضت، وتفلسفت عليه كما ادّعى، تعمد تقريعي وإهانتي، وهو يخبرني أن الكتب التي أقرأها هي التي أفسدت عقلي وسلوكي، ومن يومها حرّم عليّ أن أحمل معي

إلى الورشة أي كتاب حتى ولو كان دراسيًا.

وهذا ما جعلني أكرهه، وأكره العمل في ورشته أكثر من أي شيء آخر، فالكتب كانت النور الوحيد وسط الظلام المحيط بي، والأحداث غير المفهومة.

وعندما تجاسرت ذات مرة، وأخبرته أن طريقته هذه جعلتني أكره العمل معه، صفعني، وأخبرني أنه يصنع مني رجلًا، وأن الرجل لا يكره عمله ولا يهرب من مسؤولياته كما فعل أبي، وأنه في مثل سني كان قادرًا على عمل عَمرة كاملة لموتور أي سيارة.

ثم ناولني صفعةً ثانية جعلت أذني تصفر، وهو يخبرني أنني لو لم أتوقف عن الحديث كالنساء أو الشرود مثلهم، وأسلك مسلك الرجال سيلقي بي في الشارع، ويكفي أنه يتحمل قرفي، ويتركني أذهب إلى المدرسة، وأنه لولا أمي تلك المرأة مكسورة الجناح لما تركني أعمل في ورشته حتى هذه اللحظة.

وأكثر ما كان يؤلمني، إهانته لي أمام ابنته (ندى) التي رأيت دموعها تنهمر من أجلي ذات يوم، فتعلّق بها قلبي، برغم صعوبة الموقف، ولكن هكذا الحب يولد في أصعب المواقف.

ناهيك عن الصبية الآخرين، الذين أصبحوا لا يتركون مناسبة إلا وعايروني فيها باختفاء أبي، ويلمحون تلميحاتٍ بذيئةٍ عن سلوك أمي، لأدخل معهم في شجاراتٍ عنيفةٍ كان معظمها ينتهي بأن أتلقى منهم علقةً ساخنةً، بعد أن أكسر

أنف هذا أو ساق ذاك، حتى اشتد عودي، وأصبحت قادرًا على إرهابهم وقطع لسان من يتفوّه عنها بكلمةٍ واحدةٍ.

كانت حربًا حقيقية، وربحتها في النهاية بعد أن شدّ العمل عودي، وحوّلت ممارستي لرياضة كمال الأجسام جسدي إلى كتلةٍ صلبة من العضلات، أعطتني مهابة؛ فسوق العمل الشعبي كالغابة لو لم تبرز لمن فيه أنيابك جعلوك مطيتهم، وأهانوك، ومزقوك إربًا.

وفي الورشة تعلمت كيف أصبح قاسيًا، وعنيفًا، ومخيفًا، كما تعلمت مهنة إصلاح السيارات بجوار دراستي التي كان تقدمي فيها ملموسًا، برغم أنها مثلت لي عبئًا إضافيًا، وذريعة دائمة لسخرية الأسطى (صبحي) مني أو إظهار تبرّمه.

وفي النهاية مرت السنوات بحلوها ومرها، وأنهيت دراستي الجامعية وحصلت على الشهادة العليا في الهندسة، وعلقتها في صالة منزلي لتثلج قلب أمي الذي لم يعرف الفرح منذ زمن، ثم تفرغت لقراءاتي الحرة وللعمل في الورشة ولـ (ندى).

ومرّت الأيام لأصبح رقم واحد في الورشة، وصار الأسطى (صبحي) يعاملني كابنه، وينظر إليّ كأهم إنجازاته، ولا يناديني إلا بلقب الباشمهندس (حازم).

صحيح أن القسوة ليست طريقة للتعليم، لكنها نجحت معي في النهاية، وصنعت مني ذلك الشخص الموجود أمامكم، وباتت حاجتي لوجود الأب ذكرى منتهيةً، بل وتكيفت على

وحدتي، وأن سندي في الحياة هو ذراعي.

لم تنزع أمي ثياب الحداد من يومها، ورفضت كل من تقدّم لها عبر السنوات، فقد كانت كما أخبرتكم جميلة الملامح والطّباع، وزادتها أحزانها فتنة، وظلت لفترة طويلة مطمعًا للعديدين، وكانت إجابتها الدائمة:

- أنا امرأةٌ متزوجةٌ، وزوجي عائد، ولن أدخل على ابني أو يمسني رجلٌ غريبٌ.

كنتُ دائم الشفقة عليها، وهي ما فتئت تذكرني بأنها لم تكن السبب في غيابه، وأن ذيلها طاهرٌ، وأنه ذات يوم سيعود ويعوضنا عن كل ما قاسيناه، فرؤاها تخبرها بهذا.

حياةٌ برغم قسوتها تشبه حياة الكثيرين، وربما أفضل من حياة البعض، فعلى الأقل صرتُ أمتلك شهادةً عليا، ومهنةً مربحةً، وأتقنت العديد من اللغات بشكل أثار دهشتي أنا شخصيًا، فلم أبذل أي جهد لهذا.

وقريبًا سأكون قادرًا على تكوين أسرة، ومنح أمي الأحفاد الذين تتوق لهم، خاصة وأن الأسطى (صبحي) أظهر ترحيبًا شديدًا عندما لمّحت له عن رغبتي في الارتباط بابنته الصغرى (ندى)، التي تمثل مختصر أحلامي، والدافع الوحيد وراء كل نجاح حققته في حياتي.

إنه سحر الحب حينما يتوافق مع القدر.

قد تكون تلك الرؤى اللعينة، والمشاهد الغير منطقية - التي

زرت بسببها الطبيب النفسي سرا - شككتني لبعض الوقت في حقيقة مشاعرها نحوي، أو مصير علاقتنا، ولكنها ظلّت الثابت الوحيد الذي ربطني بهذا الواقع المضطرب، الذي أصبح بوجودها أجمل من الخيال.

حياة كان مقدرًا لها أن تمضي على وتيرتها برغم المنغصات، حتى تتكلل قصة حبنا بالزواج، كحياة كل الناس العاديين الذين لا تخلو ذكرياتهم من لحظات سعادة؛ بعد ما لاقوه من مآسٍ ونكبات.

لولا أن ظهر أبي ذات ليلة أمام باب شقتنا، يطرق الباب شاردًا هائمًا بعد منتصف الليل، في هيئة أقرب إلى المتسولين أو المشردين، ويسألني في لهفةٍ:

- هل ما زال ابني على قيد الحياة؟.

***

شيطانٌ رجيم

ما الذي فعلته في الخاتم أيها الأحمق؟

لهذا السبب كنت عاجزًا عن التواصل الخارجي، لهذا السبب انحبس طيفي في الأثير.

كانت مفاجأة من العيار الثقيل، أن يعود أبي بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الغياب ويطرق باب شقتنا في هذا الوقت المتأخر، وكأننا بداخل مشهدٍ عبثيٍ من أحد تلك الأفلام القديمة الساذجة.

ظننته لأول وهلة متسولًا أو عابر سبيلٍ مخبولٍ يردد بعض العبارات المبهمة التي لا معنى لها، وهممت أن أمنحه بعض النقود وأصرفه إلى حال سبيله، عندما رأيت أمي تندفع خارجة من غرفتها بكل لهفةٍ، وكأنها أحست به، دون أن تره بعينها، لتقف متسمرةً أمامه كالتمثال.

لا أحد يمكن أن يتوقّع ما دار في عقلها ساعتها، وهي تراه بشحمه ولحمه أمامها، بعد أن فقدت كل أمل في عودته، ومرّ ما يقرب من ربع قرن على غيابه، ولكن عينيها قالت الكثير، وهي تهمس في عدم تصديق، ودموعها تغرق وجهها:

- (سليمان) عاد.. (سليمان) عاد.. زوجي عاد.

أما هو، فما أن وقع بصره عليها، حتى خذلته قدماه، وكاد يسقط أرضًا، وهو يهتف بما تبقى لديه من قوة:

- أجيبوني بالله عليكم.. أما زال ابني على قيد الحياة؟

تلقفته بين ذراعي كطفلٍ صغيرٍ وسحبته إلى الصالة وجعلته يتمدد على الأريكة، وعقلي عاجزٌ عن استيعاب ما يحدث.

فهذا الشخص الذي تدّعي أمي كونه أبي، رأيته أكثر من مرة يحوم حول الورشة خلال الأيام الماضية، ولكنه لم يكن في هذه الحالة المزرية.

لتجيبه أمي بصوتٍ مختنقٍ:

- بلى ما زال على قيد الحياة.. حمدًا لله على سلامتك.

رمقتُ أمي في دهشة متسائلًا غير قادر على إخبارها بما يدور في ذهني، فاختنق صوتها وهي تقول:

- لقد عاد أبوك.. عاد أبوك.. لم أشك في هذا لحظة يا (حازم).

رمقته مندهشًا غير متخيلٍ أنه نفس الشخص، الذي طلب مني منذ يومين أن أشعل له سيجارة أمام الورشة، فالموجود أمامي شخصٌ واهنٌ ضعيفٌ غير قادر على صلب طوله، يرتجف وكأنه يشعر ببردٍ شديدٍ أو مصاب بالحمى.

حقيقة لا أعرف كيف تدهورت حالته الصحية في هذه الفترة القصيرة، ولا كيف نحل واستطالت ذقنه وتغضنت بشرته وامتلأت بالندوب بهذه السرعة، ولا كيف استطاع الوصول إلى المنزل وصعود الدرج على قدميه بهذه الحالة الصحية المتردية.

إنها معجزة حقيقية أنه ما زال قادرًا على التنفس، لابد وأنه بذل جهدًا خرافيًا لينجح في هذا الأمر! فما الذي أصابه؟.

رأيته يرتجف، فنفضت عن رأسي كل هذه الأفكار، وسحبت وشاح أمي الصوفي من فوق الأريكة القريبة، ودثرته به واندفعت لأحضر له بعض الماء، بعد أن تجمدت أمي في مكانها، ولم تستجب لطلبي مع صدمتها الشديدة من منظره المروع المثير للشفقة والإحباط، والذي هدم كل تخيلٍ لها عن عودته المظفرة.

وعندما عدث وجدته فاقد الوعي فاكتفيت بتبليل شفتيه، وأنا أتأمل ملامحه الشاحبة، ووجهه الذي بدأ يكتسي باللون الأزرق، لأدرك أنه يختنق، وبكل هلعٍ صرخت:

- إننا نفقده.. أحضري بعض العطر.

وبكل الوسائل المتاحة حاولنا إفاقته.

العطر فشل.. والبصل فشل.. ومحلول النشادر القوي أيضًا فشل، لم تستجب له غدده الشمية.

ومضت الدقيقة تلو الأخرى مدمرة لأعصابنا بعد أن انخفض معدّل تنفسه لأقصى حد، وأنا أستميت في محاولة إفاقته، بالضغط على صدره، والنفخ في فمه كريه الرائحة، وبداخلي رحت ألعن الحظ السيئ، الذي جعله مفقودًا طوال هذه السنوات، ليأتي ويموت بين أيدينا الآن.

كانت ستكون أغرب نهاية لقصتنا، لولا رحمة الخالق

عز وجل، الذي لم يشأ أن تتعرض أمي لصدمةٍ جديدةٍ لن تتحملها؛ ففي اللحظة التي عزمت فيها التوقف عن المحاولة، وكدت أيأس، استجاب أبي أخيرًا لمحاولاتي، واستفاق بشكل جزئي غير واعٍ، ليردد في هلع:

- الغرفة السابعة.. عليك أن تصل إلى الغرفة.. السابعة.

استفز ذكر الغرفة عاصفة من الذكريات المبهمة من أعماق ذاكرتي، لم أستطع القبض عليها في حينها، وتركيزي كله منصبٌ على إكمال مراحل إنعاشه، وكأنني طبيبٌ متمرس بطريقة أثارت ذهولي.

في حين شهقت أمي، وراحت تنظر نحوه في هلعٍ، وكأن لما ذكره معنى سيئ.

وعندما وجدتني أرمقها في تساؤل أصابها الارتباك والذعر، وتركتني وذهبت إلى غرفة نومها مدعيةً أنها ستعد له الفراش.

وبعد وقتٍ قصيرٍ نادت أن أحضره، فحملته بين ذراعي ودخلت به الغرفة، وأرحته عليه بحرصٍ شديدٍ.

وما أن استوى فوقه حتى أطلق صرخةً مكتومةً متألمةً جعلت قلبي ينقبض، ووجه أمي يشحب.

كان من الواضح أن هناك شيئًا ما لا يريحه أو يؤلمه؛ ولذلك طلبت من أمي أن تحضر له بعض الثياب، لنبدل ثيابه ونبحث عن سبب ألمه.

وأثناء قيامها بإحضار ثياب نظيفة من الدولاب، رُحت أتأمل ملامحه غير مصدقٍ أن لغز حياتنا تمّ حله بهذه البساطة، برغم ما يحيط به من علامات استفهام.

ولأنها كانت ليلة المفاجآت، فلم تمض دون مفاجأة صادمة أخرى، وهذه المفاجأة كانت تقبع أسفل قميصه.

فما أن نزعنا سترته الواسعة سيئة الرائحة، وقميصه الممزق، حتى فوجئنا بكمٍ من الإصابات والتقرحات، لا يمكن أن يصاب بها إنسان عادي ويبقى حيًا.

وما أن وقع بصر أمي عليها حتى أطلقت شهقةً مكتومةً، وطفرت عيناها بالدموع، وهي تضرب صدرها بيدها، في حين ضممت أنا قبضتي وتقلصت عضلاتي، وقد شملني كل غضب الدنيا من كمّ الوحشية التي أراها؛ فقد تعرض ذلك المسكين، لتعذيبٍ بدنيٍ مروعٍ لا أعلم كيف احتمله أو نجى منه ليصل إلينا على هذه الحالة.

وبصعوبةٍ شديدةٍ، قُمنا بنزع أجزاء القميص الملتصق في لحمه، وعدنا نتبادل النظرات غير مصدقين ما نراه.

كان الأمر أسوأ من تخيلنا، فعلى ذراعيه رأينا بقعًا حمراء وتقرحات وآثار حروق والتهابات عنيفة، وعلى صدره وظهره كان هناك ما يشبه آثار غائرة لعمليات جلدٍ عديدةٍ، تمت في أوقات مختلفة، وبقسوةٍ بالغةٍ.

وعندما نزعنا سرواله هَالنا كمُّ الاصابات التي يخفيها، وأعنفها التي كانت في ساقه اليسرى، والتي تمّ انتزاع قطعة

لحم منها، وكأنها ذابت بفعل مادةٍ كاويةٍ.

وحتى وجهه لم يخلُ من آثار جروحٍ قديمةٍ أخفتها التجاعيد، وكأنه أحد أسرى الحرب الهاربين الذين لم يرأف بهم أعداؤهم.

الأمر كان أكبر من أي وصف والصدمة أعنف من كل توقعاتنا، ولكنني أجبرت نفسي على تجاوز الصدمة، معتمدًا على رد الفعل الدفاعي الغريزي، الذي يوهم العقل فيه المرء أن كل ما يحدث من حوله غير حقيقي، وببعض الصبر سينتهي.

ودون وعيٍ، وجدت نفسي أربّت على يد أمي، وأشاركها في نوبة بكاءٍ عنيفةٍ، وعقلي يحاول استيعاب هذا الهول المتجسد أمامنا؛ فحالة الجروح والإصابات الموجودة في جميع أجزاء جسده، دلّت بشكلٍ مؤكدٍ على أنه تعرّض لتعذيب ممنهجٍ خلال سنوات عديدة لا في وقتٍ واحدٍ؛ فمنها ما هو قديم اندمل تمامًا ولم يبق إلا أثره، ومنها ما قطع شوطًا في الشفاء وعلى وشك الاندمال، والبعض حديث جدًا وما زال ملتهبًا، وكأنما لم يمض عليه سوى بضعة أيام، ولم يحظ بالعناية الكافية.

لقد ذهب أبي إلى الأبد، وعاد بدلًا منه تلك البقايا البشرية المشوهة، ليضيف ألغازًا جديدة للغز اختفائه.

أما ما أثار دهشتي إلى أقصى مدى، هو ذلك الوشم الهيروغليفي العجيب الذي يمثل مفتاح حياة مجنحًا، لم أر

مثيلًا له من قبل، والذي ظهر بارزًا على صدره، وكأنما وُلد به، وتلك الورقة المطوية التي كتب عليها رقم هاتفٍ وحيدٍ، بقلم فحمٍ أو ما يشبهه، وتركتها لأمي لتحفظها حتى يطلبها، أو يتذكرها.

هذا لو خرج سالمًا من هذه المحنة.

وتحوّل البيت في سريّة شديدة إلى مستشفى مؤقتٍ، وراحت أمي تُشرف على العناية به بكل اهتمامٍ وأملٍ، بعد أن استعانت بممرضةٍ مغتربةٍ من بلدٍ آخر أقسمت ألا تفشي السر، بعد أن تلقت مبلغًا محترمًا من المال، بعد أن أقنعتها أمي أنه كان معتقلًا ظلمًا، وتمّ الإفراج عنه مؤخرًا.

لو رأيتم كيف وصلت أمي الليل بالنهار، وكيف تبدّل حالها، ولم يعد شيء في الدنيا يهمها إلا رعايته، لأدركتم أنها كرّست نفسها لشيء واحد فقط..

أن تنتزعه من بين قبضة الموت.

كانت معركةً شرسةً.

منهكةً..

يائسةً..

ولكن عزيمتها لم تتبط أو تلين قط.

وكان هذا على حساب صحتها، فنصحتها أن تتروى وتهتم بنفسها قليلًا، كي لا يقوم واحدٌ ويسقط آخر، فأخبرتني أنها لن تتخلى أو تقصر في حق زوجها ولو كان الثمن حياتها.

وفي النهاية كسبت معركتها.

واستقرت حالته.

وبدأت البسمة تغزو وجهها على استحياء.

وهنا أدركت أن الموت لا يستطيع هزيمة امرأةٍ عاشقةٍ..

ومن أعماقي تمنّيت أن تكون هذه هي نهاية الأحزان، وبداية حياةٍ جديدةٍ مستقرةٍ، رغم ما سيضاف على عاتقي من مسؤوليات، ليعينني الله عليها، أبسطها أنني مطالب بالتعامل معه كأب، وأنا لم أختبر من قبل كيف يتعامل الأبناء مع آبائهم.

وخاصة العائدين من الموت.

أما ما أصابني بعدم الراحة، وأثار قلقي الشديد في الأيام التالية، فهو تلفته الدائم حوله، وفزعه كلّما لمسه أحد بشكل مفاجئ وكأنه مطاردٌ أو هاربٌ من شيءٍ ما، ولذلك تعاملت معه بالكثير من التحفظ والحذر.

وبعد فترة لا بأس بها من ظهوره المريب، وتعافيه بشكلٍ كافٍ لمواجهة الزائرين، أعلنت أمي خبر عودته في كل مكان، لتنفي عن نفسها جرمًا لم ترتكبه، ليتحول بيتنا بعدها إلى سيرك.

وخلال تلك الفترة المرهقة حرصت أمي على إخفاء آثار إصاباته وجروحه العديدة التي غطّت معظم أجزاء جسده، وبالغت في العناية بمظهره الخارجي، ليظهر في أفضل حالٍ

أمام حشود الزائرين، ونظرات شقيقته الكبرى المتشككة، التي كانت على قدرٍ كبيرٍ من الوقاحة كي لا تعتذر عمّا بدر منها تجاه أمي في الماضي.

وطبق أبي كل تعليمات أمي بحذافيرها كتلميذٍ نجيبٍ، وأخذ يعامل الزائرين بودٍ، وعلت وجهه ابتسامةٌ دائمةٌ كما أكّدت عليه، وشرع يجيب على تساؤلاتهم في صبرٍ وأناةٍ، ويحاول أن يطفئ جمرة فضولهم ببعض القصص الملفقة، دون أن يأتي على ذكر ما تعرض له من تعذيبٍ وتنكيلٍ.

والعجيب أنه طوال هذه المدة لم نخرج منه بمعلومةٍ شافيةٍ تحل لغز غيابه، وهذا أثار فضولنا ودهشتنا، لذا فعندما هدأت الأمور واستقرت وانفض السيرك المعقود بعد أن أطفأ الزائرون جذوة فضولهم وشبقهم لمعرفة الحقيقة، راحت أمي تحاول التقرب منه أكثر، فسنوات الغياب جعلته غريبًا عنها.

وبكل شغفٍ راحت تقصُّ عليه كل ما فاته من أحداث، وكم عانينا في بعده، وهي تظن أن الشوق يقتله إلينا وإلى أخبارنا، خاصة بعد سؤاله الملهوف عني فور وصوله، وعن كوني ما زالت على قيد الحياة، وكأنه مما قاساه كان يخشى ألا يراني مرة أخرى.

والعجيب أيضًا أنه لم يظهر عليه أي ملامح تجاوبٍ أو اهتمامٍ بما تقصُّه عليه من أخبارنا، بل راح يعاملها بلا مبالاة وبرودٍ حتى أجبرها على أن تصمت، وتتعامل معه في حدودٍ ضيقةٍ، وتتوقف عن إزعاجه بما لا يهتم بسماعه.

وبطبيعة الأنثى الشرقية التي جُبلت على طاعة زوجها، تركته في عزلته برغم ثقل الأمر على روحها، وهي تتساءل لماذا يعاملها بهذا الفتور، وأين لهفته الأولى على ولده، ولماذا لم يظهر نحوها أي نوع من الشوق أو الرغبة؟.

صحيح أنه ما زال في مرحلة النقاهة والتعافي من نازلةٍ ثقيلةٍ، لكن نظرةً واحدةً تكفي.. لقد أخبرتها جدتها أن آخر ما يموت في الرجال هو رغبتهم واشتهاؤهم للنساء.. فهل لم يعد يراها أنثى؟.

ولأن مثل هذه الأفكار لا يمكن الإفصاح عنها، ظلّت حبيسة صدرها إلى أن انكشفت لي مصادفة من خلال أحاديثها المستمرة مع العمة (سحر) عبر الهاتف، فعندما تندمج في الحديث يرتفع صوتها ويصل إلى غرفتي.

ولو لم تُفصح عنها، فلم تكن لتغيب عني، فأنا لم أعد طفلًا صغيرًا لا يفهم ما يدور من حوله، كما أن تداعيات هذا الأمر ظهرت في توترها وكدرها وعصبيتها الزائدة؛ فكل امرأة مهما بلغ عمرها أو خسرت من جمالها أو فتنتها، لا يسعدها أكثر من أن تكون مرغوبة من زوجها، حتى ولو كان عظمًا في قفة كما يقولون، وهو ما عبّرت عنه في خضمّ حديثها مع العمة (سحر) عندما قالت:

- ليس المهم الفعل بل الإحساس، وهو حرمني من الاثنين.

وعلى كل حال، لم تكن أفضل الأيام بالنسبة لنا، لكنها كانت أهدأها وأكثرها استقرارًا؛ فلم تعد تهاجمني أنا أو أمي نوبات

الشرود، ولم تعد هناك أي ألغاز في حياتنا بعد عودة أبي.

صحيح أنه لم يشبع فضول أي منا عن سنوات غيابه، وسبب إصاباته الفادحة، أو لماذا كان يحوم حولي قبل ظهوره، أو سر التحول الرهيب الذي أصابه، ولكنه أصبح أفضل جسديًا ونفسيًا عن أول مرة رأيناه فيها.

يتعافى ببطء، لكن بشكلٍ جيدٍ.

وربما تكشف الأيام القادمة ما خفي عنا.

وعدت أنا إلى دوامة العمل الذي التهم جلّ وقتي، وإن حرصت على اقتطاع جزء منه وتخصيصه لأبي، فربما لديه ما يخجل من قصّه على أمي، أو ما يخاف على مشاعرها منه، فيصارحني به.

وللأسف كما تعامل مع أمي، تعامل معي.

ولأن الرجال غير النساء تركته على راحته حتى تستقر نفسيته، ويقرر أن يتعامل معي بشكل طبيعي، وأخفيت ضيقي.

وعلى عكس توقعنا، حدثت له انتكاسة كبرى.

وبدأت عزلته تزداد.

وأصبح دائم الجلوس وحيدًا في غرفته.

بل وبدأ يدخل في نوبات شرودٍ تستمر لساعات، تتبعها نوبات هذيانٍ قصيرةٍ.

وذات يوم صارحتني أمي أنها غير مرتاحة لحالته المتدهورة هذه، وأنها لم تعد قادرةً على تحمُّل كل هذا الضغط والتوتر، وترغب في عرضه على طبيب نفسي، ولا تستطيع أن تفاتحه في موضوع كهذا، لأنه قد يعتبرها إهانةً ووقاحةً منها.

طمأنتها بأني سأتولى هذا الأمر بنفسي، وأخذت على عاتقي هذه المهمة الثقيلة، وفي اليوم التالي، وبعد عودتي من العمل، دخلت غرفته، وهممت بأن أصارحه بما عقدنا عليه العزم، فأشاح ببصره عني، كما يفعل منذ أصابته تلك الانتكاسة، ثم تراجع بغتةً واتسعت عيناه عن آخرهما، وتجمَّدت نظراته على يدي، بل تحديدًا على خاتمه الذي ورثه عن أبيه، والذي أرتديه منذ طفولتي، وشهق شهقة قصيرة.

ثم هبّ من مكانه واندفع نحوي بشكل مفاجئ، وانقض على يدي وانتزع الخاتم من إصبعي في غلٍ، وهو يرمق حجر العقيق الأخضر الذي فقد لونه القديم الزاهي، وهو يقول في ذهول:

- ما الذي فعلته في الخاتم أيها الأحمق؟ لهذا السبب كنت عاجزًا عن التواصل الخارجي، لهذا السبب انحبس طيفي في الأثير.

وقبل أن أجيبه، خبط رأسه بكفه، وكأنه تذكر شيئًا هامًا، أو عاد له جزء من ذاكرةٍ مفقودةٍ، وخرج مهرولًا من الغرفة إلى حيث تجلس أمي جلستها المعتادة في الصالة لتنعي حظها،

وطلب منها بشكل هستيري الورقة المطوية التي تركها في ثيابه القديمة، والتي كانت تحتوي على رقم الهاتف المكتوب بالفحم، وأوراقه القديمة التي تركها في محفظته، لتقوم تلك العزيزة كالملسوعة وتجلب له ما طلب، وهو يرمقني في غلٍ وغيظٍ.

وما أن حصل عليها حتى عاد إلى غرفته فتبعته إليها بشكل لا إرادي، وكلي فضول لأعرف ماذا سيفعل بها.

وفي عصبيةٍ وخشونةٍ طردني خارجها، وانهمك في فحص تلك الأوراق، وكأن لهم أهميةً قصوى لا نعرفها.

ورحت أنا وأمي في الصالة نتبادل النظرات، وبأعماقي فكرةٌ واحدةٌ: الأمر لم يعد يمكن السكوت عنه، وعلينا أن نعرضه في أقرب وقت على طبيبٍ نفسي، ولو رغمًا عنه.

لمحنا نراقبه من الصالة، فصفق الباب في وجوهنا، فانتفضت أمي في مكانها، فربتُّ على كتفها فمسّت كفي في امتنان، وهي تجاهد لتخفي دموعها، وعندما عجزت هبّت مسرعةً ودخلت غرفتها.

لم أعرف كيف أتصرف في هذا الموقف، ثم فكرت أنها ربما في حاجة لتفريغ طاقتها المكبوتة في البكاء، فلم أرغب في مقاطعتها، وتركتها ودخلت غرفتي، وفي عقلي يدور سؤالٌ محيرٌ:

- ما الذي يربط الأوراق التي كانت في حافظته وتحتوي مصفوفات الأرقام والحروف بالخاتم، ورقم الهاتف؟.

لقد رأيت هذه الأوراق من قبل وسط متعلقاته التي احتفظت بها أمي في غرفتها، ولم أر لها فائدة أو قيمة تُذكر من وجهة نظري سوى قيمتها العاطفية، وقررت أنها تخص عمله كمحاسب لأنها كانت تحتوي على الكثير من الأرقام.

وكالعادة كنت على خطأ؛ فهذه الأوراق كانت مفتاحًا مهمًا لفهم اللغز.

ومن هذه اللحظة انقلب كل شيء في حياتنا رأسًا على عقب، وأصبح باب غرفته مغلقًا على الدوام، ولم يسمح إلا لأمي وحدها بالدخول عليه في أوقات محددة وبطلباتٍ محددةٍ، انحصرت في الطعام والشراب وعلب التبغ، وكروت الهاتف التي كان يواصل طلبها يوميًا، بعد أن أجبر أمي على شراء هاتف محمول محدود الإمكانيات، وخطٍ جديدٍ، لتبدأ أسوأ فترة في حياتنا.

فمن يومها قاطعني أبي، وصار يتعامل في المنزل وكأنني غير موجود أو لا يراني؛ وكأن ارتدائي لذلك الخاتم كان جرمًا لم يغفره.

ثم زاد الجنون، عندما لمحته أكثر من مرة يتلصص عليّ في الورشة، وعندما سألت أمي عن حقيقة خروجه في تلك الأوقات، نفت الأمر بشكلٍ قاطعٍ، فلم أعرف هل ما أراه مشكلتي أم مشكلته.

وبرغم هذا رحت أطمئن على أحواله من أمي بشكلٍ دوري، لأطمئن على أحوالها هي، فبيننا نشأ حاجزٌ نفسيٌ شاهقٌ

الارتفاع، لم ينو أي منا تخطيه، وفي أعماقي نمى حزنٌ شديدٌ على تلك المرأة الطيبة التي ارتبطت حياتها بشخصٍ مختلٍ مثله.

وعلى عكس فتوري وتبدل مشاعري، استمرت هي بكل إخلاصٍ وتفانٍ في العناية به دون كللٍ أو مللٍ.

وفي الوقت الذي نحل فيه عودها، وشحب وجهها، وظهرت الهالات السوداء تحت عينيها، حصد هو ثمار عنايتها به، واستردَّ كامل صحته وعافيته، ليتحول بين ليلة وضحاها إلى شيطانٍ رجيمٍ، ويقابل كل هذا بجحودٍ ونكرانٍ عظيمين.

فأصبح لا يتوقف عن الصراخ والسباب لأتفه الأسباب، وراح ينتقد أمي، ومعيشتنا، والبيت، وكل ما يقع عليه بصره، ليحيل حياتنا إلى جحيمٍ حقيقي، دون أن يدري أحدنا، سرَّ هذا التحول الخطير الذي أصابه.

فالأمر دون شكٍ يتخطى فكرة ارتدائي للخاتم، لشيء أخشى التصريح به، وأخشى أن أقول أني رأيته قبل أن يحدث في تلك الرؤى الملعونة، الذي ظننتها تخص إحدى نسخي الأخرى في العوالم الموازية، والتي رأيت فيها هذا البيت يتحول إلى مسرحٍ لجريمة قتل.

وأكثر من عانت في هذه الفترة السوداء، هي أمي التي كانت محتجزة معه تحت سقفٍ واحدٍ طوال اليوم، والتي تحملت مشاق غيابه لسنوات، ثم أعباء وجوده وتطرف أفعاله وإهاناته المستمرة بعد عودته، رغبةً منها في إثبات أنها ما

زالت الزوجة الصالحة التي لم تتخلَ يومًا عن زوجها، وأن غيابه لم يكن لها يدُ فيه، وأن ذيلها طاهر.

والحقيقة أنني أنا من لم يتحمل هذا الجحيم الذي أصبحنا نحيا فيه ليل نهار بداخل المنزل، وملاحقته المريبة لي خارجه، مع نفي أمي الدائم لخروجه من المنزل في تلك الأوقات التي أرصده فيها، فأصبح وجوده بالقرب مني يصيبني بالغضب والجنون.

فهو بشكلٍ متعمدٍ كان يستفز شيطان العنف الرابض في أعماقي دون هوادة، وكأنه يبحث عن صدامٍ.

وكادت أعصابي أن تفلت وأشتبك معه عدة مرات لولا تدخل أمي لتحول بيننا، وتذكيرها الدائم لي بأنه أبي، فلم أستطع أن أصارحها بأني بتُّ أكره مجرد ذكر اسمه أمامي.

وما لم تدركه تلك العزيزة، أنني كنت بارًا به، كنوع من برّي بها، ومن أجلها فقط تقبلت عودته وتحملت مسؤوليته وأعباء مرضه، وأنه لولا وجودها لاختلفت الأمور؛ فسنوات المعاناة غيرتني كثيرًا، وبدّلت من تفكيري، وجعلتني لا أرى ما قاساه مبررًا أو ذريعة، فغيابه كان اختياره، لذا فكل تبعات هذا الغياب تخصه هو، ناهيك عن سلوكه المختل هذا، واستفزازه لي وإهانته المستمرة لها.

ربما أشفقت عليه في البداية ولكنني لم أعد أراه إلا وحشًا مسعورًا خرج من أسوأ كوابيسنا ليضاعف معاناتنا.

وصرت أتمنى لو عاد إلى الجحيم الذي أتى منه، بعد أن

جعلني أكره البيت الذي بتنا نحيا تحت سقفه معًا، ولا أعود إليه إلا على موعد النوم، وأتجنب أي احتكاك معه أو مع أمي التي لم أقتنع بأي مبررٍ ساقته لي مع تماديه في غيّه، ولا دفاعها المستمر عنه، ولا حقوقه التي لا أعلم بأي عدلٍ يحصل عليها مني.

ولم أتقبل قصصها الخيالية عمّا يمكن أن يكون قد تعرّض له في فترة غيابه، وكيف حولته الضغوط إلى شخصٍ غير متزنٍ، أو أنه يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة، كما يحدث مع الأسرى أو الجنود العائدين من الحرب، وعلينا أن ندعمه حتى يعود لرشده وطبيعته السابقة، فمن أعماقي كنت أرى أنه شخصٌ غير جدير بالمحاولة، وأن غيابه بالفعل كان رحمةً من الخالق، لم أعرف قيمتها إلا الآن..

وليتها استمرت!

وبتُّ أعلم أنّ الصدام قادمٌ لا محالة، فلم أعد أطيق منظره المشعث، ولا نظراته المتهمة غير المفهومة التي أصبح يلاحقني بها طوال الوقت، ولا الأعباء المادية التي زادت على كاهلنا، بسبب طلباته التي لا تتوقف، والتي كما أخبرتكم باتت تنحصر في الفترة الأخيرة في طلب كروت شحن لهاتفه بمبالغ كبيرةٍ لأنه يقوم باتصالاتٍ دوليةٍ كثيرةٍ، وعلب التبغ التي كان يدخنها بشراهة، والتي تجاوزت الثلاث علب في كثير من الأحيان.

والأكثر من هذا صراخه المستمر مع أشخاص مجهولين

على الهاتف بعدة لغات أجنبية مختلفة، كانت تتمحور جميعها حول العنوان الجديد الذي ستظهر فيه الغرفة السابعة.

إنها المرة الثانية التي يذكر فيها شيئًا عن هذه الغرفة..

لقد جنَّ تمامًا! هذا ما أصبحت موقنًا منه، وما أصبحت أخشى منه على أمي.

وما دعم شكي أكثر، وهو تلك الطريقة الغريبة التي انتهجها وهو يتفحص تلك الأوراق القديمة المليئة بالأرقام والحروف، والتي حوّلها فيما بعد إلى مجموعة عجيبة من الخرائط والرسوم، التي امتلأت بالعديد من الملاحظات، والخطوط المتقاطعة التي لم تفهم منها أمي أي شيء.

وبسبب ارتباكها في المرة الأولى، والذعر الذي ظهر على وجهها، لم أحبذ بالطبع أن أخبرها أنه يسعى بواسطتها للبحث عن الغرفة السابعة؛ التي كلّما أتى ذكرها انقبض قلبي، وهاجمتني تلك الذكريات المبهمة.

ومن بعدها أصبح دائم الجلوس في غرفته، يتفحص أوراقه التي يمنحها أهمية قصوى، ويتشاجر في الهاتف، ولا يحرك مؤخرته إلا لدخول الحمام أو لطلب شيءٍ جديدٍ، وصارت غرفته برغم حرص أمي على نظافتها سيئة الرائحة، فهي لم تكن تخلو لحظة من سحب الدخان.

كما أنه حطّم أعصابنا بصراخه المستمر؛ فهو لم يكن ينام لأكثر من ساعتين، قبل أن يهب مفزوعًا، ليمسك هاتفه، ويتفحص الأوراق، ويقوم بالاتصال بهؤلاء الأشخاص

المجهولين ليرتفع صراخه وجداله معهم.

ولا أعرف كيف مضى على وجوده بيننا شهرين كاملين، دون أن يفتك أحدنا بالآخر؟.

شهران تحولت أمي خلالهما إلى شبح هزيل غائر العينين، وكأنما أضحت عجوزًا في نهاية العمر.

وأشرفت أنا على التحول إلى قاتل، وصارت عصبيتي حديث الساعة في الورشة التي أعمل بها.

فلا نوم..

ولا راحة..

ولا استقرار في هذا البيت، أو خارجه مع ملاحقته الدائمة لي.

أما المخيف.. أني سمعت أمي ذات مرة تحدث العمة (سحر) في الهاتف، وتخبرها بأنه عاد إلى جنونه القديم وأحاديثه الغامضة عن الغرفة، وأن عليها أن تجد حلًا حاسمًا للموضوع لأنها تخشى أن أتهور، وأرتكب مصيبة.

وكان لديها ألف حق، لأنني من أعماقي كنت أتمنى لو هشمت عنقه، وأعدته إلى القبر الذي خرج منه.

وهنا أدركت أن تلك العزيزة ما زالت تخفي في جعبتها المزيد من المعلومات والأسرار.

وأن الزوجة وحدها فقط من تعلم أسرار الزوج المظلمة.

وفي موقف آخر كنت سأضغط عليها لتخبرني بما تخفيه عني ولم تفصح عنه بعد، ولكنني كنت قد انتهيت منه، ولم يعد لدي فضول لأعرف أي أسرار تتعلق به أو بغرفته المزعومة.

فقط أنتظر تلك اللحظة السعيدة التي سيعود فيها من حيث جاء، ويرحمنا من كل هذا الهذيان، فتبعات عودته علينا كانت سيئة بأكثر من لو جاءنا خبر موته؛ الذي أصبحت أتمناه وأخطط له في خيالي طوال الوقت؛ رغبة مني في التحرر من حبل ضغطه المستمر الذي يلفه حول أعناقنا.

حتى جاء ذلك اليوم الذي استيقظت فيه ليلًا على صوت صراخه المرتفع في الهاتف، وكلي رغبة في هشم رأسه أو قطع لسانه، بعد أن حرمني من النوم والراحة بعد يوم عملٍ طويلٍ وشاقٍ.

ليلتها خرجت من غرفتي، وغضبٌ عارمٌ يستعر في روحي، ثم توقفت قبل أن أصل إلى باب غرفته المفتوح، بعد أن لفت نظري هذه المرة أنه يتحدث باللغة العربية الفصحى، وباللهجة الخليجية إلى شخص مجهول، ويسأله عما فعل من أجله، وهل نجح في مسعاه؟.

بالطبع لم أسمع ما يخبره به هذا الشخص، ولكنني فهمت من سياق الحديث أن هناك تطورات جديدة، ومن أعماقي تمنيت أن ينجح ذلك الشخص المجهول، في تحقيق رغبته ليغادرنا إلى غير رجعة.

ثم لفت انتباهي سؤاله الملهوف:

- هل هذا هو موقع وموعد ظهور الغرفة الجديد؟ الأوراق التي معي تم العبث بها أثناء غيابي، لقد تأكدت بنفسي من هذا، أنت دليلي الآن.

صمتَ قليلًا وكأنه يستمع لمحدثه ثم أجاب:

- الموقع الموجود هنا تمّ تحيده، إن المجموعة التي وصلت من المتسللين، تتحرك أسرع مما توقعت.

قالها ثم صمت مرة، أخرى ثم قال:

- حسنًا... سأبدأ على الفور، و...

وعند هذه النقطة أرهفت سمعي أكثر، رغبةً مني في سماع ما يريح قلبي، ويؤكّد لي أنه سيغادرنا قريبًا، ثم تنبهت إلى أنه صمت بغتةً، وصوت خطواته خُفه السريعة تقترب من الباب.

شعرت بالارتباك والتوتر قليلًا وقرّرت أن أعود إلى غرفتي، فلا داعي لمواجهةٍ قد تضر أكثر ممّا تفيد الآن، خاصة وأن هناك بوادر أمل في أن يساعده هؤلاء المجهولون في العثور على بغيته ويرحل دون مشاكل.

ولم أكد أنهي استدارتي حتى سمعته يزوم، وأصابعه تجذبني من ملابسي في عنف.

استدرت نحوه وعقلي عاجزٌ عن اتخاذ أي رد فعلٍ، لأجده ينظر نحوي بعينين مشتعلتين من الغضب، ويداه تقبضان

على ياقة منامتي، غير منتبهٍ لفارق السن والقوة بيننا، وهو يقول في جنونٍ مطبقٍ وبصوتٍ هادرٍ:

- هل تتجسس على أبيك أيها الحقير، هل هذا ما ربتك عليه تلك العاهرة، كان علي أن أتوقع هذا.. كان علي أن أتوقع هذا.

لعدة ثوانٍ لم أستطع الرد أو الحركة من الصدمة، فقد وقع الصدام بأسرع مما تخيلت، أو رغبت، بل رحت أرمقه، وأنا أتساءل في ذهول كيف استطاع قطع هذه المسافة من غرفته إلى موقعي بهذه السرعة؟.

وعندما رفع يده إلى أقصى ارتفاع لها، وهوى بها ليصفعني على وجهي، رفعت يداي غريزيًا لأحمي وجهي من الضربة المباغتة، لينهال ضربًا فوق رأسي بقوة لا يمكن أن يمتلكها من هو في مثل حالته أو سنه، ليشلّ تفكيري لثواني، ويضيف لغزًا جديدًا لألغازه.

وقبل أن أتخذ أي رد فعلٍ عنيف معه، انشقت الأرض عن أمي لتعترض طريقه لتنالها بعض الضربات والصفعات المدوية، وهي تحول بيننا.

استمرت حالة الذهول والارتباك وردود فعلي العشوائية حتى رأيت أمي تكاد تسقط أرضًا، وقد سال خيطٌ رفيع من الدماء من أنفها.

وهنا انتفضت وكأنني كنت في غيبوبةٍ واستفقت منها، وسحبتها من ملابسها بسرعة لتقف خلفي وتصديث له بعنفٍ.

وبكل قوتي دفعته ليرتطم بالحائط، وهو يحدّق في وجهي غير مصدقٍ ما فعلته، وأنني تجرأت عليه. في حين منحته أنا نظرةً كارهةً ممزوجةً بالمقت والغضب، وأنا أمنع أمي التي أفزعها ما وصلت إليه الأمور من التدخل، وأصرخ في صرامةٍ وحدةٍ ملوحًا بيدي قائلًا:

- لقد نفد صبري عليك أيها المخبول.. أقسم بكل غالٍ وعزيز لدي، أن يدك لو امتدّت عليها مرة أخرى لأقطعها لك.

شهقت أمي من الصدمة، وحاولت أن تجذبني من ملابسي لتخرجني من الغرفة، فلم أتزحزح من مكاني، ووقفت بكل غضب السنين الماضية أواجه أبي الذي انتفض في مكانه، ليصيح في شراسةٍ، وقد أعماه الغضب وهو يتقدم نحوي:

- أنت أيها الحقير تقطع يدي؟.

وعندما همّ بمهاجمتي كما فعل في المرة السابقة، ضربته بقبضتي في صدره ضربةً عنيفةً لو أصابت جدارًا لهشمته، ولكنها أجبرته فقط على التراجع، ليسقط على الفراش بشكلٍ مهينٍ دون أن يظهر على وجهه أي ملامح للألم، فانقضضت عليه وأنا أصرخ:

- بل سأقتلك لو جرؤت عليها مرة أخرى، أو مسست شعرة واحدة من رأسها، إنها سيدة هذا المنزل، ولها رجلٌ قويٌ ليحميها ويذود عنها، ولو لم تتوقف عن جنونك هذا، سأوسعك ضربًا وركلًا حتى تتكسر كل عظمة من عظامك، وبعدها سأودعك في مستشفى الأمراض العقلية ما تبقى لك

من عمر، لا تعتقد أن صبري عليك قلّة حيلةٍ، أو ضعف، أو أن هذه المسكينة لا ظهر لها، إنه التحذير الأخير لك، وبعدها لا تنتظر مني خيرًا قط، كما لم أره منك قط..

وبصعوبة أقامتني أمي من فوقه، وهي تقول في جزعٍ:

- ليتني متُّ قبل أن أرى هذا اليوم.. ليتني متُّ.

جذبتها من يدها في قوةٍ غير مؤلمة وأخرجتها من الغرفة إلى الصالة، وأنا أهدر بصوتٍ محذرٍ:

- إنها فرصة أخيرة لهذا المخبول، وبعدها سألقيه في الشارع، أو في غياهب مصحٍ عقليٍ لا يخرج منه إلا جثة هامدة..

وصمت للحظة ابتلعت فيها ريقي، ثم أكملت بصوتٍ غليظٍ:

- نحن لا ندين له بشيء.

جذبتني أمي هذه المرة من ذراعي، وهي تقول في لوعةٍ:

- لا يا حبيبي.. لا يا (حازم)، ليست هذه تربيتي لك، ليس هذا ما أنتظره منك!

قبضت على يدها، وأنا أنظر لها مشفقًا، وأقول بنفس الصوت الهادر:

- لا يا أمي لقد أحسنت تربيتي، وذَوت زهرة شبابك من أجل هذا؛ ولذلك صرت رجلًا قادرًا عن الدفاع عنك.

ثم استدرت لأنظر له عبر باب الغرفة، واضعًا عيني في

عينيه المنكسرة مكملًا:

- بل والقتل أيضًا.

انتفضت أمي مصدومة من سلوكي الشاذ الذي فاق كل الحدود، في حين لمعت عينا أبي بجنون وكأن قولي العنيف هذا قد دفع دماء الحماسة لتتدفق في عروقه، بشكلٍ أدهشني وضاعف من غضبي عليه.

ربت على ظهر أمي التي أجهشت في البكاء لأشدّ من أزرها، ثم استدرت بخطوات سريعة وعدت ووقفت أمام باب الغرفة المفتوح، وعيناي تنظران في عينيه بتحدٍ، وقلت وأنا أغلق الباب:

- هذا الباب ليس له مفتاح، ولكنه لن يفتح إلا بأذني، ولو جرؤ وارتفع صوته، أو فتحه دون إذن، أو أساء الحديث معك، فلن يمر الأمر دون عقاب..

شهقت أمي مجددًا، وصرخت وهي تقول في اضطراب:

- لا يا ولدي، لقد دخل الشيطان بينكما، وغدا سـ ..

وقبل أن أغلق الباب، أتى صوته مقاطعًا أمي، مهتزًا ومضطربًا، وإن كان أقل قسوة:

- من تظن نفسك؟

أدخلت رأسي عبر فتحة الباب الضيقة، وقلت بكل صرامة:

- قاتلك.

وهنا ارتجف جسده بعنفٍ أكبر، وارتخت ملامحه، وظهرت على وجهه ملامح صدمةٍ أشد، وكأنه يتمزق بين أحاسيس مختلفة، كجميع المضطربين عقليًا.

تجاهلته وأنا أتنفس بعمقٍ محاولًا السيطرة على أعصابي، وأغلقت الباب خلفي بعنفٍ، ودفعت أمي التي حاولت أن تدخل الغرفة لتواسيه لتعود إلى غرفتها، ولكنها تعلقت بملابسي، وأوقفتني رغمًا عني، وهي تقول في ضراعة:

- يا بني إنه أبوك..

لم يعجبني تخاذلها، ولا طريقتها اللينة الضعيفة التي جعلته يستهزئ بنا، فدفعتها برفقٍ لتدخل غرفتها وأغلقت الباب خلفها، وأنا أقول بنفس الصرامة:

- لقد انتهى الحديث في هذا الأمر، لهذا البيت رجلٌ واحدٌ، وحذاري من أن يعلو صوتٌ آخر.

قلتها واستدرت عائدًا من فوري إلى غرفتي، وجسدي ينتفض من الانفعال، وأنفاسي تتلاحق غير مصدق ما قلته أو ما قمت به أثناء انفعالي، ورحت ألوم نفسي على كل ما حدث، وعلى تهديدي لأبي بالقتل، وعلى دموع أمي.

وحتى الصباح جفاني النوم، وأحرقت علبة تبغٍ كاملةٍ، احترقت معها أعصابي، دون أن يهديني عقلي للخطوة التالية، أو تصرفي القادم لو تحداني أبي أو تمادى في أفعاله، فبيني وبينه أمي ولا أريد أن أزيد حسرتها أو أكسرها أكثر.

كما أنه ليس بالضعف الذي تظهره بنيته، ضربتي الأخيرة كانت قادرة على هشم أضلاعه بكل بساطة ولم تفعل، وكأنني وجهتها لحائط من صخر!

فمن أين أتت له هذه القوة والصلابة؟.

لغزٌ جديدٌ يضاف إلى ألغازه المستعصية، ويشجعني على سرعة العمل لإبعاده عن حياتنا.

وعندما حان موعد ذهابي إلى الورشة ارتديت ثيابي، وخرجت إلى الصالة متوجهًا صوب الباب، وأنا أنظر في ضيق إلى باب غرفة أبي الذي لم يفتح بعد، وكأنما أفلح تهديدي في ردعه.

لم يكن صوت أمي في المكان، ففتحت باب غرفتها لأطمئن عليها، وأتأكد من كونها بخير، فلم أعتد منها النوم إلى مثل هذا الوقت المتأخر، وخشيت أن تكون مرضت بسبب ما حدث، ولكنها لم تكن هناك، فأيقنت أنها برغم ما حدث، قد خرجت مبكرًا للتسوق وإحضار ما ينقص البيت من طلبات، فأشفقت عليها، وأغلقت باب غرفتها في هدوء.

وعندما وقع نظري على الرزنامة، أطلقت تنهيدة حارة، وصورة (ندى) تحتل كامل تفكيري؛ فاليوم عيد ميلادها، وهو اليوم الذي وعدتها بأن أتمّ فيه إجراءات الخطبة.

لقد حملت تلك العزيزة فوق طاقتها، من إهمال وانشغال وانفلات أعصاب، وعلي أن أعجل بالخطبة، التي أخّر اتمامها ما وضعنا فيه أبي من ضغط نفسي.

رمقت الباب المغلق، وأطلقت تنهيدة أخرى، فليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

وعندما هممت بالخروج، سمعت أبي يصرخ في الهاتف:

- إنه يجب أن يموت، يجب أن يموت، لقد أعددت كل شيء.. ساعة واحدة وسأكون عندك.

والآن تأكد لي أمرٌ مخيفٌ.

أن الرؤيا القديمة لم تكن تخص أي نسخة من نسخي الأخرى، في العوالم الموازية.

بل تخصني أنا شخصيًا..

وأسقط في يدي.

***

الغرفة

كنّا مثل حيوانين مفترسين يتربص كل منا بالآخر للإجهاز عليه.

عندما ترددت في ذهني الفكرة الأخيرة، ضعقت؛ وأدركت أن الأمور ستتخذ منحى أكثر تطرفًا وخطورة من الآن فصاعدًا؛ فالقتل أصبح حديثًا يتردد على الألسنة تحت سقف منزلي، وتدعمه رؤيا قديمة كنت أظنها مجرد هلاوس عقل.

وبعد يقيني بأن الجزء الأسوأ من قصتنا انتهى بتعنيفي لأبي، وأنني فرضت عليه إرادتي، وأرسيت قواعد للتعامل بيننا حتى تزول الغمة، إما بخضوعه التام أو بعودته من حيث أتى؛ جاءت هذه المكالمة القصيرة وكشفت عن جزءٍ خفي و شديد الخطورة من حقيقة أبي الغامضة.

فمن يتحدث عن القتل بمثل هذه البساطة والغل، لابد وأنها ليست مرّته الأولى، ولن يجد صعوبة في تكرارها، خاصة عندما يتملكه الجنون.

لقد تأخرنا كثيرًا في التعامل مع حالته المتدهورة؛ كان علينا من البداية إخضاعه للعلاج النفسي، فلا أحد يتعرض لهذا القدر من التعذيب والتنكيل ويبقى طبيعيًا أبدًا.

أمي نبّهتني للأمر، بل طلبته صراحة، وأرسلت لي (ندى) عدة أرقام وعناوين لأطباء نفسيين مشهورين، وأنا من تقاعست عنه، وعلينا أن ندفع الثمن الآن.

ما يثير حنقي حقًا، أنني رغم مرور كل هذا الوقت، وكل المشكلات المتفاقمة، لم أعلم بعد أين كان طوال السنوات الفائتة؟ وما الذي حدث له ليتحول من مجرد موظف خدوم، ورب أسرة حنون إلى هذا الشخص المضطرب؟ ومن الذي قام بتعذيبه بهذا الشكل؟ وكيف تعرض لكل هذه الأهوال، واستطاع الصمود؟ وكيف لجسده الهزيل هذا أن يتحمّل ضرباتي؟ وأي جنون أصابه ليفكر في قتل ابنه الوحيد؟

تساؤلات .. تساؤلات.. تساؤلات!!

و لا أحد غيره يملك الإجابة عليها.

كنت في موقف شديد التعقيد، وعليّ أن أتصرف بسرعةٍ وبحكمةٍ، فمواجهته في مثل هذه الحالة المترديّة التي وصل إليها، ستنتهي بأحدنا قتيلًا والآخر سجينًا أو في أهون الأحوال نزيلًا في مستشفى الأمراض العقلية، ووقتها سينجح في ما لم يفلح فيه غيابه، ويهدم هذه الأسرة..

لابد أن يغادر هذا المنزل في أسرع وقت.. وإلى الأبد، فلم أعد آمن جانبه على نفسي أو على أمي المسكينة التي تحولت منذ ظهوره المشؤوم لمشكلة كبرى هي الأخرى مع محاولاتها المستميتة لإثبات كونها زوجةً حقيقيةً لرجل لا يستحق، والتي لا يمكن إقناعها بأن زوجها الدمث الخلوق، أصابه الجنون وأصبح مصدر تهديد حقيقي، ويرتب لجريمة قتل.

لقد أربكت هذه المكالمة كل أفكاري، وجعلتني في حيرةٍ لا

يمكن تخيلها، ولا أعرف إن كنت أغادر إلى عملي الذي تأخرت عنه بالفعل، أم أنتظر لأعلم أين سينتهي هذا الجنون؟.

كل الخيارات مُرة، وجميع التداعيات مرعبة، خاصة وأني هذه الأيام المسؤول الوحيد عن إدارة شؤون الورشة وكل ما يخصها؛ فالأسطى (صبحي) خارج البلاد يؤدي مناسك العمرة، ولو قام بالاتصال للاطمئنان على حسن سير العمل، ولم يجدني على رأس العمل كما يتوقع مني، سيظن أني نكصت بوعدي له، وأهملت عملي، وخنت أمانته.

لقد أفسد ذلك المريض حياتي.

فأي ذنبٍ اقترفته لأكابد كل هذا، بعد كل ما كابدته؟

إنه سيغادر خلال ساعة وعلي أن أقرر، هل أتبعه أم أترفَّع عن كل هذا الجنون، وأتركه يذهب لعلّه ذهابٌ بلا عودةٌ هذه المرة؟.

الفكرة تستهويني جدًا، لكن هل تتحقق بالفعل، أنا لست حسن الحظ لهذه الدرجة..

حسنًا.. لا أعتقد أن غياب يوم عن الورشة سيؤدي إلى خرابها، ولكنه قد يحسم أشياء كثيرة.. ثم ما فائدة العمل أو الوعد، لو تطوّر الأمر بيننا، وغلبني شيطاني أو غلبه شيطانه، فوقتها لن يدفع إلا أمي و(ندى) الثمن.

لذا قررت أن أدّعي أمامه ذهابي إلى العمل، وأنتظر خروجه على المقهى المقابل للمنزل، لأرى لأين سيقوده هذا الجنون،

وفكرة واحدة تتعاظم داخل عقلي، وملخصها أنه لو تعدّى حدوده هذه المرة لن أرحمه.

أنا لست ولدًا عاقًا، وأحاول الفرار من مسؤولياتي، أو أرغب في التهرب من قدري، ولكن الفترة التي غاب فيها كانت مريرة، ولن أسمح له أن يفسد القادم بجنونه وأفعاله غير المنطقية، بعد أن بدأت الدنيا تبتسم لي، وأحصد ثمار تعبي، وأقترب من بدء حياتي مع (ندى).

إنه في كل الأحوال أبي، وكما تحمّلت مسؤولية أمي، كنت سأحمله على رأسي لو شعرت فقط أنه نادمٌ، أو يرغب في تعويضنا وعاجز عن الأمر، لكنه حتى هذه اللحظة مجرد شخصٍ مضطربٍ غريب الأطوار، ظهر في حياتنا ليقلبها رأسًا على عقب، ويحيلها إلى جحيم، بتطاوله على أمي، وسلوكه المضطرب معي، وأحاديثه الغامضة المشبعة بالجنون.

وأخيرًا استباحته للقتل.

ثمّ ما سرّ تلك الغرفة اللعينة التي يبحث عنها بهذا الإصرار؟.

ما الذي تركه فيها أو سيحصل عليه منها لو عثر عليها؟.

ومتى وأين أتقن كل هذه اللغات؟.

هل هي هبة في العائلة أم ماذا؟.

ما الذي ورط أبي فيه نفسه بهذا الشكل؟.

وكيف بات يكرهني لدرجة أن يرغب في قتلي؟!

الأمر أشبه بحلم ثقيل.

والجنون وحده هو التفسير المنطقي لكل هذه التساؤلات المزعجة، ولكنه تفسير غير مريح، ولابد من مواجهته مبكرًا.

لذا أصدرت بعض الضجة لألفت انتباهه، وجعلت صوت خطواتي مسموعًا وأنا أتحرك في الصالة، ثم تناولت إحدى رواياتي المفضلة، لأن المراقبة قد تكون مملّة لو دخل إلى مكان وقضى فيه عدة ساعات مثلًا، وأغلقت الباب خلفي بعنف؛ ليعلم أني خرجت، ويتحرك في المنزل على سجيته.

كانت خطتي أن أجلس على المقهى المقابل للمنزل في مكان منزوٍ، غير ظاهر للعابرين، وأرقب بوابة المنزل، وأتتبعه عند خروجه إلى حيث سيقابل الرجل المجهول الذي كان على الهاتف ليخططا لجريمتهما، أو ليمنحه السلاح الذي سينفذها به.

خطةٌ بسيطةٌ ومحكمةٌ، وقبل أن أشرع في تنفيذها، لمحته يتابعني من خلف خصاص النافذة، فأكملت طريقي دون أن أشعره بأني لمحته، واتخذت طريقي المعتاد صوب الورشة، وضربات قلبي تتعالى، ولم تهدأ إلا بعد أن انحرفت مع المنعطف التالي الذي أخفاني عن ناظريه.

ومن إحدى النقاط العمياء التي قدرتها بخبرتي كسائقٍ محترفٍ رحت أتلصص عليه، والضيق يتصاعد في أعماقي دون رادعٍ، فهو لم يبارح موقعه لخمس دقائق كاملة.

كنا مثل حيوانين مفترسين يتربص كل منا بالآخر للإجهاز

عليه.

ثمة شعور غريب يخبرني أنّ كل هذا ليس حقيقيًا وأنها أضغاث أحلام، ستبعثرها لا محالة نسائم الصباح.

وللأسف كان شعورًا خادعًا، وهو ما أكده المارة الذين راحوا يرمونني بنظرات الدهشة والاستغراب مع نظراتي المتلصصة، ووقفتي المريبة.

ولولا بنيتي الضخمة، وما ارتسم على وجهي من كدرٍ، لربما تحولت تساؤلاتهم لأسئلة مزعجة تطلبت بعض العنف والوقاحة لإيقافها، فقد أصبحت قصير الفتيل، وأي استفزاز سيجعلني أنفجر في وجه صاحبه.

وبكل مملٍ وضيقٍ رحت أرمق النافذة، وعندما تأكدت من أنه غادر موقعه خلفها، أنهيت وقفتي المريبة، وعدت بخطوات سريعة إلى المقهى محاذرًا أن يرصدني لو عاد إلى النافذة بشكل مفاجئ، وجلست في ركن منزوٍ يصعب عليه رصده من أعلى أو عند خروجه، ولم أرفع عيني عن بوابة المنزل.

أحضر لي صبي المقهى قهوتي السادة، وحجر من المعسل كما اعتاد أن يفعل في أيام إجازتي، فارتشفت منها عدة رشفات، وشرعت في التدخين وإطلاق الأنفاس.

ولم تكد يدي تمتد للكتاب الذي أحضرته معي، حتى لمحته يعبر من أمام المقهى متوجهًا صوب الشارع الرئيسي، فانتفضت من مكاني وتركت كل شيء في يدي، وهممت

بالنهوض لتتبعه، وأنا أضرب أخماسًا في أسداس لأنني فوت لحظة خروجه، عندما لمحته يخرج من بوابة المنزل مضطربًا، وكأنه يرى المارة والزحام للمرة الأولى، ويرفع كفيه ليحجب ضوء الشمس الذي يزعجه، ويسلك نفس الاتجاه الذي رأيته يسلكه منذ لحظات.

جمدتني الصدمة في مكاني لبضع ثوان، قبل أن أنتبه إلى أنه يبتعد عن المكان، فتناولت الكتاب، وأنا أشير لصبي المقهى أن يقيد ما أحضره على الحساب، وأندفع خلفه محافظًا على المسافة التي بيننا، محاولًا فهم ما حدث منذ قليل.

لمحته يتحدث في الهاتف، ورأسه يهتز دون أن أسمع فحوى حديثه، وهو يتفادى السيارات في مرونةٍ ومهارةٍ، ويقطع الشارع الرئيسي بخطوات مهرولة، أجبرتني على زيادة سرعة سيري إلى أقل قليلًا من الهرولة كي لا أفقده..

والعجيب أنه لم يظهر عليه، ولو مرة واحدة ملامح الحيرة أو التردد أو الجهل بالمكان، وكأنه لم يغادره لربع قرن أو أقل قليلًا.

الشوارع مزدحمةٌ بشكل معتاد في هذه الساعة الصباحية، والشمس تمارس هوايتها المحببة في محاولة جعلي أصاب بالعمى، فتارة يبتلعه الزحام، وتارة تحجبه عني الشمس، إلا أن هيئته المميزة، ساعدتني على اقتناصه بسهولة في كل مرةٍ يغيب فيها عن ناظري دون جهد.

وبعيني صقرٍ لا يرغب في أن تغيب عن عينيه فريسته رحث أتابعه في اهتمام، وهو ينحرف من شارع إلى آخر، وكأن خريطة المكان محفوظةٌ في عقله، أو أن هناك من يوجهه عن بعد.

قادنا لأطراف المدينة، دون أن يلتفت خلفه مرة واحدة، فتخلّيت عن حذري قليلًا، وزدت من سرعتي لتقل المسافة الفاصلة بيننا.

رأيته يدخل سوق الخردة فأصابتني الدهشة والحيرة!.

هل سيرتّب لجريمة قتل في هذا المكان المزدحم؟.

اختفى عن عيني بغتةً، فهرولت خلفه كي لا أفقد أثره مجازفًا بأن يراني، لو فكر مرة أن ينظر خلفه.

المكان مزدحمٌ وعشوائيٌ.

عشرات الحوانيت القديمة مختلفة الأحجام، تلك الأسقف المصنوعة من الصاج المعرج تتناثر دون نظام، بعضها مفتوح وبعضها مغلق؛ وبرغم هذا كان يسير بكل ثقةٍ دون أن يتوقف لحظة واحدة، وكأنه يعلم هدفه جيدًا!

وهذا أثار العديد من المخاوف بأعماقي؛ فالمخبول إذا تعامل بثقة، فهو يرتب لا محالة لكارثةٍ.

كما إنني لا أعرف إلى أين سيذهب ولا من سيقابل، ولا أي مصيبة ينوي ارتكابها، ولا انعكاسها علينا في هذا السوق الشعبي الذي يعرفني فيه الكثير من تجار الخردة ومعاونيهم

بحكم مهنتي، وترددي الدائم عليه.

وفي النهاية، وأمام باب أحد المخازن المغلقة بسلسلةٍ معدنيةٍ وقفلٍ كبيرٍ، توقف أبي متخشبًا وكأنه يفكر في شيء فاته، أو يعيد تقيم موقفه ككل، فتواريت خلف جدار أحد الحوانيت المغلقة.

وفجأة اعتدل في مكانه، وجذب القفل لأسفل بقوة فانفتح بصوتٍ مكتومٍ، فنزعه هو والسلسلة عن البوابة الخارجية، ودفعها لتنفتح بصريرٍ مزعجٍ، ودخل.

لم أعرف إن كان القفل مفتوحًا منذ البداية، أم أنه هشمه بقبضته العارية!

ترددت لبرهةٍ في اقتحام المخزن خلفه؛ فهنا لا مجال إلا لقوانين السوق، فصاحب المخزن ومعاونيه سيفتكون بالمقتحمين قبل أن يطرحوا أي أسئلة أو يستفسروا عن أسباب.. كما أنني رجلٌ شهيرٌ في مجالي عملي، ولي سمعتي، ولا يجب التورط في شبهة سرقةٍ أو اقتحامٍ، أو جريمة قتلٍ في أسوأ الأحوال.

رنّ هاتفي في جيبي، فأخرجته وأمسكته بسرعة، وأنا أنظر إلى الشاشة.. إنها (ندى).

لقد شغلني كل هذا الجنون عنها، وعن تهنئتها بعيد ميلادها، وشراء هدية مناسبة لها، والأسوأ أني لم أتقدّم لخطبتها رسميًا بعد، وكل هذا يحتاج إلى اعتذار وتوضيح، ولكنه لم يكن الوقت المناسب للرد أبدًا.

أعدت الهاتف الذي لم أنس أن أجعله على الوضع الصامت إلى جيبي، وعزمت أمري، وتبعته إلى داخل المخزن، فلا بد أن ينتهي هذا الجنون.

وعندما عبرت البوابة المعدنية، تكشّف لي ما بداخل المخزن من إطارات قديمة متكومة في عشوائية، وقطع غيار السيارات المتهالكة والمستعملة، والعديد من المخلفات التي تراكمت على مرّ السنوات.

لم أستطع أن أحدّد إن كان مخزنًا مهجورًا أم لا.

ونسيت كل شيء عن المخزن، عندما رأيته يقف أمام بابٍ معدني أسود حديثٍ، يتنافر بشكلٍ فجٍ مع محتويات المكان التي عفا عليها الزمن، وكأنه يعالج رتاجه في تركيز، قبل أن يدفعه، ويدخل..

وبشكل مباغت أعمى عيني وميضٌ قوي، أضاء المكان وتلاشى مع انغلاق الباب، وذكرني بذلك الوميض الذي ذكرته أمي في تحقيقات النيابة، ثم عادت وأنكرته، لتسري في جسدي قشعريرة باردة.

وبضيقٍ مكتومٍ رحت أفرك عيني، لأستعيد وضوح الرؤية، وأنا أفكر، هل أتبعه إلى الداخل؟ أم أنتظر خروجه؟.

الخطة كانت مراقبته لا الصدام أو التورط معه، وبالتالي عليّ الصبر، لأن ما سيفعله بالداخل هو ما سيحدد خطوتي القادمة، وحتى هذه اللحظة أنا عاجز بشكلٍ كلي عن معرفته

أو استنتاجه.

المخزن نفسه مكانٌ مريبٌ ليتم اقتحامه، أو الترتيب لجريمة قتل بداخله، فما دوره في كل هذا الجنون، ولماذا يتنافر هذا الباب بالذات مع كل ما حوله؟ هل هو بداية لحملة تجديد للمخزن، أم هو نتاج صفقةٍ رابحةٍ لصاحب المخزن قرر أن يزين بها مكتبه؟.

وضعُ المكان ككل لا يوحي بمثل هذه التضحية.

وأكثر ما أخشاه أن يكون قد قادني إلى فخٍ مرتبٍ، وأنه لا يتحرك بعشوائية كما توحي أفعاله.

قوانين الاحتمالات تقول أنني لو أقدمت على الدخول خلفه قد أتورّط في كارثةٍ جديدةٍ، كاقتحام وتعدٍ على أملاك الغير، أو ربما تسوء الأمور أكثر ويقع صدام يائس يترك خلفه جثة أو جثتين.

ونفس القوانين اللعينة تخبرني أن دخولي قد يمنع جريمة لا أعرف عنها شيئًا، ولكنها قد تكون حتمية الحدوث.

لا خيار إذًا.. وأنا لم أقطع كل هذه المسافة لأجبن أو أتردد الآن، برغم أن الواقع من حولي يشبه كهف أفلاطون، مليء بالظلال والمؤشرات الخادعة.

وبهدوء اقتربت من الباب المغلق، ثم تسمّرت في مكاني، وأنا أمد رقبتي لأنظر خلفه:

- يا إلهي!!.

- هتفت بها وأنا غير مصدق ما أراه، فلم يكن هناك غير الجدار الذي يفصله عن الباب مسافة لا تزيد عن عشرين سنتيمتر، لا غرفة أو فتحة في الجدار؟

لقد خدعني أبي وضللني وفرّ.

فكيف فعلها؟.

ولبرهة تجمدت أفكاري كما تجمدت مفاصلي، وبدأ الشك يخامرني.. هل رأيت أبي يدخل من الباب فعلًا؟ أم أن الأمر كله خدعة لإيهامي بأنه عبر الباب، كما حدث عند المقهى، وكان الوميض لتشتيتي؟.

حسنًا.. لو أن هذا ما حدث، فأين ذهب؟.

لا أعتقد أنه غافلني وخرج بهذه السرعة، ثم متى رتَّب خدعته هذه وهو لم يخرج من البيت طول الأسابيع المنصرمة، وأين الأداة التي استخدمها في إطلاق الوميض؟.

عدت ببصري إلى الباب الأسود بحيرةٍ مضاعفةٍ، وتفحصته بشكل سريع، ثم شهقت؛ فعلى سطح الباب الخارجي كان هناك نقشٌ دقيقٌ لمفتاح الحياة المجنح الذي رأيته موشومًا بالحرق على صدر أبي، فما معنى هذا؟.

وعلى الأرض لمحت أثر احتراقٍ طفيف لم أخمن سببه، إلا بعد أن ربطت الأحداث، بتجربةٍ علميةٍ قام بها مدرس العلوم في معمل المدرسة عندما كنت طالبًا، حيث أحرق فيها المعلم بعض شرائط الماغنسيوم، ونتج عنها وميضٌ قويٌ.

لقد كشفت جزءًا هامًا من الخدعة، والأهم منها أن أعرف أين ذهب؟.

عدت لأرمق الباب الذي زاده النقش المجنح أناقة، لأكتشف أنه بدون مقبض أو رتاج.

فلماذا وقف أمامه كأنه يحاول فتحه؟.

ألغاز فوق ألغاز.

وبكل ضيقٍ دفعت الباب في غضب لينفتح بسهولة، ثم أطلقت شهقةً مكتومةً، فقد كان في برودة الثلج.

وفي اللحظة التالية فاجأني الوميض الساطع الذي انبثق من خلف الباب.. رفعت يدي لأحمي بها عيني، ففوجئت بشيءٍ مجهولٍ يسحبني بقوة إلى الداخل، وبقدميّ تعبران الباب بشكل لاإرادي وسريع برغم مقاومتي له، لأسمع الباب يُغلق خلفي بصوتٍ مكتومٍ، ويسود صمت مطبقٌ.

وبعيون لا ترى، وقفت مكاني ألهث، وقلبي يتواثب في صدري، دون أن أفهم ما حدث.

وقبل أن أفتح عيناي انتبهت إلى أن الكتاب الذي كنت أحمله اختفى من بين أصابعي، وميدالية مفاتيحي وعلبة سجائري من جيب سروالي، وهاتفي من جيبي الآخر، ومحفظتي من جيبي الخلفي، وكأنما تم نشلي على يد أبرع نشال في العالم وفي لمح البصرا.

ولم يتبق لي من متعلقاتي الشخصية إلا قداحتي، التي

قبضت عليها في قوة وكأنني أخشى أن تتلاشى هي الأخرى، وأنا أصرخ بدهشةٍ ممزوجةٍ بالغضب:

- سحقًا.. ما الذي يحدث في هذا المكان اللعين، ما ألعاب الحواة هذه؟.

قلتها ثم فتحت عيناي على اتساعهما، لأطلق شهقةً أعنف من الأولى في شدتها.

فلو أني رأيت أبي جالسًا أمامي على أحد المقاعد الوثيرة، واضعًا ساقًا فوق ساقٍ كرجال العصابات، ويلوح نحوي بمسدسٍ كبيرٍ جاهز للإطلاق، وهو يبتسم ابتسامةً شريرةً، ويخبرني أن رحلتي انتهت ويطلق عدة رصاصات على رأسي أو صدري، ويضحك بعدها ضحكةً ساخرةً شريرةً، منهيًا هذه القصة السخيفة، لما شهقت مثل هذه الشهقة، ولا تجمدت في مكاني بمثل هذه الطريقة، ولربما مت مرتاح الضمير لأنني لم أكن أحمق في النهاية.

ولكن ما حدث كان مختلفًا تمامًا؛ فما أن زال تأثير الوميض المزعج بشكلٍ كاملٍ، وصَفت الرؤية حتى وجدت نفسي أقف في منتصف غرفة خالية هائلة الحجم، بلا أي نوافذ أو مخارج أو أبواب، ويطغى عليها اللون الأبيض.

الأرضية بيضاء.. الجدران بيضاء.. السقف أبيض..

قنبلة من اللون الأبيض تؤذي البصر، وتعمق الإحساس بالضياع.

وفي منتصفها وقف أبي يرمقني في حزنٍ، وكأنه كان ينتظرني، وهو يقول في أسى:

- الغرفة لن تترك لك إلا غرضًا واحدًا للتواصل.. هذا هو القانون.

لبضع لحظات شعرت بالتوتر والدهشة، فلم تكن تلك الغرفة سوى الزنزانة البيضاء التي رأيتها في تلك الرؤى الكابوسية القديمة، فما الخدعة التي مارسها عليّ أبي لأعيش هذه التفاصيل العجيبة، وبحيرةٍ ممزوجةٍ بالغضب سألته:

- عن أي قوانين لعينة تتحدث.. ما الذي تفعله بي، وما هذه الزنزانة البيضاء، هل تخططون لإصابتي بالعمى؟.

منحني نظرةً معتذرةً وهو يقول في اضطراب:

- سامحني يا بني، أنا لم أرغب قط أن تكون هذه هي النهاية أبدًا.

تحفَّزت في موقعي، وبعين قلقةٍ رحت أبحث عن أي انبعاج في ملابسه يوحي بوجود ذلك السلاح الخفي الذي سيستخدمه في الإجهاز علي، بعد أن أدركت أنني وقعت في الفخ الذي نصبه لي كالغرّ الساذج.

وبكل غضبٍ وحنقِ الدنيا سألته متناسيًا رابطة الدم التي تربط بيننا:

- عن أي نهاية تتحدث أيها المأفون، هل قررت أخيرًا قتل ابنك الوحيد، وترك جثته لتتعفن في هذا القبر الناصع

البياض؟.

هزّ يديه أمام وجهه، وكأنه يستنكر أفكاري، قبل أن تتبدل ملامحه وتترقرق عيناه بالدموع، وهو يقول في أسى:

- نهاية كل شيء يا ولدي.. نهاية كل شيء.

نظرت حولي في حيرةٍ، وصمت الغرفة الثقيل يزيد من توتري، فلم أر طوال حياتي مكانًا معزولًا عمّا حوله بهذا الشكل الخانق، وهتفت:

- توقف عن أحاديث المجاذيب هذه، وأخبرني لماذا جئت إلى هنا، ومع من كنت تتحدث عبر الهاتف؟.

زاغ بصره للحظات، قبل أن يجيب قائلًا:

- بل جئنا يا ولدي، جئنا.. فلم يعد الأمر يخصني وحدي الآن.

هتفتُ في غضبٍ أنساني تمامًا أن من أتحدث معه هو أبي:

- اسمع أيها المأفون لا شيء يربطني بك في هذا العالم غير ذلك الاسم اللعين الذي يتبع اسمي في البطاقة الشخصية، ولو استطعت محوه لفعلت، هل ستخبرني الآن سر هذا الجنون الدائر، ولماذا اقتحمت هذا المخزن القديم، ولماذا ترغب في قتلي؟ أو أقسم لك أن أُقيدك وأتركك حبيس هذه الغرفة، حتى يأتي أصحاب المخزن ويفتكوا بك، ويعيدوا لك عقلك.

تبدّلت ملامحه، وكأنما تمزقه آلاف المشاعر وهو يقول في

قنوط:

- ألم تفهم بعد يا بني، نحن لم نعد في المخزن؟.

قلت في عنادٍ:

- كُف عن جنونك هذا، لقد أثرت غضبي بما يكفي، ولولا أمي لكنت الآن مُهشم العظام تترجاني أن أصفح عنك.

زاغ بصره أكثر قبل أن يشرد ويقول في أسى مضاعف:

- صدقني نحن لم نعد في المخزن، بل لم نعد في أي مكان تعرفه، انظر حولك، نحن في الغرفة.. إنه قدرك الآن.

ولا أعرف كيف سمعتها:

- إنه قبرك الآن.

***

أين ذهبت الجثة؟.

من قام بهذا ليس من البشر يا ولدي، هناك عالم آخر كامل لا تدري عنه شيئًا، وأنا تعبت من الخوض فيه.

جززت على أسناني من الغضب، وصرخت:

- حسنًا.. نحن في الغرفة.. نحن في تلك الملعونة، أنا لا أعرف كيف نفّذت تلك الخدعة القذرة، ولكني لم أدفع الباب لأدخل إلى كهفٍ أو مقبرةٍ.

هزّ رأسه، وقال بنفس الشرود:

- لو أننا في كهف أو مقبرة، لكانت رحمة من الخالق، ليس هناك خدعة تحاك ضدك بل هي محاولة إصلاح.. ما كنت أريده منك قد حدث، وأصبحت داخل الغرفة.

قلت في كراهيةٍ مضاعفةٍ، لم أجهد نفسي في إخفائها:

- ها أنت ذا تعترف أن كل ما فات كان مخططًا له، وأنك لست المخبول الذي تدّعيه، فلماذا إذن كل هذا العبث؟ ما الذي ترجوه من ورائه؟ نحن لم نقصر معك في أي شيء سواء أنا أو أمي، فما الذي ترغب فيه أكثر؟ أنا أدرك أنك قاسيت الكثير وأشفق عليك منه، غد لرشدك، وسنكون في ظهرك حتى تتلقى العلاج النفسي المناسب وتتخلص من أوهامك هذه.

أدار رأسه في أنحاء الغرفة الكئيبة الصامتة، وكأنه يرغب في التأكد من خلوها من غيرنا من الأشخاص، كما يفعل

المرضى بجنون الارتياب، قبل أن يعاوده الشرود ويقول في حزنٍ:

- لقد هرمت يا ولدي، واستنفدت كل محاولاتي لتغيير القدر، فلم أعد ذلك الشاب الذي غادركم، وأنت لا تعلم شيئًا عما قاسيته، ولا المعارك التي خضتها، ولا كيف قست عليّ روحي كل هذه السنوات، إنه ليس خطأك، ولا جريرتك لتحمل هذا العبء، لكنه واجبك، وليس هناك بديل صدقني، إنها رابطة الدم و أ...

قاطعته قائلًا في نفاد صبرٍ:

- أنا لا أصدق غير أنك تهذي، وبحاجة لعلاجٍ نفسي سريع.

أكمل وكأنه لم ينصت لي:

- أنا أعترف بالفعل أني تحايلت لإحضارك إلى هنا، بل ووضعتك تحت ضغط نفسي غير محتمل، أنت وتلك المسكينة أمك، فأنا لم أتوقع أن يكون طفلي الصغير في هذه الحياة بمثل هذه الشخصية القاسية، ولا هذا البأس والبطش، ولم أرغب في الدخول معك في مواجهةٍ مباشرةٍ أو محاولة إجبارك على القدوم إلى هنا، لأن الصدام بين قوتين غاشمتين ستكون نتائجه كارثية على جميع الأطراف، وأنت اختبرت بنفسك مقدار بأسي عندما لكمتني في صدري، و..

كنت قد تعبت من مجرد الإنصات إليه، فقاطعته قائلًا:

- كفى تلاعبًا بعقلي وبأعصابي.. أنت لا تدري كم قاسيت

وخسرت من بعد خروجك من حياتنا، ولست مستعدًا للمزيد بسبب أوهامك وهذيانك هذا، إنني لم أحيا حياة طبيعية.. إنني...

وهذه المرة قاطعني قائلًا بمرارة:

- وأنت لا تعلم أي أهوال خضتها بعد أن تم احتجازي في هذه الغرفة الملعونة، لقد استغرقني الأمر ربع قرن من عمري في محاولة إعادة الأمور إلى نصابها، ولابد من شخص آخر من دمي يكمل المسيرة.

وجدتني حينذاك أخرج عن شعوري، وأصرخ:

- أنت مخبول بالفعل، وأنا أحمق لأني تبعتك إلى هنا، ولن يفتّ في عضدي ألعاب الحواة التي تمارسها ضدي.

جحظت عيناه لتؤكدا أفكاري، وهو يقول في ضراعة:

- الأمر يبدو جنونيًا بالفعل، وأعلم أنه سيستغرق منك وقتًا قبل أن تتقبله وتتفاعل معه، ولكنه قدرنا.. إن وقتنا محدود معًا.. عليك أن تنصت لي ودع عنك الأحكام المسبقة، وستفهم كل شيء.

صرخت في جنونٍ:

- كُف عن هذيانك هذا.. ودعنا نغادر هذه الزنزانة اللعينة، فإضاءتها ولونها المستفزان يثيران جنوني، وأقسم لك أني لن أتوقف عن السعي حتى نصل لذلك المجرم الذي عذّبك، وأوصلك إلى هذه الحالة، ونقتص منه مهما كلفني الأمر.

ارتجفت شفتاه وهو يقول في حزنٍ مكينٍ:

- من قام بهذا ليس من البشر يا ولدي، هناك عالم آخر كامل لا تدري عنه شيء، وأنا تعبت من الخوض فيه.. أنا لا أحاول إنقاذ نفسي وتوريطك، أنا أحاول إنقاذ العالم بأكمله قبل أن أموت.

جززت على أسناني في غضبٍ وقلت في غيظٍ:

- ليتك تفعلها وتريحنا..

كان من الواضح أن وعيه في عالم آخر، لأنه تجاهل عبارتي وأكمل قائلًا:

- إننا جميعًا ندفع ثمن عناد جدّك، وسوء تقديره لما كُلف به، لو أنه قام بواجبه ونقل العهد والمعرفة لما اضطررت للاستعانة بعلوم أجدادنا المحرمة، ولا وقفنا أمام بعضنا في هذا الموقف المزري.

ضربت قبضتي في الحائط الأبيض، وقلت في مقتٍ:

- ألم يكفيك ما تفعله في ولدك، لتخوض في سيرة أبيك الراحل، ألا تمتلك أي ذرة من النخوة أو الرجولة أو العرفان بالجميل؟.

تجاهل حديثي مرة أخرى وأكمل:

- لقد حاولت التواصل معك طوال سنوات، لأشرح لك طبيعة مهمتك، والعبء الكبير الملقى منذ أجيال على عاتق سلالتنا، والخطر الذي نحن بصدد مواجهته، لكن الخاتم لم

يتفاعل معي كما يجب لأنه كان يخص جدك، فظهر لك طيفي عبر الأثير دون أن يتمكن من إيصال رسالتي إليك؛ فدخولي الغرفة في المقام الأول لم يكن ضمن ظروف طبيعية، وتم قبل أوانه، فلم أملك وسيلة أرسل لك بها ساعتي، التي تمثل المعادل الشخصي للخاتم، التي كانت ستتيح لنا اتصالًا واضحًا ومستقرًا.. إن وجودي في هذا المكان سلسلة من الفشل التام للأسف، وقد حان دورك لتنظف هذه الفوضى وتكمل المسيرة، وتنجح فيما فشلنا فيه جميعًا، أو تغلق هذه الغرفة إلى الأبد، فليس هناك على الأرض من هو مؤهل لمواجهة الشر القادم.

كان الغضب يعميني، فلم أناقشه في أي من أحاديثه الجنونية هذه، على الرغم من أن حديثه عن ذلك الطيف أثار توتري، وأعاد لذهني كل ذكريات المراهقة المرعبة، بل تقدمت منه وقبضت على ياقة قميصه وصرخت بثورة وكراهية، وعضلات ذراعي تكاد أن تنفجر من الغضب:

- ألن تتوقف عن جنونك هذا، وتتحدث كالأشخاص الطبيعيين، صدقني لو لم تكف عن أوهامك هذه، وتخبرني عن السبيل لمغادرة هذه الزنزانة اللعينة، فإنني لن أرحمك، لقد انتهيت من كل هذا العبث.

قبض علي يداي بعصبية، وأبعدهما عن عنقه بقوةٍ مذهلةٍ، جعلتني أرمقه في ذهول، وهو يقول في قنوط:

- لا توجد رحمةٌ أو شفقةٌ في هذ العالم، وقد حان الوقت

لتقوم بالدور المنوط بك، وتتعامل مع هذا العالم بقواعده.

كانت روحي قد بلغت الحلقوم، ولم أعد قادرًا على مجاراته، وكلها لحظات وأنسى تمامًا أنه أبي وأهشم أسنانه؛ لذا فإنني رحت أصرخ بنفس الغضب، وقد نفرت عروق وجهي وتصلبت عضلاتي:

- ألم تَمل من ألعابك السخيفة هذه، وتكف عن ترديد كلامك الأحمق هذا، لا أعرف ما الذي تحاول أن تبلغني إياه، حسنًا.. لنفترض أنك متورط في شيء محرمٍ أو غير قانوني، يستدعي منك التضحية بشخص آخر، ولنفترض أن جنونك هذا حقيقي، فلماذا لم تضحِ بشخص لآخر غير ابنك، أي أب أنت؟!

غرغرت عيناه بالدموع وهو يجيب في مرارة:

- إنها ليست تضحية بل هي مهمة نبيلة، وقد أخبرتك من قبل، لا بد لهذا الشخص أن يكون من دمي، ولا ابن آخر لي، الأمر يتعلق بالعلم، على الرغم من أن حديثي يشبه حديث الدجالين، إنها مهمةٌ ثقيلةٌ يا ولدي.. مهمةٌ حملنا عبئها عبر الأجيال.

أصابتني عبارته بغضبٍ مضاعف، فلم أكن أتخيل مهما كانت معاناة الأب، أي أبٍ، أن يهجر ولده، فما بالكم بمن يضحي به!

لذا فإنني رمقته باستنكارٍ، وأنا أجز على أسناني حتى كادت تتهشم، ثم قلت في حدةٍ:

- أليس في قلبك ذرة من الرحمة، ألا تستحي أن تردد هذا الكلام المقيت على مسامعي، أي أب هذا الذي لا يبالي بقتل ابنه لـ....

قلتها ثم شل لساني، قبل أن أهتف في استنكارٍ مضاعف:

- أي عبث هذا .. كيف أجاريك في هذا الجنون؟.

أشاح بيده مدافعًا وهو يقول في ذعر:

- لا لا.. لا تتهمني هذا الاتهام الظالم.. أنا لم أخطط لحظة لقتلك؛ بل كل ما سعيت له أن أمنحك أفضل حياة ممكنة، فأنت ولدي، وآخر أفراد سلالتنا العريقة التي تمتد جذورها لأعرق أسر قدماء المصريين، وأنت وحدك القادر على استعادة الغرفة أو إغلاقها إلى الأبد، وعلى تعقب المتسللين وإنهاء خطرهم، ودخول المقبرة المحرمة وتحقيق ما فشلت فيه، وما فرّ منه جدك، أنت هنا في مكانك الذي قدّر لك..

وصمت ليبتلع ريقه، ثم استطرد في انفعالٍ:

- كل المؤشرات تدل على أنك مميزٌ، وأنك قادرٌ على إعادة التوازن وإصلاح الخلل، فقط عليك أن تؤمن بهذا.. الغرفة لم تكن ملعونة على الدوام، بل كانت خط دفاعنا الأول، ولكنها الآن بوابة لشرٍ مستطيرٍ موغلٍ في القدم، لا يمكن أن نسمح له بالعبور، ووجودك بداخلها قد يغير كل شيء.

رحت أتفحص جدران الغرفة البيضاء المصمتة التي أجهدت بصري، وضاعفت من توتري وعصبيتي، والتي لن يكفي

الأكسجين فيها لمدة طويلة، وكلامه يطنُّ في رأسي الذي أصبح كقفير النحل، لأنفجر صارخًا:

- اللعنة عليك وعلى الغرفة، وعلى السلالة كلها.. أظهِر الباب، ودعني أغادر هذا القبر اللعين، ولا تجعلني أرى وجهك مرة أخرى، لأنني وقتها لن أريحك من معاناتك فقط، بل من حياتك ذاتها.. لقد سئمت من كل هذه المهاترات، أين كنت؟ وكيف أفسدوا عقلك إلى هذه الدرجة؟.

راح يتطلع حوله في قلق، وكأنه يبحث عن شيء أو ينتظر ظهور شيء ما، ولمعت عيناه بمزيد من الدموع، وهو يقول في يأس:

- سبق السيف العزل يا ولدي، سبق السيف العزل.

عجز عقلي عن التفاعل مع كل هذا العبث والهذيان، فتوقفت عن جدالي الغاضب معه، وأغمضت عيني قليلًا، لأخفف من تأثير اللون الأبيض المزعج، وأنا أفكر أنه لا جدوى من غضبي أو قسوتي عليه، فحالته متأخرة بشكلٍ مفزعٍ، وهو مؤمنٌ بكل كلمة يقولها، ككل المرضى العقليين، وأنني مهما حاولت مناقشته أو انتقاده، لن أغير اعتقاده.

لذا فإنني قرّرت أن أتراجع خطوة إلى الخلف، وأقلل من عصبيتي وتحفزي نحوه، وأجاريه في جنونه لبعض الوقت، لعلّ حديثه يكشف لي سرّ هذه الغرفة العجيبة، وموقع بابها الخفي، ولغز حالته المضطربة.

وبصعوبة تمكنت من السيطرة على أعصابي، وإن خرج

صوتي وكلماتي رغمًا عني محمّلين بغضبي وأنا أقول:

- وهل هذه هي طريقتك المثلى للحفاظ على آخر أفراد السلالة العريقة.. أنا لم أتزوج بعد، ولو تزوجت، فأنا لست ميت القلب مثلك لأضحي بولدي، لو أحرقوني ألف مرة.

تأملني في دهشة، وكأنه يراني للمرة الأولى، وأيقظ حديثي بأعماقه شيئًا من المشاعر، قبل أن يهزّ رأسه في اضطراب، ويقول في يأسٍ مضاعفٍ:

- الأمر لم يكن اختياريًا قط يا ولدي، ولو أنك لم تفسد الخاتم، لكنت علمت كل شيء في الوقت المناسب، وتهيأت له، وربما تطوعت من تلقاء نفسك للقيام بالمهمة.

لم أجد في حديثه غير الجنون المعتاد، فسحبت نفسًا عميقًا محاولًا التحكم في أعصابي التي بدأت تهتزُّ بسبب رهاب الأماكن المغلقة، الذي أحياه في أعماقي ووجودي في هذه الزنزانة البيضاء المصمتة، وأنا أقول:

- اللعنة على الخاتم.. أنا لم أفسده، بل ذلك الزبون الداعر.

هتف في شرودٍ:

- لقد أصبحوا بيننا بالفعل.. وعبروا من عالمهم إلى عالمنا.. ومعنى أنهم وصلوا إليك وإلى الخاتم وأفسدوه، أنهم تكيفوا واندمجوا أسرع مما توقعنا، وباتوا أخطر ممّا نظن..

لم أفهم مقصده ولا مغزى عبارته فأكملت:

- الخاتم.. الخاتم.. اللعنة على الخاتم، بل على كل خواتم

العالم.. إن سبب ارتدائي للخاتم في المقام الأول هو حرص أمي أن يكون في إصبعي ذكرى منك، لأنها كانت مؤمنةً بعودتك، وكانت ترغب في أن نعود أسرة طبيعية يومًا ما، صحيح أن ذلك الغريب عبثَ به وأفسده، أو في أهون الأحوال بدله في غفلةٍ مني، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس مخلوقًا طبيعيًا أو من كوكب آخر.

هتف في اضطراب:

- الزواحف البشرية ليسوا من كوكب آخر يا ولدي، بل هم من أوائل من استوطنوا الأرض في الماضي السحيق قبل نشأة الحضارات المعروفة، وظهور الإنسان الحديث.. وهم جنسٌ وحشيٌ مُخلق وراثيًا، لا يعرف إلا لغة العنف وسفك الدماء، وتمّ برمجتهم على كراهية الأجناس الأخرى، فأفنوا العديد من الحضارات، وأبادوا أجناسًا كاملة، واجتاحوا الأرض كوباءٍ، ولم يوقف زحفهم إلا جيوش أجدادنا الأوائل، وأسلحتهم السرية، بعد قتال عنيف أُريقت فيه أنهار من الدماء أجهزوا على الغالبية العظمى منهم.. وعندما جاء الأمر من الملك، أحرقت بقاياهم في محارق عملاقة، وتتبع الجنود الفارين منهم عبر شعاب الأرض وبحارها، فكَمن الأقل ذكاءً وتطورًا منهم في شقوقها، وفي الجزر البعيدة، في حين فرّ الأكثر تطورًا وذكاء إلى خارج الأرض مستخدمين إحدى بوابات النجوم، وهم يحاربون الآن لاستعادتها من قبضتنا، إنهم قساة لا يعرفون الرحمة ولا ينؤون التوقف، وعلى وجودهم هذا أن ينتهي أو نغلق الغرفة إلى الأبد.

رددت بصوتٍ غير مسموعٍ:

- الزواحف البشرية.. يا للجنون.. لقد تلف عقله تمامًا..

لم ينتبه بالطبع لما أقوله، وهو يخوض في هذيانه قائلًا:

- ومن اللحظة التي وطِئت فيها بقدميك أرض الغرفة، فأنت صرت هدفهم.. الحرب مستعرةٌ، ومصير أجناسٍ كاملةٍ يتوقف على ردِّ فعلك، لقد حاولت أن أختار لك مستقبلًا أفضل وكل الخيوط في يدك لتنسج احتمالات أفضل.. وللأسف أصبح كل شيء مرهون بك.

أطلقت سبّة بذيئةً في سري وأنا أرمقه في عدم تصديق، فقصصه الخيالية الأشبه ببعض أفلام هوليود الرديئة تتشعب دون توقف، وأنا ألهمه بحماقتي بالمزيد من الأفكار.

وكي لا أفتح بابًا جديدًا للجدل، لم أناقشه فيها أو أنتقدها، وقررت أن أستكمل سعيي الحثيث في محاولة استفزاز عاطفته كأب، كي أنهي هذا الموقف العصيب، ونخرج من ذلك السجن الصامت قبل أن ينفد الأكسجين، فقلت في أسى:

- أهذا هو ما تكافئ به ابنك بعد هذا الغياب الطويل، لقد تعبت من كل هذا الجدال، ومن أوهامك وقصصك الخيالية الجامحة، هلمّ أخرجنا من هنا، أو اقتلني كما كنت ترتب، لأني بتّ أكره كل ما يجمعنا في هذه الحياة.

أمسك رأسه في حزن، وهو يردّد كالمجاذيب:

- لا يا ولدي لا.. إلا الكراهية، إلا الكراهية.

شعرت بأنه قد فقدَ عقله تمامًا في هذه اللحظة، فرحتُ أجول ببصري في أنحاء الغرفة المصمتة، وأنا أحاول عبثًا البحث عن باب أو مخرج سري، ليقطع أفكاري صوته المقبض وهو يقول في اضطراب:

- الكراهية، كل شيء بدأ بسبب هذا الشعور المقيت، لقد تورطت في كل هذه الأهوال بسبب كراهيتي الشديدة لجدك، الذي لم أر منه عطفًا أو..

كانت صدمتي من حديثه هذا أعظم من صدمتي فيه، وحاجتي للنيكوتين بدأت تزعجني، فقاطعته في حدة:

- اللعنة ألا يوجد شخصٌ سويٌ في هذه العائلة؟.. كُف عن حديث الذكريات الملعونة هذا، وأخرجنا من هنا كما أدخلتنا قبل أن يأتي أصحاب المخزن، ونتورط في..

وقاطع حديثي صوت أزيزٍ قويٍ دوّى في المكان، واهتزت الغرفة على أثره، وكأنها في مهبِّ ريحٍ قويةٍ، فراح يصرخ:

- لقد حانت اللحظة، وبدأت مهمتك الفعلية، ومعًا سنصلح الخطأ الكبير.. لا تدعه يتمكن منك إنها فرصتنا الوحيدة.. ثِق في غريزتك ولا تثق في عينيك.

وما أن أنهى عبارته حتى أعمى عيوننا وميضٌ خاطفٌ خفت أسرع ممّا ظهر، ليتجسد أمامنا نسخة أخرى من أبي في منتصف الغرفة..

نسخة أكثر شبابًا وعنفوانًا..

لا أحد يمكن أن يتخيل مقدار صدمتي ودهشتي في هذه اللحظة..

لقد تحوّلت حياتي إلى جحيمٍ بسبب وجود نسخةٍ واحدةٍ من أبي.. فكيف بوجود نسختين؟.

وهنا صرخت في غضبٍ:

- أهذا هو شريكك الذي ساعدك، في تنفيذ خدعك.. أهذا من كان يلاحقني أثناء نومك في المنزل؟.

هتف أبي في لوعةٍ وهو يواجه نسخته الأخرى الأكثر صحةً وعنفوانًا:

- بل هو أنا بعد أن سيطر عليه الزواحف، لا تدعه يتمكّن منك.

وهنا صرخت نسخته الثانية في غضبٍ:

- هل صنعت من ابنك طعمًا أيها اللعين؟ أيّنا أكثر حقارة الآن.. لن يغادر أي منكما هذا المكان حيًا.

أجابه أبي في مقتٍ:

- بل هو ابنك أيضًا أيها الوغد.. لا تتصرّف وكأنك غدوت سحليةً لعينةً.

دارت رأسي من الحوار العجيب، ولم أقم بأي رد فعلٍ، إلى أن أخرج نسخته خنجرًا من بين طيات ثيابه، وانقض به على أبي، الذي صاح في غضبٍ:

- الغرفة لا تسمح بدخول الأسلحة، هذا ليس عدلًا.

أطلق الرجل ضحكةً مقيتةً، ثم قال في تشفٍ:

- القوانين تتغير أيها الأحمق، كان عليك أن تتعلّم بعض الحيل.. علوم أجدادنا منحتني استثناءً.

تجمدت من المفاجأة في مكاني، ولكن أبي تحرّك برشاقةٍ وسرعة مذهلتين لا يمكن لمن في مثل عمره أو هيئته أن يتحرّك بهما، وهو يقول في شماتة:

- بل الأحمق من يظن أن الأسلحة وحدها تُكسب المعارك، أو أنني لم أتوقع هذه الخيانة من الغرفة.

وكمقاتلٍ محترفٍ تفادى الخنجر الموجّه إلى قلبه، ثم مال جانبًا، وكال لشبيهه لكمةً ساحقةً هشّمت فكّه، وجعلته يطلق صيحة ألمٍ، ويبصقُ بعض أسنانه، وهو يقول:

- ضاع عمري كله، وأنا أرتب لهذه اللحظة.

وبرغم دهشتي من قدرات أبي المذهلة، تحركت برد فعلٍ غريزي لأسانده ضد ذلك الشبيه المسلّح، تدفعني غريزتي، وقمت بشلّ حركته من الخلف بشكلٍ مفاجئ، ورفعت ذراعيه إلى أعلى كي لا يتمكن من استخدام الخنجر ضده، فسقطت مني القداحة على الأرض، وكادت أن تشتت انتباهي، ولكني تجاهلتها وأحكمت تكبيله.

وبلا أدنى ترددٍ، انقضّ أبي على شبيهه الذي قاوم في شراسة، وكال له لكمةً أخرى كالقنبلة، سقط على أثرها

الخنجر من يده على الأرض، وهو يكافح ليتنفس بعد أن شحق أنفه.

وأمام عيناي المندهشتين، انحنى أبي وتناول الخنجر الساقط من على الأرض بسرعةٍ، وأداره في يده في مهارةٍ عاليةٍ وكأنه قاتلٌ متمرسٌ، ثم رفعه لأقصى مدى سمح به ذراعه، وأغمده حتى مقبضه في صدر الشبيه الغاضب الذي أطلق شهقةً مستنكرةً، وكأنه غير مصدق أن أبي استطاع دحرهُ بهذه السرعة والبساطة، قبل أن تزيغ عيناه ويسلم الروح، ليقول أبي في شراسة:

- الآن ليشهد الأجداد، أني لم أحنث بالعهد.

هبط الأمر على رأسي كالصاعقة، فحررت ذراعي الجثة التي ثَقل وزنها بعد أن نفق صاحبها، ودفعتها بعيدًا عني، غير مصدق أنا أيضًا ما حدث لتسقط أرضًا، وتتكون حولها بركةٌ من الدماء القانية لوّثت الأرضية البيضاء، لأصرخ في هلع:

- ماذا فعلت أيها التعس.. ماذا فعلت؟.

وقبل أن يجيبني اهتزّت الغرفة تحت أقدامنا بشكلٍ عنيفٍ، وأخذت جدرانها ترتجف وتتقوس وكأنها على وشك أن تنهدم فوق رؤوسنا، فرحنا نتخبط في وقفتنا. في نفس اللحظة الذي تعالى فيها صوت فرقعةٍ هائلةٍ، وراحت الجثة تهتز في عنف، والهواء من حولها يضطرب وكأن خلاياها ستتفكك، وستفقد تماسكها ليدوي بعدها وميضٌ أقوى من السابق أعمى عيوننا.

أغمضت عيناي بشكل لاإرادي، وأنا أضغط على أذناي لأحميهما من الصوت الرهيب الذي كاد أن يسحق طبلتيهما، ولكن الغرفة لم تمنحني الوقت وأخذت ترتجُّ بشكلٍ أعنف، مما جعلني أفقد توازني وأصطدم بأحد جدرانها بقسوة، ولولا قبضة أبي القوية التي ثبتتني في مكاني، لتهشمت كل عظمةٍ من عظامي، أو خرجت من هذه الغرفة الملعونة بشللٍ كلي.

استمر الارتجاج لفترةٍ طويلةٍ حتى ظننته لن ينتهي، وأني سأقضي نحبي بين جدرانها، ولكنه في النهاية انتهى، وعاد الهدوء إلى الغرفة، فقمتُ بفتح عيناي، وأنا أكافح الدوار وغثيانٌ رهيب يمزق معدتي، وهتفت:

- اللعنة.. ما الذي حدث؟.

وهنا انتبه أبي لانتهاء الأمر فأفلت ذراعي، وهو يجيب:

- كان عليّ أن أصحح خطأ جدك، وأُحرر الغرفة من سيطرة الزواحف وأعيدها لسابق عهدها، لقد استغلينا نفس خدعتهم الماكرة لاستدراج رجلهم والقضاء عليه، فوجودك معي في الغرفة فاقم من الخلل القديم، وفتح ثغرة بين جانبيها، فاستخدمتك كطعم لاجتذاب ذلك الحقير، و...

وهنا تذكرت ما حدث قبل أن تُصاب الغرفة بالجنون وتحاول تهشيم عظامنا، فرحت أتلفت حولي بحثًا عن الجثة فلم أجد لها أثرًا، لا هي ولا بركة الدماء التي كانت تحيط بها، ولا الأسنان التي بصقها القتيل حين تهشّم فكه؛ وكأن كل ما حدث بعض ألعاب الحواة، أو مجرد وهمٍ عقلي أُخضعت له،

ولم ترتكب في الغرفة جريمة قتلٍ وحشيةٍ منذ وقتٍ قصيرٍ.

والشيء الصادم أكثر أني وجدت حجم الغرفة قد تضاعف بشكلٍ مرعبٍ، لتصبح في حجم ملعب كرة السلّة أو يزيد قليلًا.

تراجعت للخلف مصدومًا، وأنا أفكر في الجنون الذي أمرُّ به منذ وطئت قدماي هذه الغرفة، وهتفت في هلعٍ:

- هل جننت أنا الآخر؟ هل قتلت شبيهًا لك منذ دقائق؟ ولو حدث! فأين ذهبت الجثة؟ وكيف اتّسعت الغرفة بهذا الشكل العجيب؟ ألن تتوقف عن ألعاب الحواة هذه، هل أنت ساحرٌ لعينٌ أم ماذا؟.

لمعت عينا أبي بالجنون، وهو يقول في غضبٍ:

- أصمت قليلًا وتوقف عن أفكارك الساذجة هذه.. الغرفة أكبر من تفكيرك هذا، والجثة كانت هنا بالفعل، والغرفة لفظتها إلى الخارج، فهي لا تسمح بوجود أي شخص آخر بداخلها غير قاطنها.

صرخت في غضبٍ:

- ألن تكف عن الكذب والتلاعب بعقلي، كيف لا تسمح إلا بوجود قاطن الغرفة وأنا وأنت هنا، والقتيل كان معنا منذ دقائق؟.

أجاب في ضيقٍ:

- لو أنك تخرس قليلًا وتنصت لفهمت كل شيء، رابط الدم

الذي يربطنا جميعًا جعل الغرفة تتعامل معنا على أننا شخصٌ واحدٌ، ولكن هذا لن يستمر طويلًا، فكما انقطع الرابط بموته ولفظته الغرفة خارجًا، فانقطاع الرابط بيننا مسألة وقت بعد أن تحررت الغرفة، وبعدها لن تسمح بوجود قاطنين داخلها كما كان الأمر منذ آلاف السنين، وكما لفظت الجثة ستلفظني خارجها أنا الآخر، فدعنا نستغل الوقت المتبقي لنا في إعلامك بما خفي عنك.

صِحت في غضبٍ ممتزج بالتوتر، وكل أفكاري تتلخص في أنني بصحبة قاتلٍ مختلٍ في غرفة مغلقة:

- لتذهب إلى الجحيم إذًا.. أنا لا أرغب في سماعك.. أنت قاتلٌ مختلٌ، لا يهتم بإزهاق الأرواح، أفق لنفسك أيُّها المغيّب لقد قتلت رجلًا ويداك ما زالتا مخضبتين بدمائه، كيف أوهمتني أنه نسخة منك، ولماذا أخبرته أنني ابنه أيضًا، ما هذا الجنون؟.

أشاح بيده في نفاد صبرٍ، وقال مدافعًا في حدة، وهو يتناول قداحتي ويضعها في جيبه، وعيناه تلمعان:

- إنَّ ما حدث يقع تحت بند الدفاع عن النفس، لو لم أقتله لقتلنا نحن الاثنين بدمٍ باردٍ.. إنه عميلهم.. الثغرة التي جعلت هؤلاء الدمويين قادرين على التسلل إلى الغرفة، والنفاذ إلى عالمنا ليعيثوا فيه فسادًا وخرابًا، وكان عليّ كسر الرابط الذي ربطني مع هذا الوغد قبل أن أغادر الغرفة ليعتقدوا بموتي أنا الآخر؛ كي لا يرسلوا صياديهم خلفي.

قالها ثمّ راح يلهث، قبل أن يكمل بنفس الحدة:

- ما حدث قد حدث، لا تشغل بالك بهذا الموضوع كثيرًا، إن كل ما عليك معرفته أنه عميلهم، وأنه فقد كل ما يربطه بالبشر منذ زمنٍ بعيدٍ، إنهم لا يسعون للعودة فقط واحتلال الأرض، بل يسعون لفناء كل مخلوقٍ حي على سطحها، وما سفكته من دماء، هو قطرة في بحر الدماء التي ستسفك لو فشلت مهمتك.. أنصت لي جيدًا، وكل الغموض سينتهي فور أن أقص عليك قصتي.

أيقنت من أعماقي أنه فقد عقله تمامًا، وأنني تورطت معه بشكلٍ كاملٍ، وشاركت في جريمة قتل تمّت على يديه بدمٍ باردٍ، وإن لم أفهم بعد كيف استطاع التخلص من الجثة بهذه السرعة، وكيف أوهمني أنه نسخة منه؟.

كما لم أفهم الكثير من الأشياء التي تتعلق بالغرفة وتقنيات عملها، وخدعها المتقنة، وأنصبّ كل تركيزي على أن أغادر هذا المكان المخيف قبل أن أتورط أكثر.

لذا صرخت في صرامةٍ وغلٍ:

- اللعنة عليك وعلى قصتك أيها القاتل الدموي، أخرجني من هنا قبل أن تكون أنت القتيل التالي..

دبدب بقدميه على الأرضية البيضاء كثورٍ هائجٍ، وهو يقول بصوتٍ هادرٍ:

- أنصت.. فالوقت محدود، وكل كلمة سأخبرك بها

ستساعدك في مواجهة الهول القادم، إن الحصول على المعلومات فرصةٌ ثمينةٌ لم تتح لي شخصيًا.. كُف عن عنادك هذا ولا تقاطعني، الأمر جدّ خطير.

وهذه المرة لا أعرف لماذا رضخث له، وصمت!

هل لأن انفعالي أرهقني؟ أم لأن جدران الغرفة المصمتة أشعرتني بالعجز؟ أم هو شيء خفي حثّني على هذا؟ ربما أي سببٍ منهم أو كل ما سبق، لا فارق.

فقد أنهى حديثه، ثم بدأ يرتجف أمامي حتى ظننث أنه على مشارف فقدان الوعي، أو الإصابة بأزمة قلبيةٍ حادةٍ.

شيءٌ ما لم يكن طبيعيًا فيه..

خُيل إليّ أن الهواء من حوله تذبذب بشكلٍ عجيبٍ، كما حدث مع الجثة، فانقبض قلبي وتوقعت أن يختفي كما حدث معها، ويتركني وحدي حبيس هذه الزنزانة.

لكنني وجدته يعتدل، ويسحب نفسًا طويلًا.

ثم بدأ يحكي أو يهذي..

لأن ما أخبرني به تعدّى حاجز الجنون نفسه..

***

لعنةٌ عائلية

كان البابُ الأسود الذي عليه نقش مفتاح الحياة المجنح، هو التّجسيد المادي لكل مخاوفي.

بقلبٍ مثقلٍ، وعقلٍ مستنكرٍ رُحت أنصت إليه، وهو يقول في جديّة:

- قبل زواجي من أمك بعامٍ أو يزيد قليلًا، كانت حياتي تسير بشكلٍ طبيعيٍ، كنا قد أتممنا الخطبة، وأنا أتقدم في عملي بشكلٍ جيدٍ، ومميزات أمك تتضح لي بشكلٍ كبيرٍ، مما يعني أن حياتي تسير كما خططت لها ولا شيء يعترض مجراها.

ولم أكن أتوقع أي عقبات أو موانع حتى بدأت تهاجمني الرؤى والأحلام السيئة بلا هوادة، والتي كانت مصحوبة دومًا برائحةٍ شنيعةٍ، لم يكن يشمها أحد غيري.

لشهور كنت أحلم نفس الحلم..

مرارًا وتكرارً..

صباحًا ومساءً..

بل وفي أي وقت أكون فيه نائمًا أو غافيًا!.

أنا في غرفة بيضاء مصمتة، بلا أبواب أو نوافذ، ودخانٌ أسود كثيف له عينان مخيفتان قاسيتان، يخرج من ذلك الصندوق الخشبي اللعين الذي كان يخص جدك، وهو يتلوى

كالأفعى، ويعترض طريقي لأسمع همساتٍ ثقيلةٍ كأنها آتية من عمقٍ سحيقٍ، تلحُّ عليّ لدخول الغرفة السابعة.. فلا أفهم كُنه الطلب، وقلبي يكاد يتوقف من الذعر.

فالشقةُ مكونةٌ من أربع غرف فقط، ولو أضفنا المطبخ والحمام، سيكونون ستة، فهل هناك غرفة سابعة خفيّة في المنزل؟ وإن كان فأنا لم أعثر عليها!.

وظللت في هذه الدّوامة لفترةٍ طويلةٍ، حتى أنهكت وأصابني والأرق، وبتُّ أخشى النوم.

وعندما أصبح الوضع لا يحتمل، قدّمت على إجازة طارئة من العمل، وقبعت في المنزل أحاول فهم سرّ ما يحدث لي، فلم يكن متاحًا لي أن أشارك مخاوفي مع أي شخص آخر.

فشخص كالثور مثلي ويخاف من بعض الأحلام، لن يكون إلا مادة للسخرية والقيل والقال.

ومن أعماقي كنت على يقينٍ تامٍ، أن ما أمرُّ به أمر خارق للطبيعة، وغير ناجم عن التوتر العصبي أو إرهاق العمل، خاصة وأن كل أحلامي تحتوي على ذلك الصندوق اللعين.

وبعد مرور عدة أيامٍ اكتشفت أن قرار الإجازة كان أسوأ قرار اتخذته في حياتي!

فبدلًا من العمل الذي كان يلتهم جلّ وقتي، ويبعدني عن هذا المستنقع النفسي المروع، فإنني سلّمت نفسي بكل رعونةٍ لهواجسي، وللمهدئات التي كدت أدمنها في سعيي المحموم

للحصول على بضع ساعات من النوم، لا يطاردني فيها ذلك المسخ الدخاني اللعين، ولا الهمسات التي تحضني على دخول الغرفة السابعة.

ليتطور الأمر بشكلٍ خطيرٍ؛ وتهاجمني الرؤى في يقظتي، لأرى نفس المسخ الدخاني وعيناي مفتوحتان، و..

أصابني ذكر المسخ الدخاني بالارتباك، فسألته في توترٍ:

- إذا فذلك المسخ الدخاني وهمٌ خاص بك؟.

أشاح بيده مدافعًا، وهو يقول في استنكار:

- لا.. لا، الطيف الأثيري، ليس وهمًا بل كيانًا حقيقيًا، وهو جزء لا يتجزأ من كيان مرسله، وما طاردني في البداية هو صدى الطيف الأثيري الخاص بجدك والذي احتجز في الغرفة التي كانت تبحث عن بديل لهاجرها العنيد، كما أنني قبلها فتحت الصندوق، وعبثت في محتوياته و..

عدت لأقاطعه، محاولًا الفهم أكثر، وسألته:

- هل كان هذا شبح أبيك، ولماذا قلت جملة (في البداية)؟.

هدر صوته الغاضب، وهو يقول:

- اللعنة على أفكارك.. أنصت لي ولا تحاول إبهاري بعبقريتك..

أدركت من صراخه ونظراته الغير طبيعية أنه واقع تحت ضغطٍ عصبيٍ كاسحٍ، وأن حالته تتدهور بشدة، ولم يكن هذا

في صالحي، فنحن في قبرٍ مغلق، ولو نفد الأكسجين لهلكنا، وعلي أن أتركه يقص قصته، فربما بين طياتها سبيلٌ للنجاة، على الرغم من أن كل ما يقصه يربكني، لأنني بأعماقي كنت أجد له صدى وأثرًا وذكرى، وكأن في عقلي ذاكرة جمعية لكل ما مرّ به أجداي، فقط تطفو بعض هذه الذكريات عند وجود ما يستحثها على الظهور.

ولذلك سحبت نفسًا عميقًا، وأنصتُّ له وهو يقول:

- الطيف الأثيري يصاحب الأحياء لا الموتى، وهو ليس شبحه، ويمكن أن تطلق عليه القرين أو الروح أو أي مسمى يروق لك، وقلت في البداية، لأن هناك طيف آخر ظهر.

سألته في حيرةٍ:

- وكيف استطعت التفريق بينهما؟.

أجاب في توتر وعصبية:

- لم أنتبه للأمر في البداية، وأدرك جزء مني الاختلاف، نوع من الحدس أو الغريزة، كان فقط ينقصه الفهم.

وسألته كي أعيده لسيرته الأولى، وأحاول تهدئة أعصابه الثائرة:

- تقول أنك فتحت صندوق جدي القديم، وعبثت بمقتنياته، فكيف عثرت عليه؟ وهل كان يحبس بداخله المسخ الذي هاجمك، وتسببت في إطلاق سراحه مثل عفريت المصباح؟.

هزّ رأسه في قوة، وهو يلهث ويحاول استعادة أنفاسه،

ليقول في استنكارٍ:

- عفريت المصباح.. اللعنة.. بل ألف لعنة على أفكارك.. الصندوق لم يحتوِ على أي مسوخ، المسخ الدخاني المخيف أتى بعد أن فتحته، لو تنصت لي بتركيز لما أكثرت من التساؤلات.

سحبت نفسًا عميقًا وأطلقته، وقلت في هدوءٍ مفتعلٍ:

- حسنًا.. لن أقاطعك مرة أخرى، كلي آذان صاغية.

وكأنما أُرهق من الوقوف أو الانفعال؛ ذهب إلى أقرب جدار، وجلس ساندًا ظهره إليه، وقال في توترٍ:

- كان جدك رجلًا عنيفًا، شديد القسوة، لم يعرف قلبه الرقة أو الرحمة.. لا أذكر يومًا أنه ضمني إليه أو قبّلني أو أثنى على شيءٍ فعلته، بل كان دائم الصراخ والزجر والتهديد، ولم يكن يرأف بأحدٍ حينما يخطئ، ويتعامل مع جدتك وشقيقاتي كالسّجان، لذا كرهنا جميعًا طريقته وقسوته، وكنا نتنفس الصعداء عندما يغادر المنزل، بل بيننا وبين بعضنا تمنينا أن يخرج ولا يعود، وإن لم يجرؤ أحدنا على الإفصاح عن كراهيته هذه.

لم يكن يكره شيئًا في حياته مثل إنجاب الفتيات، ومنحه الله أربعة منهن فلم يرققن قلبه، وظلّ يعاير أمي بهن حتى أنجبتني.

وظنت المسكينة أن قدومي سيبدلُ من سلوكه وطباعه،

ولكن هيهات.. صار أسوأ، وأحال حياتنا لجحيمٍ على مدى السنوات.

من ناحيتي حاولت أن أتجنّب لقائي به أو الاحتكاك المباشر معه بقدر الامكان، بينما كان هو يتعمّد لقائي لينكّل بي، كي يجعل مني رجلًا كما كان يصرح دائمًا، لدرجة أني شككت أنه تعرض لإساءةٍ جنسيةٍ في صغره، وصارت عنده مثل هذه العقدة.

وعلى كل حال، لم أتأكد بنفسي من هذه النقطة المشينة ولم أبحث خلفها بشكلٍ جدي، وما تأكد فقط هو كراهيتي الشديدة له، ونفوري من معاملته القاسية وأسلوبه العنيف، الذي دفعني دفعًا لأقتحم غرفته المحرمة، وأبحث خلف أسراره حين أصبح عاجزًا عن الحركة بعد أن سقط ذات يوم من الشرفة لسبب غير مفهوم، وأصيب بشللٍ رباعي.

وقتها كنت موظفًا محترمًا في شركة كبرى لا مراهقًا أو طفلًا، ولكن القهر يولد الكراهية.

وكم تمنيت من أعماقي لو أن الشلل طال لسانه أيضًا، وللأسف طال كل شيء وترك لسانه البذيء شديد القسوة الذي لم يتوقّف عن رجمنا بأقذع الألفاظ، وأحال أيامنا وحياتنا إلى جحيم؛ فصرت مصرًا أكثر على عقابه، وتدمير الصندوق الذي يمثل أغلى مقتنياته، والذي كان يطلب من أمي، دفعه بمقعده المتحرك ليطمئن على وجوده فوق صوان ملابسه كل عدة ساعات بشكلٍ مريبٍ، وكأن بداخله كنزًا ثمينًا

يخشى أن يسرق أو يضيع.

ولأنني كنت أرغب في إيلامه وكسر أنفه كما كسر نفسي آلاف المرات، انتهزت فرصة ذهابه إلى الطبيب للقيام بكشفٍ دوري، ووجود شقيقاتي لدى خالتي لمساعدتها في فرش شقة ابنتها التي اقترب عرسها، وحصلت على إجازة من عملي، وتسللت عائدًا إلى المنزل الذي خلا من الجميع، وقد عزمت على كشف الشيء الثمين الذي يخفيه بداخل هذا الصندوق المغلق، ويحرص عليه إلى هذه الدرجة.

وفي ذلك اليوم المشؤوم، وبكل رعبٍ وتردد لصٍ مبتدئٍ يقوم بأول جرائمه، فتحت باب غرفة نومه وقدس أقداسه، التي حرّم علينا جميعًا دخولها منذ وعينا على هذه الدنيا متوقعًا أن أجد بها ما يستحق كل هذا الحرص والإجراءات التعسفية، لأُصاب بخيبة أمل كبيرة؛ فمحتوياتها كانت عادية إلى أقصى درجة.

فراشٌ نحاسيٌ كبيرٌ ذو أعمدة، وصوانٌ خشبي بهت لونه، ومكتبٌ أنيق صغير، ومقعد، ولا شيء آخر غير رائحة المرض التي تفوح منها بقوة.

عصف بي الغضب، وأنا أتأمل الغرفة ومحتوياتها في دهشة!

لقد حوّلها في نظرنا إلى غرفة الرعب.

والغريب أنه لا شيء فيها له أهمية أو قيمة، إلا الصندوق الذي يقبع فوق الصوان الخشبي، وكأنه ينتظرني..

سحبت المقعد من خلف المكتب، ووضعته أمام الصوان، ووقفت فوقه أرمق الصندوق الخشبي صغير الحجم بكل رهبةٍ.

بدا لي الصندوق هو الآخر عاديًا جدًا، لا نقوش ولا كتابات تميزه أو تشي بمحتوياته أو تمنحه أهمية خاصة.

والحقيقة أنني لم أكن أكترث لمحتوياته.

لتكن ما تكون.

مذكرات.. ألبوم صور.. خطابات غرامية.. أي شيء.

المهم أنها تمثل له كنزًا ثمينًا يحرص على إخفائه، والاطمئنان على وجوده طوال الوقت، وسيحزنه ويثير غضبه العبث به أو اتلافه أو اختفائه - فلم أقرر بعد ما سأفعله به - ومع عجزه التام عن الحركة لن يستطع أن يقوم بأي رد فعلٍ، ويذوق القهر الذي أذاقه لنا طوال عمرنا.

تناولت الصندوق الخشبي خفيف الوزن من فوق الصوان، وهبطت به من فوق المقعد، ووضعته فوق حشية الفراش، ورحت ألهث من فرط التوتر والانفعال.

ولوهلةٍ فكرت أن أستخدم مشبك شعرٍ ممن تستخدمهم أمي في فتح القفل الصغير، ثم تراجعت في آخر لحظة، وضربته بمطرقة صغيرة أحضرتها من صندوق الأدوات، رغبةً مني في أن يعرف أن هناك من تجرأ على غرفته وأسراره.

ولم يكن هذا ناجمًا عن شجاعة مفاجئة، بقدر ما كان ثقةً

في عجزه.

نزعت القفل الصغير وفتحت غطاء الصندوق وأطلقت سبةً عاليةً؛ ففي في أعماقه استقرت مفكرةٌ صغيرة الحجم ذات غلافٍ مجعد، تحتوي على بعض الرسوم الغامضة التي لا معنى لها، وصفوف من الأرقام وبعض الحروف، وخاتم من عقيق لا يوحي بكونه ثمينًا أو فريدًا من نوعه - ذلك الذي كنت ترتديه – ومفتاح عادي لا يختلف عن أي مفتاح آخر.

لا خطابات، لا أسرار، لا شيء ذي قيمة.

ارتديت الخاتم الفضي الذي ناسب إصبعي، فتبخرت كل مشاعري السلبية وغمرتني راحة فورية وزال توتري، وكأن له تأثير سحري أو نفسي ما؛ وكالمأخوذ بدأت أتحرك في أنحاء الغرفة، وأتلمس كل جزء منها، ومعها تتولد مشاهد وذكريات لم أعاصرها تعود لأجداد الأجداد.

ونسيت كل شيء عن كراهيتي لأبي وإتلاف محتويات الصندوق، ورحت أستمع إلى الهمسات التي راحت تلقنني معارف ولغات عديدة، وكأنها تعدني لشيء كبيرٍ، واستمر الأمر لعدة ساعات حتى شعرت بأن عقلي غير قادر على استيعاب المزيد و..

وهنا قاطعته متسائلًا في لهفة:

- هل لهذا السبب أتقنت أنا أيضًا العديد من اللغات دون سعيٍ جادٍ، وعشت حيوات عديدة، ورأيت لمحات من المستقبل؟.

رمقني في إكبارٍ وقال:

- ألم أقل لك إنك مميز.. ما حدث لي غير ما حدث لك، دعني أكمل وستعرف كل شيءٍ في حينه.

ضايقتني طريقته، ولكني أشرت له ليكمل فقال:

- وفجأة رأيت المسخ الدخاني الأسود يتجسد في منتصف الغرفة، وعيناه المفزعتان تتأملاني في جشع.. وقبل أن أقوم بأي رد فعل رأيته يشير لمكان محددٍ في منتصف الغرفة، والهمسات الثقيلة تضرب أذني دون توقف من كل اتجاه مرددة:

- هنا.. هنا.. هنا.. هنا..

تسرب برد الرعب إلى أعماقي، فتجمدت في مكاني غير قادرٍ على الحركة أو الفهم..

وبغتةً انسحب الهواء من الغرفة وارتفعت درجة حرارتها بشكل لا يطاق، وساعتها أغشي علي وسقطت على الأرض فاقدًا للوعي.

وعندما استفقت لم يكن هناك أثر للمسخ الدخاني، وغمر الهدوء كل شيء، وشعرت أن شيئًا ما في أعماقي قد تغير، وأن أفكارًا جديدة قد ولدت هناك، فعدت إلى الغرفة بفكرٍ جديدٍ تمامًا غير الذي دخلتها به.

وبكل حرصٍ واهتمامٍ سحبت المفكرة من الصندوق، وخرجت من المنزل إلى مكتبة قريبة لا تبعد عنه أكثر من

دقيقتين، وقمت بتصويرها صورة واضحة وخبأتها في غرفتي لأفك ألغازها فيما بعد دون منغصات، وأعدت الأصل إلى الصندوق الذي أصلحت قفله، وأرجعته إلى مكانه بكل حرصٍ، وأعدت المقعد خلف المكتب وكأن شيئًا لم يكن.

وعندما عاد جدك من زيارة الطبيب، كان التوتر باديًا على وجهه وكأنما شعر بما فعلته أثناء غيابه.

وعندما رآني أرتدي خاتمه الذي نسيت أن أعيده إلى الصندوق فقد النطق من فوره، وأصيب بما يشبه النوبة الصرعية.

ومن وقتها لم يعد قادرًا على الكلام، لكن عيناه في كل لقاء لنا كانت تقول الكثير.

ومن بعدها أصبح حضور ذلك المسخ الدخاني أكثر كثافة، فمرّة أتقبل وجوده ومرّة يتملكني الهلع، وكأنما أصِبت بنوع من انفصام الشخصية أو أن عقلي تسيطر عليه قوتان متنافرتان.

هذا ما أكّد لي فيما بعد أنهم قد وصلوا لي مبكرًا، وبدأوا بالتلاعب بعقلي، في الوقت الذي كانت فيه الغرفة تعذني لمهمتي بعد فشلها مع جدك.

وعندما عثرنا على جدك مطعونًا في غرفته، توقفت كل هذه الرؤى والكوابيس، وكأنها كانت مرتبطةً به بشكل ما..

وهنا لم أستطع مواصلة الصمت، وقلت في صدمةٍ:

- هل قتلت أباك أيضًا؟.

أشاح بيده كعادته مدافعًا، وقال في فزعٍ:

- لقد كرهته أكثر من أي شيء في الوجود، إلا أنني لم أفعلها؛ فهو برغم قسوته أبي ووقت مقتله كنت في عملي، وكل زملائي ورؤسائي شهدوا بهذا، والشرطة نفسها أخلت سبيلي وقيّدت الواقعة ضد مجهول، مفترضين كونها عملية سرقة عادية تفاجأ اللصوص خلالها بوجوده فتطوّر الأمر إلى جريمة قتل.. وبالطبع لم أقتنع بما ساقته الشرطة، لأن عجز أبي يستطيع أن يلاحظه الأعمى، وبالتالي لا يمثل أي مصدر خطرٍ على اللصوص ليجبرهم على قتله فهو لا يتحدث ولا يتحرك، كما لم يُفقد من المنزل غير المفكرة والمفتاح، وهو الشيء الذي لم أفصح عنه أبدًا خوفًا من إثارة الأقاويل وتورطي في الأمر.

هتفت في دهشةٍ:

- هل تعني أنه قُتل من أجل هذه الأشياء التافهة، هل كانت تقود لكنزٍ أم ماذا؟.

هزّ رأسه في بطءٍ وقال في أسى:

- هي لم تكن أشياء تافهة لمن يدرك قيمتها، بل كانت تقود إلى السر الأعظم.. إلى هذه الغرفة.

صرخت في غضبٍ:

- اللعنة على الغرفة.. ما سرها؟.

قال في نفاد صبر:

- بل قُل أسرارها.. وهذا ستعرفه بنفسك، فقط دعني أكمل.

أجبرت نفسي على الصمت، فعاد ليقول في اهتمام:

- بعد عام كامل من وفاته، عقدتُ قراني على أمك، ومرت الأيام هادئةً هانئةً وكأنني لم أعرف أحزانًا قط، ونسيت أو تناسيت كل شيء عن المسخ الدخاني الأسود، ومقتل أبي، والرؤى، والكوابيس، والغرفة، ونسخة المفكرة التي لم تهديني لأي شيء عندما حاولت فك شفرتها.

وفي يوم مولدك عاد هذا الجحيم مجددًا، وكأن مولدك أحيا شيء ما مات مع جدك، فعدت إلى المفكرة وحاولت أن أفك شفرة الأرقام والرسوم العجيبة بالجهود الذاتية مستخدمًا بعض كتب فك الشفرات المتداولة دون أي تقدم يذكر من جانبي، فلكل شفرةٍ مفتاح وأنا لم أكن أملكه.

ومع هوسي بالمفكرة والضغط المروع الذي تسبب فيه مطاردتي من قبل المسخ الدخاني الذي بات يفزعني وجوده، سلمت أذني وإرادتي للهمسات الغامضة، التي وسوست لي كي أستعين بأحد جيراني القدامى يدعى (محمد محسن) والذي اكتشفت عند لقائي به بأنه كان يعمل سابقًا في المخابرات الحربية في قسم فك الشفرة.

وبطريقة غير مباشرة عرضت عليه الأوراق، فاستفزّه التحدي وأثار شهيته، وبدأت جلساتنا وسهراتنا المطولة.

واستغرقنا الأمر الكثير من الوقت، فأصبحت أكثر من الغياب والمبيت خارج المنزل بحجة ضغوط العمل، حتى أثرت جزءًا من شكوك أمك وقلقها، ولكنها كانت أطيب من أن تثير المشكلات أو تعترض طريقي.

حتى أتى اليوم الذي أثمرت فيه جهودنا، بعد أن استعان بصديقٍ عبقري آخر يدعى (راجح داود) ما زال على رأس العمل، استخدم تقنية جديدة في فك الشفرة، وحلّ لنا غموض المكتوب الذي أصابني بالمزيد من الحيرة.

فالمكتوب في نسخة المفكرة، لم يخرج عن كونها مواعيد سابقة ومستقبلية لظهور ما أو حضور شيء ما، فالكلمات لم تكن حاسمة وكل موعد مرتبط بإحدى الرسومات التي تمثل كل منها مسارًا ما على خريطة، يشير إلى أماكن بعينها، ومن ضمنها غرفة جدك.

سبعة أماكن مع عشرات المواعيد والتواريخ.

صحيح أنني كنت في حالة نفسيةٍ سيئةٍ، بعد مصرع (محمد محسن) و (راجح داود) في حادث سير مروع، وأنني أجهل كل شيء عمن سيحضر أو يظهر، أو كيف سيساعدني في إعادة حياتي لطبيعتها، إلا أنني لم أتوقف عن السعي لكشف غموض ما يحدث.

كان أقرب موعد للظهور ذكر في الأوراق بعد مصرعهم بأسبوع، محددًا في غرفة جدك.

هل هي مصادفة؟.

ربما...

وكان هذا هو اليوم الذي تمّ فيه اختطافي، وإعادتي للمنزل بذلك الشكل الغريب الذي أثار جنون أمك.

ففور أن ودّعتني أمك على الباب كعادتها، وأغلقته خلفي وهي تدعو لي بالرزق والفلاح، حتى شعرت بجسدي يرتجُّ، ثم أظلمت الدنيا بغتة أمام عيني، دون أن أشعر بألمٍ أو أفهم ما حدث.

وعندما انقشع الظلام، وفتحت عيني بعد مرور عدة ساعات، كنت واقفًا في حالة من الذهول أمام باب شقتي، ولبعض الوقت لم أتحرّك من مكاني إلى أن بدأ ذهني يصفو قليلًا فطرقت الباب ودخلت، وفكرةٌ واحدة تسيطر على عقلي، وهي أن أكون في غرفتي التي هي غرفة جدك لأن الموعد المحدد يقترب، ولأن هذا هو السبيل الوحيد للخلاص من المسخ الدخاني الذي يطاردني، والكوابيس والذكريات الرهيبة التي كانت ترجم عقلي، والعودة لحياتي الطبيعية وأستطيع النوم.

من زرع الفكرة في عقلي؟.

لم أكن أعلم أو أبالي في حينها، كل ما كان يعنيني أن أتواجد في الغرفة في الموعد المحدد.

لم أكن نفسي وقتها، ولكنني لم أمتلك إرادة لأعترض أو أقرر.

وقبل الموعد المحدد كنت هناك، أجلس على المقعد الخشبي في زاوية الغرفة وأنتظر.

كم مر من الوقت، لا أعلم، فوعيي كان مشتتًا.

مضت الدقائق وأنا لا أحرك ساكنًا.

وبغتةً، وأمام عيناي الذاهلتين تجسّد من قلب العدم بابٌ معدني أسود أنيق يزين سطحه نقشٌ دقيق لمفتاح حياة مجنح، استقر في منتصف الغرفة، وفي نفس المكان الذي أشار إليه المسخ الدخاني، ووقف شعر جسدي وكأنما تم شحنه بكهرباء استاتيكية صنعها مجالٌ خفي يحيط بالباب، لأشم بأنفي رائحة دخانٍ خفيف يتصاعد من البساط الذي ذابت أطرافه ليصفو عقلي بغتة، فرحت أرددت بصوتٍ مكتومٍ:

- اللعنة.. أيّ سحر هذا؟.

وأمام الباب الأسود الرهيب وقفت أرتجف، وعيناي تتفحصانه في هلعٍ، وقلبي يكاد يخرج من حلقي من الرعب، فهذا تطورٌ مفزع لم أضعه في الحسبان.

وماعدا النقش الفرعوني الأنيق، لم يكن الباب الأسود يختلف عن أي باب معدني آخر، ولكني شعرت بتلك الرهبة التي نظر بها الرجل البدائي إلى النار، بعد أن ضرب البرق شجرة أمامه فأحرقها.

وإن لم يغِب عن عيني أن الباب نفسه بدون كالون أو رتاج

أو لوحة رقمية خارجية لفتحه، فلم أفهم في حينها فائدة ظهوره أو كل تلك المؤامرات السرية التي حيكت لتحديد مواقع هذا الظهور.

كان الباب الأسود الذي عليه نقش مفتاح الحياة المجنح هو التجسيد المادي لكل مخاوفي.

وكجنديٍ مذعورٍ يدور حول لغمٍ متفجرٍ يجهل كل شيء عن طريقة إيقافه، ذرت حول الباب في بطء، وأنا ألتهمه ببصري دون أن أجسر على الدنو منه أو لمسه، ورعبي الداخلي يتضاعف، وفي عقلي ألف فكرة، وسؤال..

الموقف مفزع بالفعل، فمن أين ظهر هذا الباب؟ وهل سيكون هو الظهور الوحيد، أم سيظهر شيء آخر بعده؟

المفكرة لم تذكر أي معلومات، أو تعطي أي تنبيهات أو تحذيرات وأنا لا أعرف حقيقة ما هي الخطوة التالية، ولا أفكار تتوارد إلى عقلي.

ظهور الباب بمثل هذه الطريقة، تسبّب لي في ذعرٍ عظيمٍ.

وبصعوبة تمالكت شتات نفسي، واقتربت منه في حذرٍ ورحت أتحسسه في رهبةٍ، لأتلقى صدمةً عظيمةً، هزتني من الأعماق؛ فسطح الباب كان في برودة الثلج، مما أجبرني على سحب يدي بسرعة، وإطلاق صرخةٍ مكتومةٍ دعوت الله ألا تكون أمك الجالسة في الصالة قد سمعتها كي لا تدخل الغرفة وتكتشف وجود هذا الباب العجيب.

وتقبل الله دعائي، ومضت دقيقةٌ كاملةٌ دون أن تفتح باب الغرفة وتدخل، فأدركت أنها لم تسمع الصرخة؛ بسبب صوت التلفزيون المفتوح الذي شوّش عليها، أو شقاوتك التي ألهتها عن سماعها، فحمدتُ الله وقررت أن أتشجع وأفتح الباب.

شيءٌ ما من أعماقي أمرني أن أنتظر، فأطعته..

مضت ساعة أو يزيد وأنا واقف أمام الباب بذهنٍ خالٍ، ثم فجأة شعرت بحضور قوي وبالقرب من الباب توتر الهواء وبدا وكأن الفراغ ينشقُّ، ثم رأيت بلاط الغرفة يتشقق، وخُيل إلي أني أرى شخصًا يشبهني تمامًا يخرج من الشق، شعرت بالتشتت والارتباك، ثم أتى الأمر فتجاهلت كل ما حدث منذ لحظات ودفعت الباب، ليسطع وميضٌ قوي أعمى بصري.

وحينئذ شعرت بقوة جذبٍ غير عادية تجبرني على عبور الباب دون أن أستطيع مقاومتها، وساد بعدها صمتٌ مطبقٌ، خُيل إليّ فيها أن الزمن نفسه قد توقف.

لأشعر بعدها بكل شيءٍ يرتج من حولي، وكأنني في مركز زلزالٍ عنيفٍ، وبأن خلايا جسدي تتمزق دون أن أمتلك أي تفسير لما يحدث في حينها.

ما أدركته بعدها بسنين طويلة، أن عبوري الباب في هذا التوقيت الحرج كان جزءًا من مؤامرة حقيرة تم الترتيب لها للسيطرة على الغرفة الأخيرة، لزرع عميلٍ خاص للزواحف وسط قدس أقداس أجدادنا العظماء.

وأنهم استغلوا الخلل الذي تسببتُ فيه بعد سنين طويلة

لبناء خطتهم بالكامل، فاستطاعوا السيطرة على نسختي الثانية وقلبوا ولاءها لهم، وكنت أنا بجهلي وفضولي عميلهم الثاني الذي منحهم مواعيد ومواقع ظهور الغرفة.

لم يكن حديثه الأخير منطقيًا، فكيف يستغل الزواحف البشرية – بفرض وجودهم - خطأً سيرتكبه بعد سنوات أي في المستقبل، لبناء خطتهم التي ستنفذ في الماضي.

إن قصته الملفقة تنكشف لي الآن، لذلك تركته يستطرد ليقع في المزيد من الأخطاء، ورحت أنصت له وهو يقول:

- ولتلافي تلك التغيرات العنيفة التي ستحدث عند دخولي الغرفة في تلك اللحظة الحرجة، قاموا باختطافي وحقني بعقارٍ خاص منح خلايا جسدي قوة مضاعفة - لابد وأنك لاحظت هذا - ثم استخدموا نوعًا متطورًا من التنويم المغناطيسي لضبط عقلي على الدخول إلى الغرفة في توقيت محسوب.

وفي التوقيت المحدد، وبدقة مذهلة دخل إلى الغرفة قاطنين وليس قاطنًا واحدًا، على عكس ما هو مفترض.

أنا ونسختهم..

قاطنان لهما نفس التركيب الجيني والبصمة الوراثية.

وتسبب هذا في ارتباك عظيم للغرفة.

واختلت قوانين وضعت منذ آلاف السنين، و..

وحدث خللٌ رهيب.

وللمرة الأولى منذ تم إنشاء الغرفة، تنقسم إلى نصفين بشكلٍ قسري، كل نصف منهما ظاهرٌ لقاطنه، وخفي عن القاطن الآخر الذي ارتبط مع رفيقه برباط قوي لا يفصمه إلا الموت.

وهنا كان فضولي قد استعر، وسألته في حدةٍ:

- هل هذا هو الشخص الذي قتلته؟.

هزّ رأسه بالإيجاب وقال في مرارةٍ:

- نعم هو.. وهو ليس شخصًا.. إنه أنا.

جززت على أسناني من الغيظ، وقلت في نفاد صبرٍ:

- ولو صدقتُ أنا حكايتك الغريبة هذه، فأنت بقتله قد تحرّرت من كل ما يربطك بالغرفة.

هزّ رأسه مجددًا، وقال في اضطراب:

- بلى.

فأكملت حديثي شاردًا، وكأنني أحدث نفسي لا أحدثه هو:

- وهذا يعني أن دخولك هذه الغرفة الملعونة، لم يكن عن رغبةٍ خالصة منك، بل بسبب مؤامرة قام بها هؤلاء الزواحف البشرية، وأنك كنت سجينًا طوال هذا الوقت بداخلها، بل وخفي عن قاطنها الثاني دون وسيلة تواصل بعد أن تسببت في خلل إضافي بسبب أخطاء أبيك في الماضي وأخطائك المستقبل.

هزَّ رأسه مؤكدًا على كلامي، فأكملت:

- وبالتالي إما أنك مؤلفٌ فاشلٌ خياله محدود، لم يُجِد حبك قصته، أو أنك تعبث معي لاعتقادك أنني شابٌ ساذج سيصدق هذه الأوهام الملفقة.

لوّح بيده ليبعد عن نفسه هذه التهمة ثم قال في جزعٍ:

- لماذا لا تصدقني، أنت الآن في الغرفة و..

قاطعته في غضبٍ:

- لن أصدقك، أو أصدق ألاعيب الحواة التي تمارسها ضدي منذ سجنتني معك في هذه الزنزانة الملعونة؛ لأن شخصًا لا حول له ولا قوة مثلك، احتجز رغمًا عنه في غرفة مصمتة لا منافذ لها، ولا يملك أي وسيلة تواصل مع العالم الخارجي وظل سجينًا لما يقرب من ربع قرن تعرض خلاله لتعذيبٍ ممنهج، ما زال على قيد الحياة، بل وفجأة علم بكل بساطة وسيلة الخروج منها، وهي أن يضحي بابنه وقاطن الغرفة الآخر - الذي هو نفسه، بعد أن سيطرت عليه الزواحف - كي يتحرر، فأي خيالٍ مريضٍ هذا الذي تطالبني بتصديقه، وأي فيلم هابطٍ تحاول إقناعي به، و..

اهتزت الغرفة بشكل مفاجئ، فألجمت لساني، وأنا أنظر حولي في رعبٍ بحثًا عن شيءٍ أتمسّك به، في حين اتسعت عيناه في هلعٍ وراح يصيح بصوتٍ مرتفع، وبكلماتٍ سريعة تشي بكمٍ رهيبٍ من التوتر:

- الغرفة ليست زنزانة كما تتوهم.. إنها ميراثك وعليك استعادته بالكامل، وفرض سيطرتك عليها أو إغلاقها إلى الأبد. وهذا لن يتم ببساطة لأنها ستقاومك وستحاول إجهاض كل مساعيك، فلا تأمن جانبها أو تسلمها عقلك، فالغرفة قديما كانت خاضعة لقاطنها، ولكنها الآن بعد ربع قرن من الانقسام والعبث باتت تكره قاطنيها. وفي العالم الذي أنت على مشارف الدخول إليه، ستجد الموت متربصًا بك في كل ركن من أركانه، لا تدعهم يحصلون على ما يوجد في المقبرة المحرمة ولو اضطررت لتدميره، أشعل المنارة لتصل إليها.

صرخت فيه مقاطعًا ورأسي ترتجُ من اهتزاز الغرفة، وقلت في يأس:

- قدري وغرفة تكره قاطنيها، ومقبرة محرمة، ومنارة، هل عدت لهذيانك مجددًا؟.

فصرخ، وصورته تهتز:

- كل شخصٍ أحضر إلى هنا لسبب.. لا تتعجل المعرفة فكل شيء سيتضح في موعده، وعليك أن تستعيد ثقة حارس الغرفة.. وتذكر دائمًا أنك لست وحدك.

ولا أدري هل سمعت كلمة (سامحني) أم خُيل إلي؟!

لأنه أنهى عبارته الأخيرة، ثم سطع الوميض وتلاشى جسده من أمامي كما تلاشت الجثة منذ دقائق.. وتجمدت أنا في مكاني أنظر إلى الفراغ غير مصدق أنه تركني وحيدًا في هذه

الزنزانة المعزولة عن العالم الخارجي؟.

وعلى الفور عاد الصمت المميت ليبسط سلطانه على الغرفة، وأصبحت رسميًا سجينًا بداخلها، وليس بجعبتي سوى بضع تحذيرات من أبٍ مخبولٍ، لا ترقى حتى للهذيان.

***

حارس الغرفة

أنت لا تعرف مدى قسوته..

إنّه لا يتفاهم ولا يستمع لأعذار.

إنني بحاجة إلى سيجارة.

هاجس آخر مزعج يلحُّ على ذهني، ويثير توتري مع كمِّ الأفكار المظلمة التي باتت تتصارع داخل رأسي كقطيع من الثيران يرغب في الفتك ببعضه، ولم يمضي على وجودي وحيدًا في تلك الزنزانة المشؤومة أكثر من ساعة.

عبارة (التدخين ضار جدًا بالصحة)، تسبح مجسمة في فضاء الغرفة أمامي، فأصرخ أني أرغب في نفسٍ واحدٍ فقط بعدها أموت.

يظهر وجه أمي بغتةً ليحتل كامل مساحة الغرفة، وهي ترمقني في لومٍ على حماقتي، فينتابني الضيق وأمد يدي في جيبي بحثًا عن علبة سجائري، فلا أجدها فيزداد ضيقي أكثر.

(ندى) لا تمانع أن أدخن في وجودها، بل أعتقد أنها أدمنت التدخين السلبي، ولولا تربيتها وحياؤها لشاركتني كل سيجارة أشعلها، فابنة الأسطى (صبحي) لا تدخن.

قبضةٌ باردة تعصر قلبي عصرًا، وأنا أراها تدور حولي دون أن تراني، وهي تحمل في يدها سيجارة مشتعلة، وعندما تعجز عن العثور عليّ وتضيق عيناها وتتنهد وقد كسى وجهها الحزن، ثم أسمعها تقول في ضراعةٍ:

- عد وسأمنحك كل سجائر العالم.

أمد يدى نحوها فتتوتر صورتها وتتلاشى من أمامي، فانتفض بسرعة من مكاني، وتتسع عيناي في استنكار.

لقد حذَّرني أبي من أن أسلم عقلي للغرفة، وتلك اللعينة بدأت في العبث معي مبكرًا.

لذا رحت أتنفس بعمقٍ محاولًا إعادة السكينة إلى روحي، فكل التجارب العلمية أثبتت أنه لا يستطيع أي شخص عادي أن يتحمل البقاء في غرفة معزولة تمامًا - مثل هذه الزنزانة اللعينة التي أنا محتجز بين جدرانها - لأكثر من خمس وأربعين دقيقة قبل أن يصاب بالهلاوس وانفلات الأعصاب.

ولو استمر الحال قد يصل في أسوأ الأحوال إلى الجنون أو الانتحار! وأنا أوشك على هذا بالفعل.

ولذلك لم يكن أمامي إلا أن أهزَّ مؤخرتي وأبحث عن وسيلة لمغادرة هذه الزنزانة المقيتة، فعقلي سينفجر من كثرة التساؤلات، والتساؤلات تثير الفكر والخيال، وهي أسوأ طريقة لمواجهة صمت الغرفة القاتل.

وأثناء سعيي الدؤوب للعثور على موقع ذلك الباب الذي دخلت منه بعد أن بات خفيًا، رحت أطرق على أرضيتها وجدرانها، وأنا ألصق أذني بها، كي يرشدني صدى الصوت إلى موقعه دون جدوى؛ فجدران الغرفة نفسها لا ينتج عنها أي ترددات تكشف ما خلفها، وكأنما تمّ صبها من خرسانة

مسلحة بسمكٍ كبير أو أنها في منتصف الفراغ.

ولأنني لم أكن أملك أي معلومات حقيقية عن كُنه هذه الغرفة، ولا الهدف من وجود أي شخص بداخلها، فبكل يأسٍ وقنوطٍ أسندت ظهري إلى أحد جدرانها، وجلست مجددًا استرجع في ذهني كل هذيان أبي عنها، لأحاول ربطه في شكل قصةٍ منطقيةٍ، قد تمنحني طرف خيط للخروج من هذا المأزق.

الأمر كله عبثي، ولكن لو تجنّبت الأمور غير المنطقية، سأكون أمام قصةٍ مقبولةٍ مختصرها أن جدّي تم اختطافه منذ سنوات بعيدة من قبل مجهولين، يمثلون طائفة أو منظمة ما، وخضع لتجربةٍ عقليةٍ جهنميةٍ أوهموه خلالها بأن نجاته من الغرفة - إحدى تجاربهم - وخلاصه من العذاب سيكون بالتضحية بشخصٍ من دمه.

ولأن أمر التضحية يعارض فطرته السوية، وكي تتقبله نفسه، زاد من قسوته على أبنائه حتى كرهوه.

وكان هدفه الوحيد من هذا السلوك العنيف معهم، هو قطع أو إضعاف ذلك الرباط الفطري الذي يربطه بهم ليصبحوا في نظره كالغرباء ويستطيع التضحية بأحدهم عندما يحين الوقت.

وما عقّد الأمور في النهاية، هو عدم قدرة جدي على تنفيذ الأمر أو التضحية بأحد أبنائه، وهو ما جعل هؤلاء السفاحين يتعقبونه ويحاولون قتله بإلقائه من الشرفة في المرة الأولى،

ثم ينجحون في الأمر في المرة الثانية بعد أن أصابه عجزٌ كلي.

وبوسائلهم الشيطانية اختطفوا ابنه، وعبثوا في عقله أيضًا، وسهّلوا له حل شفرة الأرقام، وقادوه إلى فخ الغرفة ليتورط فيما تورط فيه، ولأتبعه أنا بعد كل هذا الزمن لنفس الفخ.

والآن عليّ أن أحل اللغز وأعرف أين توجد هذه الغرفة حقًا؟ وما سرها؟ ولماذا تحتاج دائمًا لمن يقطنها؟ ومن هو حارس الغرفة الذي عليّ أن أستعيد ثقته؟ وهل تقتصر وظيفته على حراسة الغرفة؟ وممن سيحرسها؟ وهل يجلس خارج جدرانها طوال الوقت أم له دوامٌ معين؟ ولو كان هناك.. فهل هناك طريقة للتواصل معه عبر جدران الغرفة السميكة، ومحاولة مساومته لإخراجي منها؟.

عشرات الأسئلة التي تضاف لجبل التساؤلات دون إجابة، وإن جعلني ترتيب القصة في شكلٍ منطقي أتسلح ببعض الأمل؛ فطالما هناك حارس للغرفة، فلابد وأنه سيكون بيننا لقاء لأي سبب من الأسباب، وبالطبع لن يكون هناك من هو أعلم منه بشؤون الغرفة وأسرارها.

ومن أعماقي تمنيت أن يظهر وأقابله في أسرع وقت.

وعندما سكنت روحي لهذه الفكرة فاجأني الصوت قائلًا:

- احذر مما تتمنى أيها الأخرق.

جفلت في مكاني، وقلت في لهفةٍ:

- لو أن الأمنيات تتحقق بهذه السرعة، فلا داعي لأن أخاف أكثر، أليس كذلك يا حارس الغرفة؟.

عاد الصوت ليقول بحسمٍ:

- لو أن الأمنيات تتحقق، فلا أتمنى أن تقابله أبدًا.

ترددت الجملة الأخيرة في عقلي، وأشعلت فضولي أكثر وأكثر؛ فلو أن من يتحدث شخص مختلف عن حارس الغرفة فقد يستطيع مساعدتي، لذا فإنني قلت بلهفةٍ:

- هل تستطيع فتح باب الغرفة، هل أنت في الخارج؟.

أجاب الصوت بهدوء:

- نعم أنا في الخارج، ومغادرة الغرفة ليس مشكلة.. بل البقاء فيها، مع جنون حارسها.

أسعدني جوابه بشكلٍ لم يتخيله، فمن يوجد خارج الغرفة قادر على مساعدتي، وفي حال عجزه قادر على الاتصال بالشرطة أو إحضار من يساعده لقص جدرانها، لذا قلث بلهفةٍ:

- هلمَ إذًا ساعدني على مغادرة هذه الزنزانة، وسأكافئك على صنيعك هذا.

عاد الصوت ليقول بمرارةٍ:

- لا أحد يستطع أن يساعدك إلا نفسك، ولا توجد غير وسيلةٍ واحدة لمغادرة الغرفة، أنت وحدك من يملكها.

رمقت مكان الخاتم الخالي في إصبعي، وكلي سخظ على

أبي الذي استولى عليه، وهتفت في إحباطٍ:

- هل تقصد الخاتم؟.

قال الصوت في هدوءٍ:

- لا شيء مادي قادر على فتح أبوابها.

هتفت بغضب:

- لا تخبرني أنها نسخة المفكرة، فهي ليست معي.

ردّ الصوت في استياءٍ:

- أخبرتك أنه لا يوجد شيء مادي قادر على فتحها، على عقلك أن يعمل أفضل من هذا.

لم تعجبني طريقته الجافة في الحديث، كما شعرت بأن في عبارته الأخيرة شيئًا من الإهانة، فهتفت ممتعضًا:

- لماذا تحدثني بمثل هذه الطريقة؟.

أجاب الصوت ببساطة:

- لأنك توجّه كل تركيزك في الاتجاه الخاطئ، ولأنك عنيدٌ وترفض أن تتعلم، والأهم كي لا تعاقب.

لم يعلق في ذهني سوى جملته الأخيرة، فقلت في استنكارٍ أكبر وأنا أحثُّ عضلاتي على الانقباض:

- أعاقب، هل تظن أنني لقمةٌ سائغةٌ، ومن ذا الذي يجرؤ على عقابي؟.

أجاب في نفاد صبرٍ:

- حارس الغرفة، إنه يظن أنه يقوم بعمله بتلك الطريقة.

أجبت في هدوء متذكرًا نصيحة أبي التي توافقت مع هواي:

- أنا لا أرغب في الصدام معه، بل أرغب في أن يثق بي، اجعله فقط يتواصل معي وسنصل حتمًا إلى تسوية، وأي ثمن عادل يطلبه.. أنا مستعد.

ردّ الصوت بسرعة:

- اللعنة.. إن جهلك هذا سيوردك مورد التهلكة، حارس الغرفة في هذه الدورة الحياتية يعاقب فقط ولا يساعد أحدًا، لا يوجد من هو قادر على مساعدتك غير نفسك، اجعل الكتلة الصماء الموجودة في جمجمتك تتحرك.

صرخت في غضبٍ:

- حسنًا.. دعك من كل هذا اللغو والجدال وساعدني لأغادر هذه الزنزانة الحقيرة، أحضر حدادًا مع شعلة أكسجين ليقص بها الجدران أو اتصل بالشرطة، افعل أي شيء ولن أبخل عليك.

عاد الصوت ليقول بغضبٍ:

- كُف عن ترديد هذه السخافات، الغرفة لا يمكن فتحها بأي من هذه الوسائل، كيف ستواجه ما سيقابلك من أهوال أو تنجو منها بهذه العقلية؟.

كان صبري قد نفد، وروحي قد بلغت الحلقوم، فقلت في حدة وعضلاتي تتقلص، وأكاد أهشم أسناني من الغيظ:

- الآن فهمت الأمر، إن كل ما يحدث هنا مجرد لعبةٍ حقيرةٍ، وأنت مخبول آخر يجلس أمام شاشة مراقبة ذات جودة عالية، ويحدثني عبر ميكرفون خفي مجسم، ويستمتع بكل هذا الهراء.

عاد الصوت ليصدمني قائلًا:

- وأنت لست أخرق فقط، بل ضعيف الملاحظة أيضًا، هل تسمع صوتي أيها العبقري بأذنيك بالفعل؟.

هزتني المفاجأة من أعمق أعماقي، عندما أدركت أن الصوت لا يصل إلى أذني بالفعل بل إلى عقلي، فتجمد تفكيري لبرهة قبل أن أقول بعنادٍ:

- اللعنة.. ربما أنتم مجموعة من العلماء المخابيل، وتستخدمون في تجاربكم معي تقنيات معينة تجعل موجات الصوت تنتقل إلى العقل مباشرة، التجارب منذ عقود لم تنقطع في هذا المجال، والعلماء حققوا فيها نتائج ملموسة، أنا لست ضيق الأفق أو جاهلًا، وكل ألاعيب الحواة هذه قرأت عنها ولن تخيل علي، إنني واسع الاطلاع، عليكم التفكير في أشياء أكثر ذكاءً وابتكارًا، ربما استطعتم خداع أبي وجدي، ولكنكم لن تستطيعوا خداعي.

وبكل برودٍ أجاب الصوت:

- يبدو أنك لست جاهلًا وضعيف الملاحظة فقط، بل أنت عنيد كثورٍ بلا عقل، وحارس الغرفة سيسعد بك حقًا.

أجبته في صرامة:

- كُف عن هرائك هذا، وأخرجني من هذا المكان اللعين، أنا لم أصدق المخبول الذي أوقعني في هذه الورطة مطلقًا، لأصدق صوتًا خفيًا، يحاول إيهامي بأشياء أكثر جنونًا.

رد الصوت في استياء:

- قريبًا تعرف أهمية ما أخبرك به، والآن عليك أن تكف عن عنادك وتغادر الغرفة حالًا، فلو حضر حارس الغرفة ووجدك فيها سيعاقبك بشدة.

ضايقني أسلوبه وتصريحاته المثيرة للأعصاب، فقلت في غضبٍ:

- كُف عن مزاحك وأسلوبك المستفز يا هذا، أنا لست طفلًا صغيرًا أو تلميذًا في مدرسة لتحدثني بمثل هذه الطريقة السخيفة، وتحاول ترهيبي بحارس الغرفة، كما يفعل الكبار مع الصغار، ويرهبونه بوحوش خيالية، ثم هل أنت فاقد التركيز أم ماذا؟ ألم ترني وأنا أطلب منك إخراجي من هذه الزنزانة؟.

عاد الصوت ليقول في عنادٍ:

- كُف عن التلاعب بالألفاظ.. أنا بالفعل لا أراك، ولا أجلس أمام شاشة مراقبة كما تتوهّم، أنا فقط أحاول أن أوضح لك

الأخطار التي ستواجهك لو لم تتحرك وتغادر الغرفة حالًا.

أصابتني طريقته بغضبٍ شديدٍ ولم أعرف ماذا أفعل، فصرخت بكل عزمي:

- الغرفة مصمتة، بلا أبواب أو نوافذ أو مخارج، ولا أعرف كيف أغادرها، هل يجب أن أكررها ألف مرة؟.

يقول الصوت في صرامةٍ:

- وأنا لا أملك أن أظهر لك الباب من موقعي هذا، فالغرفة تتفاعل مع قاطنها فقط، حاول أن تتواصل معها، لا تجمد عقلك وأطلق سراحه، فالوقت يتسرب من بين يديك.

هتفت في غضبٍ:

- أتواصل مع ماذا أيُها الأحمق؟ هل أتحدث مع جدران مصمتة؟ أهذا هو ما تسعون إليه؟ أن تصيبونني بالخبال.. لقد تورطت في كل هذا دون إرادتي، ولكني لن أستسلم لكم بإرادتي وأواصل هذا الجنون، أنا لست أبي أو جدي و..

وفجأة ارتجت الغرفة بقوة، فصرخ الصوت:

- اللعنة لقد حضر، عليك أن تغادر الغرفة بأسرع ما يمكن، أنت لا تعرف مدى قسوته.. إنه لا يتفاهم ولا يستمع لأعذار.

أصابني خوف مفاجئ من كلماته، فصرخت في هلعٍ وقلبي يخفق بشدة:

- اللعنة.. أنا لست ساحرًا مثل أبي لأشير لباب غير موجود

فيظهر ويفتح، أو مجنونًا لأتحدث مع غرفة فارغة.. ولأريحك لتظهر أيها الباب اللعين، لتظهر الآن.

وأمام عيني المرتاعتين حدث أغرب شيء منذ تورطت في هذه القصة الملعونة!!

فقد ظهر في الغرفة بابان متقابلان، أحدهما أسود عليه نقش عملاق لأنوبيس إله الموت عند قدماء المصريين، ويخرج من أسفله ضوء أحمر ثقيل.

والثاني أبيض بنفس درجة لون الجدران وعليه رسم للتاج الشمسي أو قرص الشمس المجنّح، ويتسلل من خلاله ضوء خافت وكأنه ضوء القمر أو انعكاس له، فلم يثر رهبتي كما فعل الضوء الأحمر الثقيل الذي راح يزداد كثافة، ومعه بدأت الغرفة ترتج بقوة أكبر..

وقفت متحيرًا في منتصف الغرفة وقد تملكني غباء العالمين، وأنا أنقل بصري بين البابين في غير فهمٍ محاولًا الحفاظ على وقفتي ثابتة بصعوبة.

الغرفة تهتز وكأنما يضربها زلزال متصاعد في القوة، وجدرانها تهتز وكأنها ستنطبق فوق رأسي.

أصرخ في هلعٍ:

- ماذا يحدث، ألن توقفوا هذا الجنون؟.

دوى الصوت في عقلي فزعًا:

- لقد حضر.. لقد حضر.. أي أحمق منحوس أنت! لقد آن أوان

أن...

تعثرت وسقطت أرضًا، فلم أسمع نهاية الجملة الأخيرة والغرفة تهتز بشكلٍ أعنف، والضوء الأحمر يزداد كثافة حتى أصبح المشهد كله أمام عيني دمويًا.. فصرخت في غضب:

- أوان ماذا عليك اللعنة؟.

لم يأتني الرد، فتضاعف هلعي وقررت بشكل غريزي أن أبتعد عن الباب الذي يتسرب من أسفله الضوء الأحمر رمز الخطر، وتوجهت بكامل سرعتي نحو الباب الآخر وأنا أسمع صوت خطوات مرعبة تقترب.

وتقترب..

رغبث في النظر خلفي، لكن خوفًا رهيبًا سيطر على كياني وجعلني أهاب حتى النظر.

ومع وقع الخطوات الذي كان يتعالى أكثر وأكثر، رحث أدفع الباب في هلع.

إنها المرة الأولى في حياتي التي أصاب فيها بهذا القدر من الذعر والتوتر، لدرجة أنّ أنفي زكمت من رائحة الأدرينالين الغزيرة التي راحت تتدفق في عروقي، والصوت المستفز يصرخ في هلعٍ:

- اهرب.. اهرب قبل فوات الأوان.

لم يستجب الباب لدفعاتي، فوقفت عاجزًا أمامه لا أعرف ماذا أفعل، فالبابان اللذان ظهرا لي على جانبي الغرفة بلا

مقابض أو رتاج، ولا أعتقد أني قادر على هَشم هذا الباب بضرباتي..

حاولت في ارتباك جذبه بأطراف أصابعي لعله يفتح إلى الداخل، فلم يستجب..

رحتُ أصدمه بكتفي وأركله بقدمي، فلم يتحرك قيد أنملةٍ.

الصوت يصرخ في عقلي:

- إنها غرفتك، كل شيء فيها سيطيعك.. دعك من العنف والعناد.. تواصل معها أيها الأحمق، قوانين الغرفة تختلف عن قوانين عالمك.

وحينئذ لمعت عيناي ببريق الفهم، فأمرت الباب أن يفتح، ولدهشتي استجاب لي وانفتح أمامي على مصراعيه.

وفي اللحظة التي هممت فيها بمغادرة الغرفة التفّت زوائد لزجة سوداء حول ساقي اليسرى، وأخذت تفرز حولها مادة حارقة فسفورية أشعلت الألم في ساقي، وهي تسحبني بإصرار إلى الداخل.

وبدون أن أفكر، سحبت قدمي بقوة في الاتجاه المعاكس وأنا أصرخ من شدة الألم لأحرر نفسي من قبضتها الحارقة، فزادت الزوائد اللزجة من التفافها حول ساقي، وراحت تضغط عليها في ضراوةٍ وكأنها تسعى لبترها.

فلم أجد مناصًا إلا أن ألقي بكامل ثقلي خارج الباب المفتوح، وأنا آمره بأن يغلق خلفي وفي هذه اللحظة

المشؤومة وقع بصري على حارس الغرفة، لتتسع عيناي رعباً، وتحتبس أنفاسي وأسمع الصرخة الرهيبة، والصوت يدوي في رأسي:

- ماذا فعلت أيها التعس؟.

لن يغادر هذا المشهد كوابيسي ما حييت، فلم يكن حارس الغرفة بشريًا أو كائنًا طبيعيًا بأي حال من الأحوال كما كنت أعول عليه.

بل كان الهول ذاته يقف على قدمين.

فمن خرج من خلف الباب الأسود، كان مسخًا شيطانيًا ضخم الجثة، يتجاوز المترين ونصف طولًا ونصفهم عرضًا، وله جسد مفتول العضلات، تعلوه رأس ابن أوى، ويسير على قدمين لكل منهما ثلاثة أصابع ثخينة بينهم زوائد جلدية كالضفادع.

كان ذلك المسخ الرهيب يشبه (أنوبيس) إله الموت عند الفراعنة في كل شيء، عدا قدميه، وتلك الزوائد الأخطبوطية السوداء التي خرجت تتلوى من كتفيه بديلاً عن الذراعين.

مجرد رؤيته أصابتني بالهلع وهزت كل ثوابتي وجعلتني أتساءل عن دخل المصريين القدماء في كل ما يحدث، وحقيقة ما قصّه أبي على مسامعي، فالجنون قد لا يكون هو التفسير الصحيح.

انغلق الباب خلفي بسرعة حاجبًا ذلك المشهد الرهيب،

وممزقًا الزوائد اللزجة التي كانت تلهب ساقي، وسقطت أنا من ارتفاع مترين أو يزيد فوق أرض ترابية خشنة، واصطدمت رأسي صدمة قوية تسببت لي في بعض الدوار.

لم ألتفت لكل هذا وأنا أعتدل جالسًا في مكاني، وأحني جسدي نحو ساقي التي اشتعلت من الألم لأنتزع بكل سرعة تلك الزوائد اللزجة التي التفت حولها وأطرحها أرضًا، وعقلي عاجزٌ عن استيعاب الهول الذي رأيته قبل أن يغلق الباب.

وبلهفةٍ وفزعٍ رحت أفرك يدي بالتراب، لأنفض معه ما عَلق بها من تلك المادة الفسفورية الحارقة، ثم أهلت المزيد من التراب فوق إصابة ساقي، وقمت بفركها بنفس الطريقة، وأنا أجزُّ على أسناني من الألم، حتى زالت تمامًا من على قدمي وسروالي الذي احترق في عدة مواضع.

رائحةٌ كريهةٌ تهب مع النسيم، أتلفتُ حولي في توتر لأعرف مصدرها، فيخطف بصري مشهد تلك الزوائد الممزقة التي توهَّجت في قلب الظلام وهي تتلوى بشكلٍ عنيف، حتى همدت تمامًا. فرحت أتلفتُ حولي في هلعٍ متوقعًا هجومًا غادرًا من صاحبها، ثم انتبهت إلى أن الظلام يحيط بي من كل اتجاه..

كيف مضى الوقت بهذه السرعة؟!.

لو حسبت الوقت الذي أنفقته في تتبع أبي، والذي قضيته في الغرفة، فالساعة لم تتجاوز العاشرة أو الحادية عشر صباحًا!.

فمتى هبط الظلام؟.

هل هي خدعة أخرى من خدع أبي التي لا تنتهي؟.

صوت عواءٍ رهيبٍ يشق الظلام كنذير شؤمٍ، ليزيد من رهبة المكان، أجبرني أن أعود لأتلفت حولي، وكلّي فزع أن يكون صاحب الصوت، هو أنوبيس حارس الغرفة، وقد عاد لينتقم لزوائده المفقودة.

بصري عاجزٌ عن اختراق الظلام بسهولة، أفرك عيني طلبًا لرؤية أوضح، فيرتد إليّ كاسفًا فأرهف سمعي بحثًا عن مطلق العواء، فلن أتحمل مواجهة أخرى وأنا في هذه الحالة، ليعود العواء ليخترق المكان، ويرج كياني رجًا.

حاولت أن أقنع نفسي أن كل ما يحدث مجرد ألعاب ذهنيةٍ، وأن هؤلاء المجهولين يحاولون إخضاعي لتجربةٍ عقليةٍ جهنميةٍ كما حدث مع أبي، ولكن ألم ساقي أعادني لعالم الواقع؛ فالأوهام لا يمكن أن تصيبك بإصابة مماثلة.

وبرغم حيرتي ومشاعر الغضب التي تملكتني، كنت سعيدًا بتحرري؛ فعلى الأقل غادرت تلك الغرفة اللعينة التي كادت أن تصيبني بالجنون، ونجوت من قبضة حارسها أو زوائده لو أردت الدقة، وسأعود لمنزلي.

فقط عليّ الآن أن أتجاهل الألم والرؤية المشوشة، وأتحرك.

وبما تبقى في داخلي من أمل، حثثت نفسي على النهوض ورحت أنفض الغبار عن ثيابي المتسخة، وقررت أن أتحرّك

لأبحث عن طريق المنزل.

غير مصدقٍ أني حرٌ وأتنفس.

***



قمران

ربط عقلي بينهم وبين ذلك المخلوق الرهيب أنوبيس حارس الغرفة، فظهرت الغابة أمام عيني كمسلخ بشري عملاق.

تحركت إلى الأمام.

لماذا؟

لا أعرف..

فعندما يكون الإنسان جاهلًا بما يحيط به والرؤية ضبابية كما هي الآن والاتجاهات غير محددة، فالتحرك إلى الأمام يكون تمامًا مثل التحرك إلى الخلف، وأنا الآن أتعامل بغريزتي فقط؛ فالظلام هنا غريب جدًا، ويؤثر على قدرتي على الرؤية بأسوأ ممّا فعل ضوء الغرفة الساطع.

ظلالٌ باهتةٌ تتراقص أمام عيني وتحيط بالموجودات، وهذا يثير توتري، فبدون الرؤية الواضحة لن أستطيع تحديد طريقي، وسأظل معتمدًا فقط على غريزتي، وهذا ليس جيدًا لو قاموا بتعقبي وحاولوا إعادتي إلى الغرفة.

أفرك عيني للمرة الألف في محاولة لتحسين الرؤية، والتكيف على مدى الإبصار الجديد فلا تستجيب عيناي، وكأنما ألمّ بهما خطبٌ ما عندما صدمت رأسي بعد سقوطي من باب الغرفة المرتفع.

الغريب أن صدمة رأسي لم تكن بالعنف الكافي لتحدث

مثل هذا الأثر العنيف، ولا أذكر أن تلك المادة اللزجة الحارقة أصابت عيني، أو أي شظايا أخرى.. فهل تسرب شيءٌ منها إلى دمائي، وهذا تأثيرها؟ أم هو تأثير الوميض القوي المتكرر؟.

لم أجد إجابة محددة أو حاسمة فقررت تجاهل الأمر مؤقتًا، خاصة وأن عيني لم تلتهب أو تؤلمني أو تتفاقم الأعراض.

صوت العواء المجهول يتردد مجددًا، لتندلع معه شرارة الرعب في أعماقي، وتزيد من وحشتي وحيرتي؛ فأي مخلوق هذا الذي يطلق ذلك العواء الذي يجمد الدماء في العروق؟ وما هذه الرائحة البشعة التي يحملها النسيم إلى أنفي؟.

لا إجابة!.

رفعت عيني صوب السماء لأحاول تحديد موقعي عن طريق النجم القطبي أو كوكبة ذات الكرسي كما كنت أفعل في صغري، بعد أن تعلمتها من أحد كتب الفلك التي استعرتها من مكتبة المدرسة في فترة المعسكر الصيفي، ثم أطلقت سبةً بذيئةً أخرجت فيها توتري؛ وأعلنت فيها اعتراضي.

فالغيوم الداكنة تراكمت في السماء حتى حجبت كل أثر لضياء النجوم ونور القمر، فظهرت قبّتها كسقفٍ معتمٍ لا حياة فيه، وإن ظلّ في الأفق شعاع ضوءٍ باهتٍ يشعُّ من مكانٍ مجهولٍ أثار المزيد من مخاوفي.

وأثناء سيري البطيء المرتبك على الأرض الوعرة التي ألقتني إليها الغرفة، رحت أحثُّ نفسي على الاستمرار، لأبثَّ المزيد من القوة والعزم في عروقي؛ فلم أكن أرغب في

الاستسلام بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة، إلا أن الظلام غير المريح والضوء الشحيح الذي لا يساعد على الرؤية، وألم ساقي أحبطوا من سعيي.

وبذهنٍ مثقلٍ، أكملت طريقي وأنا أجرُّ ساقي المصابة فوق الأرض الوعرة.

ومع انحسار حدّة الألم بشكلٍ ملحوظٍ، بدأ عقلي يصفو ويهدأ، لتتضح الرؤية تدريجيًا.. وببعض التركيز أدركت أن كل الموجودات من حولي تشعُّ بضوئها الخاص، الحصى والصخور والنباتات القليلة المتناثرة هنا وهناك.

المشكلة إذن لم تكن في عيني أو في عقلي كما توهمت، بل تنحصر في هذا المكان المشؤوم ذاته وإضاءته الغير معتادة.

وأنا فقط من تعجلت في الحكم على حالتي، وكل ما كنت أحتاجه هو الصبر لبعض الوقت، لتتكيف عيناي عليها وتتضح الرؤية بشكل أفضل.

ومع المزيد من التركيز بدأت تظهر لي تفاصيل المكان، لتتصاعد صدمتي؛ فالمكان من حولي لا يشبه أي مكان آخر أعرفه وكأني لم أغادر المخزن والمنطقة المحيطة به فقط، بل غادرت القاهرة كلها إلى منطقة مجهولة ذات طبيعة وعرة لا أثر للحياة فيها إلا بعض النباتات الشوكية والصخور التي تشع هذا الضوء الباهت.

فأي مكان لعين هذا الذي ألقتني إليه الغرفة؟.

وعندما تقدمت عدة أمتار إضافية، وانعطفت مع الطريق محاولًا عدم التعثر بسبب وعورة الأرض وإصابة قدمي، هبّت الريح على وجهي محملةً بأخبث وأشنع رائحة يمكن أن أشمها في حياتي على الإطلاق، وكأنني مع انعطافي توجهت إلى مقبرة جماعية حديثة أو أكبر حفرة صرف مكشوفة يتم من خلالها التخلص من كل خبائث الأرض.

أصابتني الرائحة غير المحتملة بغثيانٍ رهيب، فتقيأت كل ما في أحشائي من فرط الاشمئزاز، لأشعر بطعم العفن في فمي، فطفقت أبصق وأسعل، ليقع بصري على أبشع مشهد يمكن أن يراه إنسان في الوجود.

مشهد لن يفارق كوابيسي ما حييت، برغم منظور الرؤية المرهق، فالغرفة ألقتني فوق تلة مرتفعة تغطي قمتها بالكامل غابة كثيفة ذات أشجار سوداء لا فروع لها ولا أوراق، معلقٌ على جذوعها العشرات من جثث القتلى المطعونة، والممزقة، والمبقورة البطن، والمخترقة بالسهام والحراب التي يحيط بها وهجًا ضبابيًا يمنحها سمتًا شبحيًا مروعًا.

وملقى حولها في عشوائية مجموعة من الهياكل العظمية المهشمة، وأذرع وسيقان ورؤوس مشوهة تتوهج بضوء خافت جدًا يكاد لا يُرى، ولا تعرف لأي جثة تنتمي من كثرتها، وكأننا عدنا بالزمن إلى العصور الوسطى المظلمة بكامل بشاعتها وهمجيتها.

أما المخيف أكثر، فهو أسرابُ الذباب الأزرق العملاق

المتوهّج آكل اللحوم الذي انتشر في كل مكان وراح يطنُّ بلا هوادة، وهو لا يتوقف عن نهش الجثث بأنيابه ليشوهها أكثر، وكأنه في سباقٍ زمني رهيبٍ مع جحافل الفئران ذات العيون الحمراء النارية التي لم تترك نصيبها من هذه الوليمة، وراحت تُمزق الجثث بأنيابها ومخالبها لتزيد المشهد بشاعة.

أدرت عيني غير مصدق الهول الذي أراه أمامي، وأنا أجاهد محاولًا كتم أنفاسي، فتلك الرائحة الشنيعة الناجمة عن عشرات الجثث التي دخلت في أطوار مختلفة من التعفن والتحلل، كانت تتزايد مع مرور الوقت وتشوش وعيي وتركيزي، بل وتكاد تزهق روحي.

وبكل فزع وتوتر الدنيا، وبعيون مجهدة من غياب الضوء الطبيعي رحت أبحث حولي عن مكان أحتمي به بدلًا من مكاني المكشوف هذا؛ خوفًا من أن تنجذب تلك الضواري إلى رائحتي وتطاردني.

فبكلّ تأكيد، اللحم الطازج أشهى من تلك الجيف التي ينهشونها، وأنا ببنيتي هذه أمثل وليمة ضخمة.

أفرك عيني محاولًا الاعتياد على تلك الدرجة المجهدة من الرؤية، فلا يتبدل شيء.

تقيأت مرة أخرى، فلم أعتد على تلك الرائحة القاتلة بعد، وبدون إرادة عادت عيني لتسقط على الأشجار، لتسري في جسدي قشعريرة باردة.

وفي ذعرٍ رحت أتساءل عن أصحاب هذه الجثث الممزقة،

وعما فعلوه لينالوا هذا المصير المروع؟.

وعن الذين مثّلوا بجثث الموتى بمثل هذه الطريقة البشعة، وكأنهم يرغبون في توصيل رسالة دموية ما.

وربطَ عقلي بينهم وبين (أنوبيس) حارس الغرفة الرهيب، فظهرت الغابة أمام عيني كمسلخ بشري عملاق.

وكأنما أصابني تيارٌ كهربي عنيف رحت أرتجف، وأنا أفكر أن هذا هو مصيري في النهاية، مجرد جثة ممزقة ومعلقة على أحد جذوع الأشجار، يلتهمها الذباب آكل اللحوم أو الفئران التي توحشت لدرجة أنها كانت تهاجم بعضها البعض في شراسة.

وكأن الأمور السيئة، تنتظر أن نفكر فيها لتحدث؛ توقف طنين الذباب الأزرق المدمر للأعصاب بغتة، قبل أن يعود بشكل أكثر حدة ليتحول المكان لجحيم من الأصوات، بعد أن اختلط الطنين بصوت صرير الفئران التي أثارها هدير الحشرات المرتفع، فهربت إلى جحورها.

ثم راح الذباب المتوحش يتجمع في مكان واحد، ويصنع ما يشبه سحابة دخانية زرقاء كثيفة.

تابعت بقلبٍ واجفٍ سحابة الموت الوحشية الزرقاء التي راحت تتوهج وتزداد حجمًا في سماء المكان، بينما الأصوات تسحق تماسكي العصبي، وأنا أمسح المكان ببصري بحثًا عن مأوى أحتمي فيه من بطشها، والهواء يزداد ثقلًا في كل لحظة، والرائحة الخانقة تكاد تفقدني وعيي.

كنت في أسوأ حال، غير مصدقٍ ما أوصلتني إليه حماقتي، وأنا أتراجع إلى الخلف مبتعدًا عن الغابة المخيفة، مصدر الرائحة والموت.

تعثرت مرتين، لأني لم أجرؤ على منح الغابة ظهري أثناء فراري، كي أتجنب أي حركة غادرة من ألف عدوٍ مجهول.

المكان يزداد وعورة كلما ابتعدت عن الغابة.

ألمح سحابة الحشرات الزرقاء تتوتر.

قلبي ينقبض، فالموت يكشّر لي عن أنيابه بأبشع الوسائل.

مشهد الغابة الرهيب والجثث الممزقة يحتلُّ خلفية الرؤية بالكامل، ويشوش ذهني.

أتابع السحابة القاتلة وهي تقترب من مكاني.

لا مفر من أن أزيد سرعتي.

كم كان أبي واهمًا عندما ظن أني سأصمد في هذا المكان لسنوات، ومن الواضح أنني لن أصمد لعشر دقائق أخرى، والذباب المتوحش سيحظى بوليمته البشرية الغنية باللحم.

أستدير مجبرًا لأركض بكامل طاقتي، والطنين يتبعني كرسول الموت.

لن أنظر خلفي...

لن أنظر خلفي..

لن أنظر خلفي.. لو نظرت سأتعثّر وستكون هذه هي النهاية، ما زال بداخلي أملٌ بسيط أني سأنجو..

صحيح أني لا أعرف كيف أواجه جحافل الذباب المتوحشة وأنيابها الحادة، ولكني لن أفقد الأمل.

يقطع تفكيري صوتٌ غليظٌ يصرخ بلغةٍ غريبةٍ، ولكني أفهمها:

- لابد من إنقاذه.. كل شيء سينتهي لو مات.. إنه المبعوث الجديد.

الطنين يقترب بشكل مروع!

ثوان قليلة، وما سيتبقى مني لن يكفي ليتعرف عليه أحد.

الطنين يقترب أكثر.. وأكثر.

وبشكل لا إرادي أو هي غريزة النجاة توجّهت صوب مصدر الصوت برغم فزعي، وكوني أحمل إليه ومن يحدثه الموت، فهو مهتم بإنقاذي، وربما لديه الخبرة أو الوسيلة لدحر هجوم الذباب المفترس.

صوت العواء يتردد ليشترك في سيمفونية الموت الصاخبة، وليزيد من إحباطي.

قدماي الجاهلتان تدهسان أجسادًا طرية تختبئ في إحدى الحفر، فأتعثر وأسقط أرضًا، فتقيمني العديد من الأيادي الخشنة، أرفع رأسي نحو أصحابها، فأرى الوجوه الملطخة بالطين، تتلاقى النظرات الفزعة، فانتفض في مكاني كمن

لسعه عقرب، وأنهض راكضًا لأفرّ بحياتي، وقد انقلبت شفقتي لرعبٍ عاتٍ؛ فكيف يكونوا بشرًا بتلك الأعين الصفراء التي يتوسطها بؤبؤًا أحمر..

هل ألقتني الغرفة إلى عالم الجن؟.

أم أنهم الزواحف التي حذّرني أبي منهما؟.

ما أعرفه أن عيون الزواحف مشقوقةٌ طوليًا، فمن هؤلاء، وأين أنا؟.

الطنين يختلط بصرخات عنيفةٍ وصوت تمزيقٍ مرعب، وأحد أصحاب العيون المشقوقة يصرخ من الصدمة والألم بنفس اللغة العجيبة:

- آن أوان التضحية.

صوت آخر أقل غلظة يصرخ في هلعٍ:

- وطفلي، وزوجتي؟.

يجيبه بذعر:

- إنه الأمل الأخير.. مِت ليحيا طفلك وزوجتك في عالم آمن.

ولم تمضِ لحظات، حتى تحولت الصرخات إلى أنينٍ يمزق نياط القلوب، وصوت الطنين إلى صوت تمزيقٍ ومضغٍ بشعٍ، ومع ركضي المحموم خفتت حدة الأصوات، وأغرقت وجهي الدموع، وانطلق صوتٌ متألمٌ يرجُّ فضاء المكان:

- لا تتوقف عن الركض.. لا تجعل تضحياتنا تضيع هباءً.

اجتاحني رعبٌ عارمٌ، وأنا أركض باكيًا عكس اتجاه الأصوات إلى أن انقطع نفسي، غير مصدقٍ أني أفلت من بين أنياب الموت هذه المرة أيضًا، ولا أن أصحاب العيون الصفراء ألقوا أنفسهم في شجاعة أو حماقة منقطعة النظير في مسار سحابة الذباب القاتلة، ليفدوني بحياتهم.

لم أشعر بأي سعادة، فصحيح أني نجوت، ولكن بأي ثمن؟!.

ولم أحاول أن أسوق لنفسي مبررات، فمنذ تورطت مع أبي وأنا أقترف أخطاء فادحة.

إنني لعنة تسير على قدمين.

لعنة رأى فيها أصحاب الأعين الصفراء الأمل.. فأي عبث هذا؟!.

وبكل يأس جففت دموعي، وأنا أواصل كتمان أنفاسي لأقلل من تأثير تلك الرائحة الكريهة التي تتسرب إلى روحي كغازٍ سامٍ، وتفعل بها كل ما يفعله الغاز السام.

الظلام مزعج وثقيل.

وإشعاع الموجودات لا يمنح أفضلية أو إحساسًا بالأمان.

كل شيء مُقبض في هذا المكان، ويوحي بنهاية حتمية وقريبة.

العواء يتردد دون هوادة، ليخبرني أن جعبة الموت لم تنته،

وما زال هناك المزيد من طرق الموت البشعة.

«اللعنة أي جحيم هذا».

انتابني إحساس ثقيل بالحيرة والضياع، فتحركت في المكان بحذرٍ وأنا أكتم أنفاسي، وعندما لمحت على البعد ما يشبه منحدرًا هابطًا يقود إلى أسفل التلة التي تحتضن الغابة المشؤومة، توجهت إليه دون تفكير، رأسي يدور من الرائحة التي تكاد تطيح بعقلي.

ساقي تؤلمني، ولكنني أحمّل عليها أكثر كي أغادر هذا المستنقع الكريه في أسرع وقت.

تعثرت ثلاث مرات قبل أن أخفف من سرعة اندفاعي، بعد أن وصلت لأرض مستوية أقل وعورة.

وفي النهاية قادتني قدماي إلى مرجٍ واسعٍ تتناثر فيه الأشجار والأزهار المتوهجة وسط الظلام، في مشهد يحبس الأنفاس.

وفي جشعٍ رحت أعبُّ عبًا من الهواء البارد النقي، الذي بدأ يمحو من أنفي رويدًا رويدًا رائحة الموت والعفن، وقلبي ينبض بعنف.

وبلا أي مشاعر رحت أتفحص المرج الفسيح، متوقعًا أن يخرج من بين أشجاره هؤلاء الجزارون الذين زينوا أشجار الغابة بالجثث ليفتكوا بي أنا شخصيًا، ثم نظرت إلى السماء خوفًا من أن يكون الذباب القاتل قد تبعني إلى هنا

فاصطدمت عيناي بمنظر الغيوم المقبض.

ومن أعماقي تمنّيت أن تنقشع، وأن يكون كل هذا كابوسًا ثقيلًا.

وعندما مرّ الوقت ولم يظهر الذباب المفترس أو أي من هؤلاء القتلة المزعومين، ألقيت بنفسي فوق بساط العشب الندي المتوهج، وأغمضت عيني، ورحت أتنفس بعمقٍ محاولًا تنظيم أنفاسي، والبحث عن بعض السكينة دون جدوى، فعقلي راح يعمل كمفاعل نووي جبار تتوالد بداخله الأفكار حتى كاد أن يحترق.

الظلام يطبق على روحي.

صوت العواء يتردّد كصدى صوتٍ بعيدٍ.

ساقي تنبض من الألم.

صورة (ندى) الحزينة تحتل كامل ذهني.

صوتٌ واهنٌ يحذر:

- لا تنام.. ليس هنا.

وبلا مقدمات غفوت والنسيم العليل يعبث بشعري دون أن أشعر.

كم غفوت؟ لا أدري! ففجأة استيقظت، بعد أن نمت نومًا عميقًا، لم أحظ به منذ عودة أبي المشؤومة، نوم لم يحن موعده بعد.. فإن كنت تحررت من أسر الغرفة الملعونة، فما

زلت أسيرًا في هذا الجحيم، وعلى مرمى دقائق من موقعي، تنتصب غابة من الجثث.

لُمت نفسي على الغفوة، ثم تنبهت إلى أنّها كانت حيلةً دفاعيةً ناجحةً من عقلي، فقد كنت على وشك الإصابة بانهيارٍ عصبي تام، والغفوة وقتني من السقوط في هذه الهوة السحيقة.

لقد حذّرني الصوت، ولكن متأخر جدًا.

حمدت الله أنني لم أفقد أكثر من بعض الوقت الذي استعدت به هدوء أعصابي، وأرحت به بدني، ثم فتحت عيني متوقعًا أن يصدمني ظلام السماء، وتوهج الموجودات، ومنظور الرؤية غير المريح، لأحظى بأغرب مفاجأة في هذه الليلة المشؤومة.

فسماء المكان التي انقشعت عنها الغيوم أخيرًا، كانت صافية، والأشجار والعشب الأخضر والأزهار الملونة يمتدان إلى نهاية الأفق، والمكان كله يضيئه قمران متجاوران يحيلانه إلى نهار.

سرت في جسدي رعدةٌ، وأنا أعاود النظر إلى السماء محاولًا كشف الخدعة الجديدة وراء وجود هذين القمرين اللذين يضيئان قبتها بشدة.

ولكن كل شيء كان يبدو حقيقيًا بشكلٍ مخيف.

فلا أحد يمكن أن يصنع خدعةً بصريةً بحجم كوكبٍ كاملٍ،

وبهذا الإتقان والإحكام.

دقّ قلبي في هلع، عندما تنبهت إلى ما يعنيه هذا!

فهذان القمران يخبراني بشيءٍ واحد مرعب.

أنني لست في عالمي!

ففي عالمي قمرٌ واحد، وليله مظلمٌ.

وهنا الوضع مختلف تمامًا.

هنا قمران، وليل منير كما النهار.

فأين أنا؟

أين أنا؟

***

حاصدة الأرواح

إنَّ بها لمسةً سحريةً غامضةً

لمسة من عالم آخر.

ومع عجز عقلي التّام عن إيجاد أي تفسيرٍ مقنعٍ لوجود القمر الثاني في السماء، والليل الذي انقلب إلى نهار، شعرت بخوفٍ خفي يتسلل إلى روحي، وأيقنت بكل يأسٍ، أن جميع الطرق باتت مغلقة أمامي، فهتفت في ضيقٍ ممتزج بالكثير من الخوف:

- أي جحيم ألقيتني فيه يا أبي، وما هذا المكان المروع ؟.

ودون مقدمات جاءتني الإجابة على هيئة صوتٍ أنثويٍ صاخبٍ، جعلني أجفل وأقفز من مكاني متحفزًا متهيبًا، لأواجه صاحبته الفاتنة التي ظهرت أمامي من العدم كحلمٍ متجسدٍ، وقالت بكل جشع وبلغة تختلف تمامًا عن لغة ذوي الأعين الصفراء، وفهمتها أيضًا ببساطة:

- أنت هنا في جحيمي الخاص.

لم تكن إجابتها أغرب من هيئتها؛ فأمامي وفوق بساط العشب الممتد إلى مدى البصر، وتحت القمرين المنيرين اللذين يصنعان معا لوحة سريالية خلابة، وقفت فتاةٌ ساحرة الملامح متفجرة الأنوثة، في العشرين من عمرها أو يزيد قليلًا، تقبض بيدها على قوسٍ أسود كبيرٍ، له وترٌ مشدودٌ، وعلى ظهرها جعبة من السهام ذات النهايات الملونة، وترتدي

حلةً من الجلد الأسود المدبوغ، وسروالًا مثيرًا من اللون نفسه، وتقف وكأنها القمر الثالث لهذا العالم.

تأملت شعرها القصير الثائر الذي جعلها أكثر نزقًا، وشردت مع ملامحها الدقيقة الحادة التي تزيدها جاذبية، وعيناها الساحرتان العميقتان، غير مصدق أن هذا الجمال الفتّان يمكن أن يوجد في مثل هذا الجحيم.

كانت نموذجًا نادرًا للجمال والأنوثة والغواية.

وكالمسحور رُحت ألتهمها بعيني، وقد سقطت أمام جمالها الخلّاب كل دفاعاتي، وسألتها بتعجب بنفس اللغة التي اكتشفت أني أجيدها:

- وهل تأتي الملائكة إلى الجحيم؟.

تفرست في ملامحي بجزلٍ، وقالت في شبقٍ:

- بل هنا يأتي الحمقى فقط.

سحرتني فتنتها المجسدة فتجاهلت ردها المستفز، وغرقت في بحر أنوثتها ناسيًا أو متناسيًا موقفي المعقد واهمًا نفسي أنه بعد أن يذوب جدار الجليد بيننا ستتحسن لغة الحوار، فدائمًا البدايات ما تكون متوترة.

ولاحظت أن مزاجي الذي تعكّر من كثرة ما يحيط بي من موت وألغاز قد صفا قليلًا، فتذكرت مقولة أحد زبائن المقهى العجائز عندما مرت إحدى الفاتنات أمام المقهى ساحبة خلفها الهواء والانتباه والأحلام، وحدث بسببها لغط وجدال

شديدان:

- إن امرأة واحدة تكفي لتغير مزاج مئات الرجال، إنّ لمستهن الدافئة أعظم من كيدهن بكثير.

شردث بعض الوقت مع أفكاري الجامحة وعيناي تلتهمنها التهامًا، فوجدتها تتفحصني بنظرة نخاس يشترى أحد العبيد من السوق، ثم ثبتت نظراتها عند قدمي المصابة وبدت على ملامحها الفاتنة أثار تفكيرٍ عميقٍ.

وبعد لحظات، لمعت عيناها وهزت رأسها أن لا بأس.

وفي نفس اللحظة، دوى الصوت الغامض بداخل عقلي صارخًا ليؤجج قلقي ومخاوفي منها:

- ابتعد عنها أيها الأحمق، إنها..

وقبل أن يكمل عبارته الأخيرة أو تحذيره، تشوش الصوت في سابقة هي الأولى من نوعها، لكن وصلتني الرسالة كاملة.

صحيح أن لهجتها وهيئتها الخارجية لا غبار عليهما، لكن هذا أدعى لإثارة الريبة والشكوك، فلا جمال بشري بهذا الكمال، إن بها لمسةً سحريةً غامضةً، لمسة مخيفة من عالم آخر.

وأنا أشبه الغريق الأحمق الذي رأى عود قش فتعلق به وأيقن بالنجاة.

عود قش متفجر الأنوثة، ويربك كل أحكامي وقراراتي.

عود قيثٍ بدأ يشككني في حقيقة مشاعري تجاه (ندى) التي لو رأت قوة إرادتي، لمزقت عنقي بأسنانها.

وعندما هممت بالحديث معها لإذابة الجليد، رأيتها تسحب أحد السهام من جعبتها وتضعه في القوس، وتستدير بسرعة وتطلقه نحو شخصٍ عملاق له شعر أحمر يرتدي زيًا مموهًا، اندفع من خلفها ليهاجمها برمحٍ بدائي وهو يصرخ بكل قوته:

- اهرب أيها الأحمق، ستفسد ..

ولم يستطع أن يكمل عبارته لأن السهم نشب في عنقه، فأوقف تقدمه وأخرس لسانه، ليسقط أرضًا وهو يطلق خوارًا مكتومًا حتى فارقته الروح، ليتغير لون بشرته إلى اللون الأزرق ويستحيل شعره أرجوانيًا، لأتخشب في مكاني عاجزًا عن القيام بأي رد فعل من الصدمات المتتالية.

أما ما أثار الرجفة في عروقي وأخبرني أني لم أر الأسوأ بعد، فهو تصاعد عمود دخانٍ أسود داكن من فم الجثة الزرقاء، لتمتصه تلك السفاحة في جشع وتحبسه في أعماقها، وهي تطلق ذلك العواء الرهيب الذي بعثر كل ذرة شجاعة من أعماقي.

لم أستوعب الهول الذي رأيته، وتذكرت ذلك الطيف الدخاني المخيف الذي كان يطاردني وإن عجز عقلي عن الربط بينهما، فهل الأرواح في حقيقتها دخانية سوداء، أم أنها تتحول لهذه الهيئة في هذا العالم الكابوسي؟

وفي لحظة تبخرت كل مشاعري نحوها وسكن مكانها

الخوف، وأنا أبدل نظري بين الجثة الزرقاء الغارقة في دمائها، وتلك المتوحشة حاملة السهام التي تمطت وبرزت أنيابها الحادة كهرةٍ منتشية، وهي تقول في شراسة:

- حان دورك.

هتفت في روعٍ:

- دوري لأي شيء أيتها المخبولة، من تظنين نفسك؟

هزّت رأسها بطريقتها الفاتنة، وهي تقول بنفس البساطة:

- لأقوم بصيدك؟.

ثم صمتت لحظة وابتسمت، واستطردت في صرامةٍ:

- أنا حاصدة الأرواح.

وللحظة شعرت بأن كل حواسي شلّت، وبأنني بقلب كابوسٍ مخيف، فأنا أخرج من فخٍ لأقع في فخٍ أسوأ منه؛ فلم تمض على مواجهتي لحارس الغرفة وحشرات الغابة المتوحشة سوى فترة قصيرة حتى أواجه تلك المتوحشة حاصدة الأرواح.

والمثير للسخرية أنني كدت أسقط صريعًا لجمالها وأنوثتها المتفجرة الخادعة.

رأيتها تسحب سهمًا جديدًا من جعبتها ببطءٍ مستفز وتضعه بكل مهارة في القوس، وتوجهه نحوي بكل هدوء، فسرى الأدرينالين في عروقي وأحسست بعضلاتي تنقبض، وأنا

أصرخ في هلعٍ:

- هل تعتقدين أني لقمة سائغة أيتها اللعينة، أقسم أنك لو لم تتوقفي عن عبثك هذا أن أهشم رأسك بضربةٍ واحدةٍ.

جذبت السهم إلى آخر مدى سمح به القوس، وقالت في حماسٍ:

- نعم هذه هي الروح التي أرغب في رؤيتها، لا تجعل الأمر مملًا أيُها الضخم.

رأيت الإصرار في نظراتها والجدية في حديثها، فتضاعف خوفي وقلت في تهورٍ وحماقةٍ:

- لا تعتقدي أن سهامك هذه تخيفني.

لمعت عيناها في جذل وهي تصوب سهمها نحو نقطةٍ محددةٍ من جسدي، وقالت في وحشيةٍ وصرامةٍ:

- سهامي هذه لا تخيف، تقتل فقط، هيا كُف عن حديثك الممل هذا ولا تقف أمامي كالتمثال، تحرك.. أركض.. قاوم.. امنحني بعض الإثارة، أحتاج لهضم وجبتي الثقيلة، ومن ناحيتي سأغض عنك الطرف لعشر دقات قلب وبعدها..

لم تكن بحاجة لتكمل جملتها، فذكرى السهم الذي اخترق عنق الرجل أحمر الشعر، وروحه وهي تنسحب لجسد هذه الشيطانة، لم يمض عليها وقت طويل..

شردت لبضع لحظات وأنا أفكر في خطوتها التالية، فسمعتها تقول في عبث:

- تيك.. توك، ستة، خمسة، أربعة..

هتفت في اضطراب:

- اللعنة لقد أضعت الوقت..

وبكل سرعتي اندفعت أركض في خطوطٍ متعرجة نحو أيكة الأشجار القريبة وقدمي المصابة تئن من الألم، وقبل أن أبتعد بمسافةٍ كافيةٍ سمعت صوت السهم القاتل وهو يمرق بجوار أذني، وهي تهتف في سعادة:

- مرحى، عليك أن تبذل المزيد من الجهد، فسهمي التالي لن يخطئك.. لا تجعل الأمر سهلًا وينتهي بسرعة، لقد أصبحت الطرائد واهنة هذه الأيام.

وهنا أدركت أنها لم تخطئ إصابتي بسهمها الأول، بل كانت تعابثني فقط، مثل القط الذي يحب دومًا أن يمنح الفأر اعتقادًا قويًا بأنه قد أفلت، ثم ينقض عليه في اللحظة الأخيرة..

والآن عليّ أن أركض أسرع وبشكل متعرج كي أصل لأيكة الأشجار وأضللها.

عقلي يحترق من الأفكار والإنكار، فها أنا قاب قوسين أو أدنى من الموت، بعد عدة ساعات فقط من خروجي من تلك الغرفة المشؤومة، فكيف صمد أبي طوال هذه السنوات؟.

السهم الثاني لم يصبني إصابة قاتلة، بل مزق كُم قميصي وجرح ذراعي وأدماها، ثم رشق في أحد الأشجار.

صوتها الصاخب يخبرني أنها ما زالت تمارس عبثها.

ولذلك رحت أركض صوب صفِّ الأعشاب الطويلة التي تسبق الأيكة، وأنا أعد في رأسي خطة مرتجلة سأقوم بتنفيذها ما أن أصل إليها، لأنني على يقينٍ تامٍ من أن تلك اللعينة لن تسمح لي بالوصول إليها أو الاختباء منها.

صفُّ الأعشاب يقترب..

والخوف يدفع الغدة فوق الكظرية لتضخ المزيد من الأدرينالين في عروقي.

وجهي (ندى) وأمي يحتلان كامل مساحات ذهني، وكأنني أصحبهما معي في رحلتي الأخيرة نحو الموت..

قدمي تئن..

أركز عيني على نقطة بعينها، ثم أهتف مشجعًا نفسي:

- الآن.

وفي اللحظة التالية ألقيت نفسي أرضًا، وتدحرجت حتى واريت جسدي خلف صف الأعشاب الطويلة، ليمرق السهم القاتل من فوق رأسي، لأسمعها تسب بغضبٍ حقيقي هذه المرة.

لأنهض بسرعة قبل أن تعيد تلقيم قوسها، وتحكم تصويبه، وتصيبني إصابة قاتلة، وأندفع نحو جذع الشجرة العملاقة التي حددتها كخطوة ثانية من خطتي، وأخفي جسدي

بالكامل خلفها، لينشب السهم القاتل في جذعها بفارق نصف ثانية، لأنجو هذه المرة أيضًا بمعجزة.

وقفتُ خلف جذع الشجرة ألهث، وألم ساقي يصفع رأسي، وأنا مستاءٌ من كوني أهرب منها كفريسة تتملص بصعوبة من بين يدي الصياد، فتلك اللعينة لن تتوقف عن مطاردتي حتى تمتص روحي، أو تنهش لحمي بأنيابها.

حمدتُ الله على نجاتي حتى هذه اللحظة، ودعوته أن ينجيني من كيد هذه الدموية، عندما سمعت صوتها المستفز يقول بكل إثارة:

- يبدو أنني لم أقدرك حق قدرك أيها الضخم، أنت فقط تؤخر المحتوم، لكن صدقني، السهم القادم هو الحاسم.

لمحتها تقترب من موقعي بخطواتها الهادئة الواثقة وعلى وجهها نظرة تصميم، وسهمها مشرع باتجاهي يحمل الموت في مقدمته الحادة، فارتجفت رغمًا عني.

إنها على يقين تام بكوني أعزل لا أملك أي سلاحٍ لردعها، ولا أمثل لها أي خطورة حقيقية، وأني مهما واصلت الهرب سأسقط في النهاية في قبضتها.

وأنا لم أكن لأقبل بهذه النهاية حتى لو كانت فرص نجاتي تقترب من الصفر، وما دام هناك نفس يتردد في صدري فما زال هناك أمل، وكل شيء قد ينقلب في لحظة واحدة كما انقلبت حياتي ووجدت نفسي في هذا الموقف العصيب.

إنني أتفوق عليها جسديا بعضلاتي المفتولة وبخبرتي في قتال الشوارع، وهي تتفوق عليّ بالسلاح القاتل الذي تحمله، وعليّ أن أوازن الدفة وأحصل على سلاحٍ بأي شكل من الأشكال.

وهنا لم يكن أمامي إلا الأشجار التي كانت المصدر الأساسي لكل سلاح بدائي اخترعه الإنسان.

وما أن جاءت الفكرة إلى رأسي حتى وضعتها موضع التنفيذ، وقفزت إلى أعلى نحو أقرب الفروع، وحملت عليه بكل ثقلي فهوى ليتهشم، فرفعته بسرعة وشرعت في انتزاع الفروع الصغيرة الملتصقة به، وأنا أتابع من مكمني اقترابها الواثق محاذرًا أن ينكشف لها أي جزء من أجزاء جسدي كي لا توجه نحوه سهمها القاتل، وتجهض سعيي المبكر للنجاة.

انتهيت من انتزاع آخر الفروع، وأصبح بين يدي هراوة بدائية كافية لهشم رأسها في جزء من الثانية.

وهنا يظهر الفرق الشاسع بين سلاحها وسلاحي!

فسلاحها قادرٌ على اقتناصي عن بعد، بينما سلاحي عاجز عن هذا، ويحتاج أن أقترب منها لمدى مناسب، وهي مخاطرة غير مأمونة العواقب مع مهارتها التي لا يمكن انكارها، لكنها رفعت نسبة نجاتي قليلًا.

وجود الهراوة الخشبية في يدي منحني بعض الثقة، وإن راح قلبي ينبض في عنف والعرق يغمر وجهي، وأنا أهيئ نفسي لأهشم رأسها في أقرب فرصة.

ستكون أول عملية قتل أقوم بها في حياتي عن عمد، ولكنها لم تترك لي أي خيار آخر.

وفجأة ساد الصمت ولم أعد أسمع صوت خطواتها.

لقد توقفت تلك اللعينة عن الحركة.

وربما كتمت أنفاسها أيضًا.

فهل ملّت أخيرًا من اللعبة وقررت أن تنهيها بشكل أسرع، ولهذا تستخدم سياسة الصمت في محاولة منها لاستفزازي وإثارة فضولي ومخاوفي لأخرج رأسي محاولًا استكشاف ما يحدث لتستهدفها بسهمها القاتل.

جززت على أسناني من الغيظ، وأنا أهمس:

- هيهات أيتها اللعينة، أنا لست بهذه الحماقة، كما أني لم أعتد خسارة معاركي حتى لو تورطت فيها، وسأثأر لدم الرجل المراق.

وبكل عنادٍ قبضت على فرع الشجرة القوي، وتلفت حولي في حذرٍ متفحصًا الأيكة وأشجارها.

لألمح بالقرب مني شجرة أكثر كثافة في الأوراق، وجذعها أكثر ضخامة من تلك التي أتوارى خلفها، وستمنحني أفضلية في الحركة والمواجهة الحتمية القريبة.

وبكل هدوءٍ وحذرٍ تهيأت لأبدل مكاني خلفها، وعندما تأكدت من جاهزيتي، اندفعت قافزًا خلف الشجرة الضخمة،

لأسمع صوت صفير السهم وهو يخترق جذع الشجرة الجديدة وصوتها الغاضب يهدر قائلًا:

- إن الحظ حليفك هذه المرة أيضًا، لا تعتمد على هذا كثيرًا أيها الضخم و..

وشوش على صوتها صوت أنثوي آخر أقل حدة أتى من فوق الشجرة التي أختبئ وراءها، وهي تهمس بنفس لغة تلك المتوحشة قائلة:

- استفزها لتقترب أكثر.

نظرت في هلعٍ إلى أعلى، فوجدت بين فروع الشجرة الكثيفة فتاة أخرى، في السابعة عشر من عمرها أو أقل، دقيقة الملامح، فيروزية العينين، لها نظرات قاسية، تدهن وجهها بدهان مقارب للون الأشجار، وترتدي ثيابًا مموهة - مثل التي كان يرتديها الرجل الضخم أحمر الشعر- تخفيها تمامًا بين الفروع، ولولا أنها حدثتني لما رأيتها أو انتبهت لها، والمفزع أنها كانت تحمل في يدها ما يشبه منجل الحصاد الحاد.

مجرد رؤيتها وسماع صوتها، بخرًا كل ما تبقى في عروقي من شجاعة فتخاذلت قدماي وهبطت على ركبتاي المرتجفتين وأنا أنظر نحوها في ضراعة، فأكملت بصوت هامس:

- أنا في صفك لا تخف.. لقد ضحى زميلي بحياته لينقذك، دعنا لا نضيع هذه التضحية هباء.

صدمتني الكلمات وأثارت في عقلي التساؤلات، فمن يعرف بوجودي في هذا العالم العجيب، وما أهميتي لكل من فيه ليفدوني تباعًا بحياتهم؟.

ولأنه لم يكن هناك وقت الحصول على إجابات، همست بكل لهفة:

- ساعديني..

أشارت لي أن أصمت، وهي تتسلل إلى شجرة مجاورة كالشبح دون أن تصدر أدنى صوت يكشف وجودها، وتوارت بين فروعها كحرباء ماهرة.

كان الأمر أكبر من تحملي، فلا أعرف بمن أثق، ولا مصيري خلال الدقائق التالية.

وبكل تهور، قفزت خلف شجرة ثالثة لينشب السهم في عضلة كتفي ويخترقها بشكلٍ مؤلِم، لأسقط على ظهري صارخًا، لتقترب مني تلك المتوحشة حاصدة الأرواح بسرعة وتضع سهمًا قاتلًا في وجهي وهي تقول في وحشية:

- كانت مغامرة سريعة، لكنها كانت ممتعة، وداعًا أيها الضخم.

وهنا رددت الشهادة..

وانتظرت الموت.

***

المفتاح

إن لم تكوني من البشر، أو من هذا الجنس الوحشي،

فمن أي جنسٍ أنتِ؟

وقبل أن ينغرس سهمها القاتل في وجهي منهيًا حياتي بفارق ثانيةٍ واحدةٍ، تناثرت دماؤها السوداء الحارة على وجهي وصدري وأغرقت ملابسي، وانفلت السهم من بين أصابعها لينغرس على بعد سنتيمترات قليلة من رأسي، وكأن الموت يخبرني أنه ليس ببعيد عني، فقط لم يحن الأوان بعد.

ومن موقعي على الأرض رأيث جسد حاصدة الأرواح الذي فقد رأسه يتهاوى بجواري متحررًا منه عشرات الأطياف السوداء، التي انجذبت بشكلٍ مخيف إلى فم الفتاة الحرباء التي أطلقت فحيحًا مفزعًا كأفعى يتم سلخها حية، فرحت ألهث من الخوف مصدومًا من كل هذه الوحشية.

وهنا رأيت الفتاة الحرباء تهبط أمامي في مرونةٍ عالية، كلاعبة جمباز محترفة، لمست قدميها الأرض دون أن تصدر أدنى صوت، ونصل منجلها الحاد يقطر بالدماء، وهي ترمق الجثة فاقدة الرأس في احتقارٍ ممتزجٍ بالرهبة، وكأنها غير مصدقة أنها نجحت في الإجهاز عليها ودحرها، وحصد أرواحها العديدة.

رمقتها في خوف متوقعًا أن تسلك مسلك تلك المخبولة السابقة، وتعمد إلى صيدي بعد أن أجهزت على ضحيتها

الأولى، لكنها خالفت كل توقعاتي ووضعت منجلها الحاد جانبًا، وهي تتمطى كلبؤة انتهت من افتراس ضحيتها.

تابعتها في ذعرٍ وهي تقترب مني، ومشهد تلك الأرواح السوداء التي أصبحت جزءًا من تكوينها لا يغيب عن ذهني.

لقد ساعدتني، هي ورفيقها.

لكنهما في النهاية مسخان من مسوخ هذا العالم.

تلمست بيدها الباردة مكان إصابتي فجفلت، فرمقتني في صرامة كي أكفّ عن الحركة، وبكل اهتمام راحت تتفحصها لبعض الوقت قبل أن تقول في ارتياحٍ:

- الإصابة ليست مميتة أو خطيرة، السهم أصابَ عضلة الكتف ولم يخترق العظام، أنت حسن الحظ بالفعل، كل ما يتطلبه الأمر أن ننتزع السهم ونضمد مكان إصابتك.

قالتها، ودون أن تمنحني أي فرصة للرد أو الاعتراض، قبضت على رأس السهم وكسرتها، لتشتعل النيران في كتفي وأصرخ من شدة الألم، فتكتم فمي بيدها وهي تهمس في حزمٍ:

- تجلّد قليلًا أيها الغرير وألجم لسانك، لا تلفت الأنظار لموقعنا..

أصابني تحذيرها بالمزيد من الخوف، وقبل أن أرد عليها، سحبت السهم من مكانه بسرعة لينتشر الألم في كتفي ورأسي بشكلٍ صاعقٍ، دون أن أجرؤ على إطلاق صرخة ألمٍ

واحدة، لتمزق جزءًا من ردائها وتضمد به الجرح لتوقف نزيف الدماء، وهي تقول في حنقٍ:

- أي أحمق أنت لتذهب بقدميك إلى حاصدة أرواح؟.

أجبتها بسرعة مدافعًا:

- أنا جديد هنا، ولم أعرف أنها مخبولة إلى هذه الدرجة، كنت أبحث عن أي شخص ليكشف لي حقيقة موقفي والسبيل لمغادرة هذا العالم الوحشي.

هزّت رأسها محبطة، وقالت:

- جهلك هذا كلفنا مقاتلًا جيدًا، أنت محظوظ جدًا لأن غريزتها الحيوانية دفعتها للعبث معك قبل الفتك بك، وهذا ما منحنا الوقت والفرصة للإجهاز عليها، ولولا أنها التهمت فريسة أخرى منذ وقت قريب، لطاردتك بنفسها، ولمزقتك بأنيابها لا بسهامها.

كان الألم كاسحًا، فقلت بصوت واهن وأنا أتابعها وهي تضمد جرح ذراعي السطحي:

- الغريب أعمى ولو كان بصيرًا، وأنا لا أعلم لماذا قد يضحي أحد بحياته من أجلي، إنه ليس الأول منذ وطئت قدماي هذا العالم العجيب، وكنت أظن أن الوحيدة التي أتوقع منها هذا تركتها في عالم آخر، ثم كيف أكون محظوظًا مع هذا الكم من الإصابات؟.

أجابت بهدوءٍ، وهي تعقد الرباط حول ذراعي بشكلٍ محكم

آلمني:

- أنت حي على كل حال، كما أن أهميتك لا ينكرها أحد.

أقنعني منطقها ونصف إجابتها الأول، فعدت وسألتها في حيرةٍ:

- أنا لا أعرف لماذا حاولت تلك اللعينة قتلي؟ ولا لماذا تطوّعت أنت ورفيقك لإنقاذي؟ ومن قبلكم أصحاب العيون الصفراء، ولا حقيقة هذه الأطياف السوداء المخيفة التي تخرج من فم الموتى إلى قاتليهم، أهي لعنة من نوع ما؟.

رمقتني بنظرةٍ طويلةٍ صامتةٍ، شعرت بها تخترقني إلى أعماقي وكأنها تقيم حقيقة جهلي من ادعائي الجهل، لتستدير بعدها في بطءٍ وتتفحص المكان من حولنا بحثًا عن عدوٍ مجهولٍ قد يكون صراخي قد جذبه إلى موقعنا، ثم قالت في حزمٍ:

- تلك اللعينة كانت كابوسًا يطارد أحلام الجميع، إن الزواحف لا يرسلون أمثالها إلى مكان إلا ويبسط الموت أجنحته على كل من فيه، فذلك القسم من المدينة يكاد أن يخلو من الأحياء بسببها، على الرغم من أنها ورفاقها لم يتواجدوا هنا إلا منذ فترة قصيرة.. وأنت لم تحظ منها بالاهتمام الكافي بسبب حجب بصمتك الروحية، ولو أنها تعلم حقيقة شخصيتك لما منحتك الوقت لتتنفس نفسًا إضافيًا بعد أن وقع بصرها عليك، إنها مسألة وقت فقط قبل أن يأتوا جميعًا في أثرك، فلن نستطيع حجب بصمتك

الروحية إلى الأبد.

قالتها وصمتت لتلتقط أنفاسها، ثم أكملت:

- أنا غير مصدقة أني أجهزت على تلك اللعينة بمثل هذه البساطة، إنها أشرس متحورة في بني جنسها.. وغرورها لم يصور لها أن هناك من يمكن أن يتربص بها في عرينها، إن هذه السفاحة لم تُصب بخدش منذ ابتلينا بوجودها على أرض هذا الكوكب، وما زلت أحمل في ساقي ندبة سهمها القاتل من مواجهة سابقة أجبرتني فيها على الفرار، و(غابة الموتى) ما زالت أشجارها تحمل جثث قتلاها، لقد حاولنا إحراقها منذ عام مضى ولم يفلح سعينا في إنهاء هذا الكابوس، إنها تعتبرها حائط بطولاتها وانجازاتها، والأطياف السوداء هي أطياف كل من قتلتهم، واستيلاؤها عليهم يجعلها تكتسب خبرات ومعارف لا نهائية.

هتفت في دهشةٍ:

- أي جنون هذا؟.

ولكنها تجاهلت رد فعلي، وأكملت:

- لهذا الكوكب خصائص فريدة، بسبب قمريه المشعّين، فبعد مضي وقت معين، يظهر لكل شخص نجا من إشعاعاته مرافقٌ طيفي، يحمل كل ذكريات وخبرات هذا الشخص ويرتبط به، ويكون وسيلة اتصال خاصة، لذلك يرسل كل قاطن للغرفة الغرض الذي تتركه له ليرسله إلى عالمه، كدليل للطيف ليتتبعه عند تواصلهم مع القاطنين المحتملين، وهو الشيء

الذي حاوله والدك معك وفشل فشلًا ذريعًا، لأنه استخدم فيه رابطة الدم فقط، وكان الغرض يخص جدك. الموضوع معقد قليلًا واختصاره أنهم مكافأتي، فكل العلوم والمعارف والخبرات لا يجب أن تذهب هباء.

هتفت في استنكارٍ:

- مكافأتك.. لقد أدركت من اللحظة التي رأيتك فيها تمتصين تلك الأطياف السوداء، أنك لست بشرية، فماذا أنت بالضبط؟.

أشاحت بيدها وقالت في استنكارٍ أقرب للاشمئزاز:

- كلا بالطبع.. لست بشرية.. إن عرقي يتشابه مع عرقك في بعض الخصائص الحيوية والتشريحية، ولكننا لسنا مثلكم، دعك من هذا فالتصنيف يفسد كل شيء، ووجودنا جميعًا هنا من أجل هدف واحد، إما أن نحققه أو نلقى ما هو أسوأ من الموت.

قلت في هلعٍ:

- إن لم تكوني من البشر أو من هذا الجنس الوحشي، فمن أي جنس أنتِ؟.

رمقتني بنظرة طويلة مترددة، ثم قالت في أسى:

- لقد امتلك أجدادك من العلم، ما جعلهم أعظم حضارات الكون، وبعلومهم الفذّة وقدراتهم الروحية، تواصلوا مع العوالم الذكية عبر الأبعاد السبعة منذ أكثر من ثلاثين ألف

عام. وليجعلوا هذا التواصل دائمًا، أنشأوا بوابات النجوم، وبعد أن انكشف سرها وأصبحت مصدر تهديد، أنشأوا الغرف السبع لتكون بمثابة بوابات دائمة بين الأبعاد، بعلوم لم يكشفوا عن سرها قط.. وسر خطير مثل هذا كان يحتاج لمقاتلين أفذاذ لحفظه، ولا يوجد مثل الرماديين للأضلاع بهذه المهمة.

هتفت في دهشة متسائلًا:

- الرماديون؟

أجابت في فخرٍ:

- نعم، نحن الرماديون أو من تطلقون عليهم مجازًا سكان جوف الأرض، على الرغم من أننا فصائل مختلفة، ولسنا نحيا جميعًا في باطن الأرض، ففصيلتي تعيش وتتكاثر بينكم من زمن طويل، وهذا لا يخفي على الكثير من حكوماتكم، وبيننا تعاونٌ وثيق.

هتفت في دهشة:

- سكان جوف الأرض، أأنتم حقيقيون بالفعل، وهل هذه هي هيئتك الحقيقية؟.

أجابت في برودٍ:

- بالطبع لا، هيئتنا تختلف تمامًا، ونحن لا نكشف عنها، لأن السرية جزء من عقيدتنا، ولا أعتقد أنها ستروق لك، لقد اخترت هذه الهيئة فقط كي لا أشتت انتباهك أو أثير

حفيظتك.

تجاوزت هذه النقطة، لأنني لم أرغب في أضغط على أعصابي برؤية المزيد من المسوخ، وسألتها:

- إذا كنتم تقومون بمهمتكم بمثل هذه الكفاءة، فلماذا تدهورت الأمور إلى هذا الحد؟.

تأملتني لبعض الوقت، ثم قالت في أسى:

- لقد حمينا الغرف السبعة لثلاثين ألف عامٍ، الكارثة بدأت عندما تخلت سلالتكم عن مهمتها، وتركت الغرفة بدون قاطن ليتم العبث بها عن طريق الزواحف، ويقع الخلل الكبير، ومهمتك أن تستعيد السيطرة على الغرفة أو تغلقها إلى الأبد، وتعيد ضبط الزمن.

هتفت في دهشةٍ:

- أي زمن الذي أعيد ضبطه، هل تخرفين؟.

أجابت في برودٍ:

- أنت مهما فعلت لن تقدّر التضحية الضخمة التي قام بها والدك حق قدرها.. هل تعرف مقدار الدمار النفسي والبدني الذي أصابه وهو يحاول الوصول إلى الأسرار والعلوم المحرمة، ويستخدمها لمحاولة منحك حياة حقيقة بلا معاناة، ويصلح فوضى جدك، أنا حتى هذه اللحظة غير مصدقة أنه بعد كل ما قاساه، استطاع إحضارك إلى هنا.

قلت في لهفة:

- ما معنى هذا الكلام العجيب؟

أجابت في هدوءٍ:

- معناه أنه كان يضعك على قائمة أولوياته، ولذلك تجاسر واستخدم العلوم المحرمة التي منع الكهنة تداولها أو استخدامها للعودة بالزمن من أجل أن يمنحك الحياة التي تحلم بها، ولأنه ليس كل ما يقاتل المرء من أجله يدركه، ولأن الزمن أكبر من قدرة شخص واحد مهما امتلك من علوم على ضبطه، تسبب في مشكلات أكبر ممّا كنا نواجه، ولم يجد لها حلًا إلا الاستعانة بك لخلق واقع جديد، باحتمالات أفضل.

بدت على وجهي علامات عدم الفهم أو التصديق، فأشاحت بيدها وقالت:

- ملخص هذا الحديث أنك لا تعيش حياتك الأصلية الآن، بل حياة بدلية، ترجح الاحتمالات نجاحك فيها في إصلاح كل الأخطاء، وإيقاف غزو الزواحف بعد استعادة الغرفة.

قلت في عصبيةٍ، وأنا أحاول هضم هذا الجنون:

- إن أبي أخبرني أن هؤلاء الغزاة نجحوا في الوصول إلى عالمنا بالفعل، وأنا قد قابلت أحدهم دون أن أدرك حقيقته، وأفسد وسيلة تواصلنا.. فهل يعني هذا أنه فشل فشلًا مضاعفًا فلم يستطع إيقاف الزواحف، أو يجهض مخططهم؟ وهذا الجحيم الذي عشته هو أحد الحيوات البديلة.

كيف كانت حياتي الأصلية إذن؟ وهل كل ما عشته كان

مقدرا لي أم لم يكن؟ وهل (ندى) حقيقة أم مجرد احتمال؟.

هزّت رأسها في حزن وقالت:

- لا أحد يعرف كيف كانت حياتك الحقيقية، لكن أباك كان مميزًا مثلك، ورأى ما لم يره غيره، وقاتل كثيرًا ليختار لك أفضل الاحتمالات، ويعيد التوازن.. عندما جاء إلى هذا العالم في المرة الأولى كان حائرًا وتائهًا ومذعورًا، وفي وقت قياسي استطاع أن يتكيّف مع كل المتغيرات، وأثبت شجاعةً وذكاءً وإصرارًا نادرين.. إن دماء أجدادكم الشجعان تسري في عروقه.. هل تصدق أنه دخل في صدامٍ مباشرٍ مع حارس الغرفة، ودخل في مواجهات لانهائية معه ليؤمّن لك الغرفة، وليجهض مخططات الغزاة.. لقد تطور هؤلاء الدمويون وازادوا ذكاءً وقوة عبر القرون، ولو سيطروا على الغرفة الرئيسية بشكلٍ كاملٍ، سيستولون على كل العلوم المحرمة، وستتحول الأبعاد السبعة إلى أطلال خربة، ويمحي كل أثر للبشرية من ذاكرة التاريخ.

وما أن انتهت من عبارتها، حتى خطرت على بالي الفكرة، فسألتها:

- وماذا عن ذلك اللعين (أنوبيس) حارس الغرفة؟.

أجابت في سرعة، وهي تتلفت حولها بشكلٍ أقلقني:

- إنه ليس «أنوبيس».. أجدادك من جعلوه على هذه الهيئة ليصير أكثر بشاعة، وهو سر آخر من أسرار الغرفة وإحدى وسائلها الدفاعية، ومن مهامك أن تستعيد ثقته وتعيده إلى

مهمته الأصلية، بعد أن تحوّل إلى أداة تعذيب جهنمية.

وبكل توتر الدنيا، سألتها:

- من أين لك بكل هذه المعلومات الخطيرة، ولماذا تساعديني؟.

أجابت بلا تردد، وكأنها تحفظ الإجابة:

- لأن أباك أراني ما رآه؟

قلت في دهشةٍ:

- ولماذا لم يطلعني على كل هذه الأمور؟.

أجابت في امتنانٍ:

- لأنك لم تكن لتصدقه، ولأن هذه هي مهمتي.. هل تعتقد أن وجود أصحاب الأعين الصفراء وتضحيتهم بحياتهم كان صدفة أو أن وجودي فوق تلك الشجرة كان ضربة حظ، كلّا بالطبع.. لقد كنا ننتظرك.

هتفت في دهشة:

- تنتظروني؟.

هزّت رأسها بالإيجاب وقالت:

- أنت تجهل الكثير عن أهميتك وعمّا يدور في الكواليس، وكل ما عليك معرفته الآن أنني سأكون دليلك في هذا العالم، ليس فقط لأنك قاطن الغرفة ومهمتي حمايتك وإرشادك أو لأنني أدين لأبيك بالكثير، لكن لأن الزواحف حين يتمكنون

من الغرفة بشكلٍ كاملٍ لن يتركوا جنسنا، لأنهم يعتبرون تعاوننا معكم خيانة لهم، لأنهم عمليًا ينتمون لأقدم سلالة من سلالات سكان جوف الأرض، ولا يغرّنك انتصارنا المحدود على تلك المتحورة، فالخطر لم ينته بعد، وما رأيته لا يزيد عن كونه جزء من ألف من الأهوال التي سنلاقيها، لقد فخخ هؤلاء الملاعين الكوكب، وكل هدف لهم الآن هو الفتك بك.

سألتها في تعجبٍ:

- إن كان الوضع بتلك الخطورة والبشاعة، فلماذا لا نهرب فحسب؟.

هزّت رأسها في ضيقٍ، وقالت في استياء:

- تهرب.. أأنت ابن أبيك حقًا؟!

شعرت بالإهانة، فسألتها في عصبيةٍ:

- وما دوري أنا في كل هذا؟.

قالت مستنكرةً:

- ألم تفهم من كل ما ألقيته على مسامعك؟!

قلت في غيظ:

- لو كنت فهمت لما سألت.

نظرت حولها في حذرٍ ثم همست:

- لأنك المفتاح.

قلت باندفاعٍ:

- أنا لا أملك أي مفتاح.

هزّت رأسها في ضيق، وكأنها قد ملّت من جهلي وغبائي المطبق، وهمست:

- أنت المفتاح.. أنت المفتاح، لست بحاجة لمفتاح آخر.

جززت على أسناني، وقد تركزت كل آلام إصاباتي في رأسي، وسألتها في ضيقٍ:

- مفتاح ماذا؟

أجابت في توترٍ:

- إنك قاطن الغرفة الأخيرة، وآخر سلالة الصانعين وكل الآمال معقودة عليك، فأنت مفتاح استعادة السيطرة على الغرفة الأخيرة، وما بأعماقك من أسرار قادر على قلب كل الموازين، لقد رأيت كما رأى أبوك، وبقي أن تستغل ما رأيت لخلق واقع جديد أو..

وفجأة قطعت حديثها وراحت تتشمم الهواء، وهي تشير إليّ أن أصمت، ثم انقلب وجهها واندفعت نحوي لتساعدني كي أنهض، وهي تهمس في حذر:

- حاول ألّا تصدر أي صوت يكشف موقعنا، لقد افتقد المتحورون وجود قائدتهم، وبدأوا يتدفقون من كل حدبٍ وصوبٍ، ولو انتظرنا أكثر سيطبقون علينا من كل الاتجاهات.

سرى الرعب في عروقي، وحاولت أن أقلدها وأتشمم الهواء متوقعًا أن تصدمني رائحة هؤلاء المتوحشين ليخذلني أنفي، فرحت أحدث نفسي دون صوتٍ:

- اللعنة.. لو كان هذا جزءًا مما مرّ به أبي خلال نيف وعشرين عامًا، فلن أستطيع لومه، إنني سأجن حتمًا لو استمر الأمر على هذا المنوال.

وقطع أفكاري لمسة الفتاة الحرباء وهي تشير لي أن أتبعها، فتبعتها راضخًا، والتعب والإرهاق يتملكان مني حتى عبرنا منطقة الأشجار، فصحبتني إلى تبةٍ عاليةٍ وأشارت إلى فرقة من حاصدات الأرواح اللائي انقلبن إلى هيئتهن الوحشية الأقرب إلى السعادين الهائجة، وهن يركضن على أربع، ويفتكن بقطيع هائل من حيوانات أقرب في شكلها إلى أفيال (الماموث) لكنها أقل حجمًا، وقالت:

- هؤلاء الحقراء لديهم معلومة مؤكدة عن مكان ظهور الغرفة، فهذا العدد منهم لا يمكن أن يتواجد في مكانٍ واحدٍ، أو يتجمع بهذه السرعة إلا لكونهم يعدون لكمين، وموت قائدتهم سيؤكد المعلومة، وسيكون حكمًا نافذًا بالإعدام على كل من يتواجد في هذه المنطقة المنكوبة، إنهم لن يتركوا أي كائن حي يتحرك على قيد الحياة، وسيقومون بحملة إبادة شاملة، لقد أغلقت هذه المنطقة إلى الأبد.

جززت على أسناني وقلت بصوتٍ هامسٍ:

- أنا لم أرغب لحظة في أي من هذا الجنون.

هزت رأسها، وهمست:

- ومن منا أراد التورط.. إنه قدرنا.

أطلقت سبةً في سري وأشحت ببصري عنها، فحتى الجوف أرضيون يعلقون على شماعة القدر كل أخطائهم، ورحت أتابع في روع ثلاثة من الوحوش الذين ظفروا بأحد الرعاة من السكان المحليين، وبدأوا يمزقونه حيًا بأنيابهن الحادة، وصرخاته ترج المكان، قبل أن أهمس في هلعٍ:

- اللعنة إنهم يلتهمونه حيًا.

هزت رأسها في أسى، وقالت:

- أخبرتك من قبل إنهم حيوانات الزواحف المدللة.

ولا أعرف وسط الهول الدائر كيف لاحظت الأمر فسألتها:

- اللعنة إنهن جميعًا نسخة طبق الأصل من تلك اللعينة القتيلة.. إنهم مستنسخون؟.

هزّت رأسها لتؤكد الفكرة، وقالت:

- إن التقنيات التي استخدمت في استنساخهم عظيمة، ولو نجونا هذه المرة، ستساعدنا كثيرًا في أبحاثنا القادمة.

كنت أعلم من خلال قراءاتي عن سكان جوف الأرض أنهم لا يتكاثرون بالطرق الطبيعية بل عن طريق الاستنساخ، وتعجبت في أعماقي عن امتلاكهم لهذه التقنيات، واختاروا أن يعيشوا في جوف الأرض فسألتها قائلًا:

- حسنًا.. أخبريني، كيف مع تطوركم هذا تعيشون في جوف الأرض؟.

سحبتني من يدي نحو بركةٍ قريبة، وقالت:

- أخبرتك أن فصيلتي تحيا بينكم على السطح بقوانين وقيود معينة، والفصائل التي تعيش في جوف الأرض بعد أن تكيفوا على وجودهم هناك، لم تعد لهم حاجة للسطح وهم يمتلكون ثروات باطن الأرض، لكنكم منذ بدأتم الثورة الصناعية وكل شيء يتغير ويتدهور، وآلاتكم ورجالكم يقومون بنهب هذه الثروات، مما يهدد بقاءهم لذلك صاروا أكثر عنفًا، ولولا وساطتنا لنشبت حروب لا تنتهي بينهم وبينكم.

استرجعت في رأسي كل ما ذكر عن سكان جوف الأرض، ومعاهدة (جريادا) وصدامهم مع الأمريكيين، وسقوط قتلى من الطرفين، والتجارب التي يقومون بها على البشر والحيوانات، وتجارب الاستنساخ التي ستمنع انقراض جنسهم، وأنا أفكر أن الأرض لم تفصح بعد عن كل أسرارها.

عبرنا البركة، ثم قطعنا ممرًا خفيًا بين الأشجار، قادنا إلى أطلال قريةٍ قديمةٍ، مكونة من عدد محدود من المنازل الحجرية المتراصة بشكل دائري حول بوابة حجرية تشبه بوابة الشمس الشهيرة، وتزين جدرانها المتهالكة نقوش وكتابات بالهيروغليفية دليلًا على أن المصريين القدماء كانوا هنا ذات يوم.

لمحت دهشتي من وجود النقوش، فقالت هامسة:

- ميراث أجداك، لقد كان هذا هو معسكرهم الرئيسي عندما وصلوا إلى هذا الكوكب.

تملكني الانبهار والفخر على الرغم من موقفي، ورحت أتحرك عبر الأطلال التي شهدت وجود أجدادي منذ آلاف السنين بحذر، وأنا أرهف سمعي خوفًا من أي هجوم غادر، أو سهم مارق.

وأمام أطلال أحد المنازل توقفت وهمست، وهي تشير نحوه:

- هذا هو مخبئي السري.

نظرت نحو المنزل المكشوف من جميع الاتجاهات، وقلت في دهشة:

- مخبئك السري، كيف يكون هذا؟ إن أي أعمى سيراه!

ابتسمت في هدوء وضيقت عينيها، وهي تقول في حسم:

- ولذلك لن يتوقع أحد أني أختبئ فيه، وهو مؤقت على كل حال، كما أن للمكان أسراره.

كان منطقها ساحقًا، فتجاوزت هذه النقطة وأنا أتبعها إلى داخل المنزل الذي كانت حالته من الداخل أفضل كثيرًا من الخارج، وصوت خطواتي الثقيلة يرج المكان، فقالت بصوتٍ مكتومٍ غاضبٍ:

- إنك صاخب جدًا، لابد أن تتعلم الهدوء والحذر كي لا تفقد حياتك بسرعة، وتجهض كل عملنا، لا تعتمد على بصمتك الروحية المحجوبة، ولا أنك لم تتلوث بعد بإشعاعات القمرين، ويصعب رصد مجال طيفك، فمقتفي الأثر من المتحورين لا شيء يردعهم هذه الأيام.

كانت تتحدث متوقعة أني أدرك كل هذه المصطلحات والأخطار، ولأن إرهاقي بلغ مني مبلغه، هززت لها رأسي، ورحت أتحسس موطأ قدمي لأتجنب إصدار أي صوت قد ينبههم لوجودنا، إلى أن وصلت إلى أريكة قديمة موجودة بأحد أركان الصالة، فألقيت جسدي عليها، وقلت في امتنان:

- أشكرك كثيرًا على إنقاذي ومساعدتي، لم يتح لي الوقت والأحداث المتلاحقة أن أشكرك قبلًا، وهل لك أن تشبعي فضولي وتخبريني، ما هذا المكان المخيف؟

أجابت في غموض:

- يطلق عليه عرقنا اسم البرزخ، والبعض يطلقون عليه نقطة التماس، أما جنسك فيطلقون عليه المصيدة، وهو على كل حال حلقة وسيطة حرص أجدادك على وجودها قبل استخدام العابرين الغرفة للوصول إلى الأرض تحسبًا لموقف مثل الذي نعيشه الآن، ولتصبح كما هي الآن أرض الصراع الحقيقة.

نظرت لها في ذهولٍ، وقلت في استغراب:

- هل هو كوكب صناعي؟

قلتها ثم صمت، وكأنما أعجزتني الفكرة، فقالت في تفهم:

- بل هو كوكب صغير يحجبه عن شمسه كوكب أكبر في الحجم، وله قمران، لهما طبيعة اشعاعية، ولذلك معظم موجوداته تتوهج، ونهاره دائم.

قلت في استنكار:

- ولكني عبرت من الغرفة إليه عندما كان مظلمًا، والغيوم حجبت كل مصادر الضوء.

ابتسمت الفتاة الحرباء قائلة:

- لقد أظلمنا السماء من أجلك، وما رأيته لم يكن غيومًا بالمعنى المتعارف عليه في عالمك.

هتفت في دهشة:

- اللعنة إن هذا كثير لتقبله.

أجابت في بساطةٍ:

- إننا لم نظلم الكوكب كله، بل منطقة العبور وحدها، إن أجدادك كانوا ماهرين في الكيمياء والتخطيط الاستراتيجي، كما أنها كانت الوسيلة الوحيدة لإنجاح عبورك دون أن تجد جحافل المتحورين تنتظرك، إن العلوم المحرمة مذهلة.

لم أستطع هضم إجابتها الأخيرة، لكنني كنت أشعر بالوهن، فسألتها قائلًا:

- كيف تقدرون على إظلام السماء، ولا تمتلكون إلا بعض

الأسلحة البدائية؟.

أجابت ببساطة:

- عندما اكتشف أجدادك الأوائل هذا الكوكب الصغير، لم يجدوا فيه إلا جنسًا مسالمًا بدائيًا يعيش على الصيد بأدوات بدائية، يتميزون بعيونهم الصفراء ذات البؤبؤ الأحمر، فضبطت الغرف لتحافظ على الكوكب كأرض محايدة منزوعة السلاح، فلم يستطع أي جنس من الأجناس العابرة أن يستخدمها لتمرير أي سلاح فتّاك يمكن أن يهدد به الأرض، فلم يعرف الكوكب إلا تلك الأسلحة البدائية.

تعجبت من كل ما تقصه على مسامعي، فقبل يوم أو أقل كانت في حياتي مشكلة واحدة وهي أبي، أما الآن فقدت اكتشفت أني أحيا حياةً وهميةً، وأن كل ما كابدته فيه ناتج عن عبثٍ زمني، والمفروض أن أقوم بإصلاحه، وأنني موجود على سطح كوكبٍ وحشي، يمكن أن تقتلني إشعاعات قمريه أو تصيبني بالسرطان في أي لحظة، وأنني لا أملك زمام أمري، وعليّ أن أُشعل المنارة لأصل إلى المقبرة المحرمة.

وعندما تردد الاسم في عقلي اعتدلت وسألتها على الفور:

- هل تعلمين أين توجد المقبرة المحرمة؟.

هزّت رأسها نافية، وأجابت في تلقائية:

- أبوك أخبرنا أنك من ستقودنا إليها.

هتفت في غضبٍ:

- كيف هذا، وأنا لا أعرف موقعها؟.

ابتسمت ابتسامةً باهتةً، وأجابت:

- الغرفة ستساعدك حتمًا، بعد أن تعيد السيطرة عليها.

تضاعف غيظي من طريقتها، فهي ترى في شخصي ما لا أراه في نفسي، وتعتقد أني أعلم الكثير وأنا أجهل من دابة، لذا غصت في الأريكة أكثر، فقد أرهقني الحديث والتفكير وما فقدته من دماء، ومحاولة التماهي مع الوضع الجديد.

ومع مضي الوقت هاجمني النعاس، فقررت أن أغمض عيني وأنام قليلًا، علّي أحظى ببعض الراحة، عندما انتفض جسدي بغتةً وكأنما أصابته صاعقة كهربية محدود واستيقظت كل آلام إصاباتي، وبدأت أسمع في أذني طنينًا مزعجًا، فنظرت نحوها متوترًا وقد عادت كل مخاوفي لتتصدر واجهة الأحداث، وسألتها في هلعٍ:

- وماذا يعني هذا؟.

قبضت على منجلها الذي لم يفارق يدها لحظة، وهي تقول في استياء:

- يعني أن عليك العودة إلى الغرفة سريعًا، فالغرفة تستدعيك.. فهذا الكوكب أخطر مما تتصور، فطبيعته الإشعاعية تؤثر على قاطنيه على المدى الطويل وهو قادر في النهاية أن يحولك لأكثر شيء تبغضه، لذلك تحرص الغرفة على ألا يظل قاطنها لوقت أكبر من المقرر خارجها،

ويحرص العابرون على عدم البقاء فيه إلا للفترة المطلوبة، إن أجدادك لم يختاروه عبثًا.

وهنا تذكرت حارس الغرفة المرعب الذي بُترت بعض أطرافه، واجتاحني الخوف، وسألتها:

- ألا يمكن أن أبقى معك، لم يكن لقائي بحارس الغرفة من الأشياء التي تشجعني على العودة، واثنان معًا أفضل من واحد.

هزّت رأسها رافضة وقالت في ثقة:

- إن جزءًا من مهامك أن تخضعه، عليك أن تنسى حياتك القديمة وتواجه قدرك بشجاعة.

أشعل حديثها حيرتي، فهي تطلب مني المستحيل وتؤمن بقدرتي عليه، وأنا من أعماقي أرتعد، ولذلك قلت في لهفةٍ:

- عودي معي إذًا.

قالت في توتر:

- كف عن سخفك هذا، لا تتم الأمور هنا بمثل هذه البساطة، إن الوقت يمضي وعليك أن تعود بسرعة كي لا يؤثر عليك إشعاع القمرين أو تصطدم بحارس الغرفة، ولتبدأ في التواصل الحقيقي مع الغرفة فكل شيء سينتهي لو فشلت.

سألتها في ذعر:

- وأنت ألن يؤثر عليك إشعاع الكوكب.

قالت في نفاد صبرٍ:

- بنيتنا تختلف عن بنيتكم والتأثير أقل، لا تشغل بالك بهذه النقطة، فلو فشلت في مهمتك سنهلك قبل هذا بكثير.

روعتني مخاوفها، فسألتها في توتر وأنا أنهض من فوق الأريكة التي أنَّت بصوتٍ مكتومٍ:

- وكيف أعود إلى الغرفة؟.

أشارت إلى أحد الاتجاهات، وهي تقول في غموضٍ:

- اتبع غريزتك.

نظرت من النافذة إلى حيث أشارت، فرأيت بحيرةً كبيرةً تمتد إلى مدى البصر تطفو فوق مياهها الكثير من الجثث المنتفخة، فقلت في يأس وأنا أتأمل هذا المشهد المروع:

- هل سأعود سابحًا، وسط هذه الجثث؟.

زامت في غضب وهي تصرخ:

- اللعنة.. إنك على درجة مخيفة من الجهل، اخرج بسرعة واتبع غريزتك ولن تخطئ عيناك الطريق.. وحاول أن تتماسك لأن ما ستراه سيغيرك إلى الأبد، إنه ما نقاتل من أجل إنهائه.. ليس هنا فقط، بل في كل العوالم.

همست في غضبٍ:

- ألن ينتهي هذا الجنون؟.

خرجت من المنزل الحجري في حذرٍ، وبدأت سيري الحثيث

على طول الطريق الموازي للبحيرة، وعيناي ترصدان كل ما أمر به من أهوال وعجائب.

ما زال وجود القمرين يشعرني بالوحشة والضياع، وكأنهما كشافان يبرزان وجودي لقتلة هذا العالم.

الجثث الطافية على سطح البحيرة تبعث في أوصالي القشعريرة من هذه المسافة القريبة، وتنذرني بمصير مماثل.

أجدُّ في سيري كي أعبر هذا المشهد، وأنعطف إلى طريق ممهدٍ على جوانبه العديد من الأكواخ البدائية التي يسكنها أصحاب العيون الصفراء، الذين توقفوا عن حزم أمتعتهم على عرباتهم البدائية التي يعدونها لهجرة المكان، عندما وقع بصرهم عليّ، وراحت حدقاتهم الحمراء تتابعني في دهشة ورهبة.

أرمقهم في قلقٍ بعد أن جلبت لهم الموت الخراب، وأجبرتهم على هجر ديارهم، فتتلاقى الأعين التي تضج بالاحترام والأمل، وهم يقبضون في آن واحد على قلادة تتدلى من أعناقهم يرفعونها لأعلى كنوع من التحية.

رفعتُ كفي لأرد تحيتهم ثم هرولت مبتعدًا، لتنبهني صرخة مجلجلة لاقتراب مجموعة من حاصدات الأرواح بعد أن فتكوا بصاحبها بالقرب من المكان، فأبدلت طريقي وقلبي ينزف دمًا على هؤلاء السكان المحليين الذين لن يجدوا الوقت الكافي للنجاة بحياتهم.

وعندما انحرفت مع الطريق، أفزعت ذلك الثعبان المجنح

الذي اندفع بسرعة ليتوارى في حفرة عميقة على جانب الطريق .

حار عقلي في طبيعة هذا العالم المخيف الذي قادتني إليه الغرفة، وتنامى بداخلي شعورٌ مقبض بأن نهايتي ستكون في هذا المكان، وبأبشع الطرق..

قادتني قدماي إلى طريق مفروش بجثث العشرات من الطيور العملاقة الفضية التي تمزقت بشكلٍ وحشي، وانتشر ريشها الغارق في دمائها الداكنة في كل مكان، وبالقرب منها بقايا أصحابها الذين كانوا يحملون أسلحة بدائية للدفاع عنها.

ومنها إلى هيكل عظمي لطفل أو مخلوق صغير من مخلوقات الكوكب عالق في فخٍ معدني، وكان من الواضح أن الفئران المفترسة قد التهمته حيّا، لينحرف بي الطريق صوب مجموعة من الأشجار يتدلى من أغصانها عددٌ من الجثث الشفافة لا أعرف إن كانت مجرد مخلوقات ذكية أو عجماء.

وفي طريقي كان الموت يتربص بي في كل زاوية وكل ركن، ولولا غريزتي التي لا أعرف متى أصبحت بهذه الحدة والدقة، لكنتُ في عداد الموتى.

تفاديت عدة مرات الوقوع في قبضة حاصدات الأرواح اللاتي انتشرن في المكان يسفكن الدماء في طريقهن.

وكالمغيب أو المسحور، رحت أنتقل من جثة إلى جثة..

ومن هول إلى هول أكبر..

ولا أدري كيف تحملت رؤية هذا الكم من الموت والدماء والأشلاء والبشاعة!

ثم لفت نظري تلك القلادة الملقاة بالقرب من إحدى الجثث، وعندما تناولتها وتأملت ما هو منقوش عليها صدمت من المفاجأة، فقد كانت صورة أبي.

يا إلهي، إنهم يتعاملون مع صورة أبي كرمزٍ ديني..

فهل يعبد هذا الشعب البدائي قاطني الغرفة، أهذا هو سبب تضحيتهم بحياتهم من أجلي؟.

وهل أبي على هذه الدرجة من الجنون، ليتقمص شخصية الإله؟

شعرت بأن روحي تتداعى، وأعصابي تنهار، وما همني ساعتها هو أن أغادر هذا المكان القميء، ولو إلى الجحيم، قبل أن أنهار وأقتل نفسي بنفسي.

للموت رهبة..

وعدم احترام الموت بهذه الطريقة، هو ما يزعزع المرء من الأعماق..

لقد رأيت الموت بعيني وهو يسير بكل فجاجة في طرقات هذا العالم المخيف، لا يردعه رادع، أو يمنعه مانع. وتخيلت نفسي مكان كل ضحية تم قتلها أو سحلها أو سلخها أو تمزيقها، أو تركت لتتعفن دون أن تدفن على قارعة الطريق،

ليتملكني كل ذعر العالم، وأسعى بكل حماقة للعودة إلى الفخ الذي فررت منه.

إلى الغرفة.

وبخطواتٍ متعثرة، بدأت أهرول متحاملًا على ساقي المصابة وإصاباتي الأخرى تنزف ببطء، فلم تخبرني الفتاة الحرباء التي نسيت أن أسألها عن اسمها عن الوقت المطلوب مني الوصول خلاله إلى الغرفة.

وقادتني الجثث والأشلاء والمشاهد الدموية العنيفة التي حطمت سلامي النفسي إلى بقعة خالية..

لم أفهم في البداية المطلوب مني، مع صدمتي الكبرى من كل ما مررت به في طريقي إلى هنا..

وعندما أدرت الأمر في رأسي، صرخت بأعلى صوتي مفرغًا بعض توتري، وقد بدا لي القمران في هذه اللحظة كعيون الموت:

- الباب.

وعلى الفور، وأمام عيني الدامعتين، تجسد باب الغرفة الأسود من العدم ليحرق أسفله بعض العشب ويسحق البعض الآخر، فأمرته أن ينفتح لأدخل.

لأجد أن الغرفة بدأت في الاهتزاز بعنف، منذرة بقدوم حارسها المخيف، فأمرت الباب أن يغلق بسرعة، فهدأ كل شيء وساد الصمت العميق الذي يحمل رائحة الموت.

كنت مرهقًا بشدة، فتركت جسدي ينزلق أرضًا، وجلست في أحد الأركان وأنا أبكي وأنتحب حتى نضبت دموعي، فرحت ألهث محاولًا التقاط أنفاسي وأنا أرمق بلا أي مشاعر الدماء التي أغرقت الضمادات ولوثت ملابسي، وفي رأسي تردد سؤالٌ مرير:

- أين أنت يا أبي، أنقذني من هذا الجحيم؟.

ومن حولي ساد الصمت.

الصمت الذي يشبه الموت.

***

الزواحف البشرية

إنهم يستغلون قدرتهم على الاختفاء، قاتلوا بغريزتكم، وصوبوا على أعناقهم، فالطريقة الوحيدة لقتلهم هي قطع الرؤوس.

إصاباتي تؤلمني للغاية.

ولكن ألمي النفسي أكبر وأعمق، فلم أتوقع أن أعود مجددًا إلى تلك الزنزانة الصامتة بإرادتي الحرة؛ ولكن مشاهد الموت والخراب كانت أكبر من قدرة جهازي العصبي على التحمل.

وأعتقد أنني استهلكت كل مخزون الخلايا من الأندروفين لأتجاوز تلك الصدمة.

لم تكن الفتاة الحرباء رؤوفة بي عندما جعلتني أخوض هذه التجربة المريرة.. أرادت تلك الأفعى أن تريني عاقبة فشلي ووصول الزواحف وحيواناتهم المتحورة إلى كوكبي رؤيا العين، والمكانة التي أحظى بها لدى هذا الشعب البدائي، ولكنها فعلتها بالطريقة الصعبة.

والآن بعد أن هربت من ذلك الجحيم الصاخب، إلى ذلك الجحيم الصامت، أتمنى لو أن سهام الحاصدة رشقت جميعها في قلبي وانتزعت كل قطرة من حياتي، فعلى الأقل الموت على يديها حاسمٌ وصريح، أما في هذه الغرفة اللعينة، فالموت بطيء ومراوغ.

فالصمت الثقيل واللون الأبيض يهشمان روحي ويعبثان

بعقلي ويضاعفان من اكتئابي وكراهيتي لكل شيء، والأنكى أنني مطالب بالتواصل معها والسيطرة عليها وإنقاذ العالم.

كوميديا سوداء أليس كذلك!!

أحاول أن أجبر نفسي على النوم دون فائدة.. صخبي الداخلي يمزق تماسكي، وكتفي مخدر، وذراعي متيبس.

أتحسس مكان إصابتي في شك، فيسري تيارٌ صاعق من الألم في رأسي.

أنا متعب لدرجة أني غير قادرٍ على النوم.

وعندما بدأت أرى أشباح القتلى تتجسد من حولي وتسجد لي في إجلال وتعظيم، انتفضت في مكاني، واستنفرت إرادتي، وضغطت على موضع إصابتي بعنف، ليسري ألمٌ مضاعف في كتفي جعلني أستفيق وأعود إلى عالم الواقع وتتلاشى من أمام عيني تلك الأشباح.

وبكل عزمٍ نهضت واقفا على قدمي، وزحت أصرخ في الغرفة:

- لن تستطيعي هزيمتي.. لن تستطيعي أبدًا.

وما أن أنهيت عبارتي الغاضبة حتى شعرت بالدوار، فتراجعت بخطوات واهنة.. وحينما لامس ظهري الجدار حتى تمددت بجواره، وأنا أهمس لنفسي:

- لن أسمح لأي شيء في هذا المكان بالعبث بعقلي، لقد تخطّيت اليوم الكثير من الأهوال، إنني أقوى من كل هذا

الجنون.

وعندما رأيتني أردُّ التحية على شخص يمشي على سقف الغرفة بالمقلوب، وأتناول سيجارة من يد (ندى) وهي تسبح في فراغها، أدركت أن اليد العليا ما زالت للغرفة، فضغطت بكل غضبٍ على موضع الإصابة حتى لوثت دمائي أرضيتها البيضاء، ليسطع الوميض القوي، وتهتز الغرفة، ويتماوج الهواء، لتختفي كل قطرة من هذه الدماء، كما اختفت الجثة من قبل، فانتفضت واقفًا وأنا أتحسس حلقي الجاف، لأصرخ مجددًا:

- لن تهزميني أيتها اللعينة..

وحينذاك خُيل إليّ أنني سمعت صوت ضحكةٍ ساخرةٍ عاليةٍ، وقد بدأ رأسي يدور، وعيناي اللتان أرهقهما اللون الأبيض والوميض يفرزان دموعًا لا إرادية.

ومع مرور الوقت، عاد رُهاب الأماكن المغلقة ليتمكن مني، فرحت أتحرك في عصبية وأخدش الجدران..

وأغني..

وأصفق ..

وأصرخ كي أبدد هذا الصمت دون جدوى..

حالة انفلات أعصابٍ تامة فشلت في السيطرة عليها، فأغمضت عيني وتقوقعت في مكاني محاولًا وأد ذلك الصراع الداخلي الرهيب، وتلك الضوضاء العقلية المستمرة.

ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى تفاقم الأمر، وبدأت أسمع بشكلٍ مزعجٍ ومتواصل صوت أنفاسي، ودقات قلبي، وطقطقة عظامي، بل وخُيل إليّ أحيانًا أنني أسمع صوت تدفق الدماء في عروقي؛ وكأنما دخلت مرحلة الهلاوس.

الوضع يزداد سوءًا..

وكل الاحتمالات تثير هلعي..

ولولا بعض من كرامة لبكيت.

حياتي السابقة، أم أقول (الوهمية) تبدو بعيدة جدًا، ككل شيء أعيشه الآن...

إنني متعب ومنهك ومصاب، ولم أعد أثق في أي شيء..

كما أنني جائع..

إنني...

وفي النهاية استنفدت الأفكار ما تبقى لدي من طاقة، وغطّى صخبها على صمت الغرفة المدمر للأعصاب، فنمت نومًا عميقًا بلا أحلام كميتٍ بداخل قبر.

وبعد وقتٍ لا أعلم مداه أفقت من غيبوبتي بمشاعر مختلفة تمامًا عن تلك التي غفوت بها، وبشعور عارم من الراحة والهدوء والشبع، وكأن الغرفة فعلت بي شيئًا وأنا نائم، أعاد لي هدوئي واستقراري النفسي وأنهى إحساسي بالجوع والألم.

لأشعر بأن قواي قد عادت وجسدي بات طبيعيًا، لدرجة أني شكرت الغرفة من فرط نشوتي، وكأنني أتحدث إلى شخص حقيقي..

شعور الشبع واختفاء الألم مخدران، لذا مددت جسدي على أرضية الغرفة الصلبة وأنا أمنّي نفسي بالمزيد من النوم والراحة، عندما تسلل إلى مسامعي صوت الترانيم الحماسية القوية التي رجت رأسي رجًا، وأحيت الرعب في قلبي..

هل قمت بفتح عيني أم لا ..

لست متأكدًا!

فجأة تلاشى من حولي اللون الأبيض الموتر للأعصاب وانخفضت حدة الإضاءة بالغرفة، واكتست جميع جدرانها بالظلال، وتوسطها جميعًا نقش ناري لمفتاح الحياة المجنح.

وعلى بُعد عدة خطوات مني، وقف شخص غامض يرتدي زي الكهنة المميز، أمام مذبح حجري محدود، وهو يحمل في يده اليمنى خنجرًا ذهبيًا له نصل متألق، وفي يده اليسرى لوحٌ بلوري يشع منه ضوء خافت، وقلادة من الذهب تمثل مفتاح الحياة المجنح.

وبخطوات واثقة اقترب الكاهن مني، فشممت رائحة عطر (الكيفي) المميزة، والذي يدخل في تركيبه اللبان والمر والمستكة وراتنج الصنوبر والقرفة والهيل والزعفران والعرعر والنعناع.

كيف ميزت العطر، وعرفت مكوناته؟.

لا أعرف.. المعلومة ضبت في رأسي صبًا، وعقلي تقبلها بكل راحة.

كان الكاهن مهيبًا، ضخم الجثة، أصلع الرأس، له عينان حادتان لامعتان يحددهما كحل ثقيل، وبكل هدوء وضع يده على رأسي، وبدأ بتلاوة الترانيم من اللوح البلوري المشع، الذي أدركت الآن أنه كتاب الطقوس السرية.

وأثناء تلاوته للطقوس، انسحب وعيي وأحاط بي ظلام ثقيل ورحت أهوي في هوةٍ عميقةٍ لا قرار لها، لوقت لا أعلم مداه، إلى أن عاد الضوء بغتةً وانقشع الظلام المحيط بي، لتظهر أمام عيني نفس القرية التي يوجد فيها مخبأ الفتاة الحرباء قبل أن تتحول إلى أطلال، وكأنني عدت إلى الماضي السحيق.

رحت أتأمل القرية في انبهار، فلم تكن مجرد قرية عادية بل عملٌ معماري عظيم على شكل دائرة متكاملة، مكون من عشرة من المنازل الحجرية الضخمة المزدانة جدرانها بالنقوش والرسوم الهيروغليفية التي أدركت الآن أنها مجموعة من التعاويذ والابتهالات والصلوات للحماية من الشرور الخفية.

وفي مركز الدائرة انتصبت بوابة حجرية ضخمة تم طلاؤها بمعدن الأوريخال السري، أحد ابتكارات كهنتنا العظام، والذي يقوم مقام الخلايا الشمسية الحالية والذي كان يمتص ضوء

القمرين المشعين، ويحوله لطاقة مختزنة بداخل البوابة، التي أدركت على الفور كونها إحدى بوابات النجوم، والتي تختلف عن الغرف في كونها محدودة المدى.

وفجأة دوى صوت بوقٍ مرتفعٍ، واندفع من داخل المنازل الحجرية عشرة من الجنود الأشداء بأجسادهم القوية وعضلاتهم البارزة، في زي فرعوني عجيب مكون من إزارٍ كتاني قصير عليه حزام ذو حليةٍ معدنية، وسترة كتانية قصيرة بلا أكمام، بالإضافة إلى معاصم معدنية لامعة، وكل منهم يحمل في يده منشورًا زجاجيًا متألقًا، أحاطوا بالبوابة الحجرية التي تألقت بضوءٍ أخضر رهيب غطى على ضوء القمرين، وأعمى عيونهم جميعًا لبعض الوقت قبل أن يتلاشى ليظهر على وجوههم جميعًا التحفز والترقب، وكأنهم ينتظرون ظهور شيء ما.

العديد من الرؤوس أطلّت من نوافذ المنازل المرتفعة لرجال ونساء بالأزياء المصرية القديمة، ويظهر على وجوههم الهلع وأبصارهم تتوجه صوب البوابة الحجرية.

وعلى الفور انتقل توترهم إليّ، فنظرت إلى البوابة ذات الأحجار المتألقة متوقعًا كارثة، فلاحظت أن الأحجار الصغيرة من حولها قد ارتفعت عن سطح الأرض لقدمٍ أو يزيد، وأن الهواء توتر وكأنما تمّ شحنه بشحنةٍ عاليةٍ من الطاقة.

وبغتةً دوت العبارة في رأسي باللغة المصرية القديمة التي

فهمتها دون جهد أيضًا:

- لقد اخترق جنود العدو المجال، أوقفوهم.

وفجأة ارتفع جسد أحد هؤلاء الجنود في الهواء، وهبط على رأسه مهشم العنق في مشهدٍ صادمٍ دفع بعض النساء الفزعات في النوافذ لإطلاق بعض الشهقات، التي تحولت لصرخات عندما بدأ الجنود يتساقطون الواحد تلو الآخر مهشمي الأجساد في مشهد مروع، وكأن هناك عملاقًا خفيًا يهاجمهم ويفتك بهم.

الصوت يصرخ:

-الدروع.

وعلى الفور استجاب له من تبقى حيًا من الجنود وضغطوا على الحلية الموجودة في أحزمتهم، ليحيط بكل منهم نطاق فيروزي باهت من الطاقة، والمنشور يتألق في أيديهم، ويخرج منه نصلٌ متألق، راحوا يهاجمون به الفراغ في ضراوة، ويتصدون بمعاصمهم المعدنية لضربات العدو الخفي.

صوت آخر يهتف، قبل أن يجهز عليه العدو الخفي:

- الدروع واهية جدًا.. لقد تضاعفت قوة ضرباتهم ثلاث مرات على الأقل، نحتاج للمزيد من الدعم.

تلفتُّ حولي في ذعر محاولًا تحديد موقع هؤلاء الأعداء الخفيين الذين كانوا يفتكون بالجنود دون رحمة، ودون أن يظهر لهم أدنى أثر وأحدهم يصرخ:

- إنهم يستغلون تقنية الاختفاء، قاتلوا بغريزتكم كما تدربتم، صوبوا على أعناقهم، فالطريقة السريعة لقتلهم هي قطع الرؤوس.

كان من الواضح أن الكفَّة تميل لصالح المهاجمين، وإن هي إلا ثوانٍ معدودة ويفتكون بالجنود ويستولون على القرية بأكملها، ويعملون فيها القتل.

تابعت المعركة المحتدمة بين الطرفين، ورحت أبحث بعيني عن دعمٍ قادمٍ للجنود الذين أظهروا شجاعة منقطعة النظير، عندما ظهر عند مدخل أحد المنازل، رجل ضخم الجثة له ملامح حادة وجسد متناسق العضلات، ويرتدي شارة قائد الجنود، والذي هتف في من تبقى من الجنود بصرامة:

- لقد أتى الدعم.. تراجعوا...

وبشكلٍ منظمٍ ومحترف، تراجع من تبقى من الجنود وهالات الطاقة الفيروزية تخفت تدريجيًا دليلًا على قوة ضربات ذلك العدو الخفي الذي أطاح باثنين آخرين منهم، ليرج المكان صوت خوارٍ رهيب.

ويظهر (أنوبيس).

أو حارس الغرفة.

هذه المرة رأيته بوضوح، وبشكل كافٍ لأدرك كم هو مرعب وقبيح.

وعندما دوى أمر القائد بالهجوم، استحال المكان لجحيمٍ

عاصف من الخوار وأصوات التمزيق والصراخ.

وانطلقت زوائد (أنوبيس) لتقاتل وتمزق أشباح خفية لا أراها، ومن حركاته السريعة أدركت أنه يقاتل أكثر من مهاجم.

وفي لحظات أحاط بالمكان سحابةٌ كثيفةٌ من الغبار، ثم بدأت دماء خضراء متوهجة تتناثر من قلب السحابة، وكأنها تنبع من العدم، قبل أن أسمع الصوت الصارم يصرخ:

- توقف .. أريده حيًا..

لحظات وهدأ الغبار، ثم تحرك (أنوبيس) عائدًا وزوائده تلتف حول شيء خفي ينزف تلك الدماء الخضراء، لينتشر ما تبقى من الجنود وهم يؤمّنون نطاق المكان، ليقول القائد موجهًا حديثه لمن في المنازل الحجرية:

- المكان أصبح آمنًا.. ليعد كلّ منكم إلى عمله.

وفي اللحظة التالية تلاشى كل شيء وساد ظلامٌ ثقيل، لأجد نفسي بعدها أعبر عتبة أحد المنازل التي كان يخرج منها صوت صراخٍ رهيب، وكأن هناك من يسلخونه حيًا.

المنزل يرتج بالصرخات، أندفعُ لأفحص الغرف الواحدة تلو الأخرى لأجدها جميعها خالية.

وفجأة جذب انتباهي نقش في الجدار المقابل للباب الموجود في الغرفة الشرقية، راح يتألق، فلم أفهم للوهلة الأولى هل تألق بسبب دخولي الغرفة أو لسبب آخر، ثم انتبهت لأن الجدار يدور حول محوره، ويخرج من خلفه أحد

الجنود مهرولًا، فانتهزت الفرصة وعبرت مدخل الباب السري الذي أُغلق خلفي.

صوت الصراخ يرج المكان رجًا ويوتر أعصابي، فاندفعت نحوه مسرعًا وقد شملني التوتر، لأجد أمامي درجًا هابطًا.

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي عند نهايته، وبمجرد النظر قدرت عمقه بحوالي ثلاثة طوابق.

انتهى الدرج إلى ممرٍ قصيرٍ، لمحت في منتصفه غرفة يخرج منها ما يشبه فلاشات متعاقبة، والصراخ مستمر.

قطعت الممر القصير وعبرت مدخله لأتجمد في مكاني من الدهشة؛ ففي وسط الغرفة استقر صندوق زجاجي سميك الجدران، وبداخله أبشع مخلوق يمكن أن يقع عليه بصري في يوم من الأيام.

له وجة مسحوب أقرب للسحالي منه إلى الثعابين، تتوسطه عينان خضراوان مشقوقتان طوليًا، ويغطي جسده بالكامل جلدٌ حرشفي أخضر أظهر عضلاته القوية، ويتعدى طوله المترين، وكان يطلق أبشع الصرخات وهو يتلوى بداخل الصندوق، وصواعق زرقاء عنيفة تضرب جسده، وكأنهم يعمدون لتعذيبه.

نظرت حولي فوجدت امرأة متجهمة، تخلط سائلين مختلفين في اللون والقوام في أنبوب زجاجي، وتطلقه عبر فتحه جانبية في الصندوق الزجاجي، وهي تقول في توتر:

- جرعة أخرى ويتخثر دمه وتتجمد خلاياه، ونفقده إلى الأبد، فهل انتهيتم؟.

أجابها شخص حاد النظرات، يتابع باهتمام لوحًا بلوريًا متألقًا تتراص فوقه بعض الكتابات العجيبة:

- دقائق وننتهي من مسح كامل ذاكرته يا (أهارا)، نحتاج فقط إلى التأكد من معلومة أخيرة.

الصرخات الهادرة لا تنقطع، ولا أعرف كيف يتحملونها.

نظرت بتوتر نحو ذلك المخلوق الرهيب، ثم عدت ببصري إلى المرأة التي صاحت:

- نحن لا نمتلك تلك الدقائق يا (أوسر).. إنه سيموت.

هتف (أوسر) في حنق:

- ليذهب إلى (سج) يا (أهارا).. لابد أن نتأكد من المعلومة.. القائد ينتظر التأكيد، هل ستتحملين نتيجة إخفاقنا بسبب رهافة قلبك؟.

ظهر على وجهها الانزعاج، وردت في توترٍ:

- بالطبع لا.. لكنه عذاب رهيب.. فخلاياه لن تتقبل ما نفعله بها وستنهار حتمًا.

رد في اقتضابٍ:

- لقد صنعنا لهم هذا الفخ، وانتظرنا كل هذا الوقت، وضحى العديد من الجنود بأرواحهم من أجل هذه اللحظة، لا شيء

يهم غير المعلومة، و..

قالها (أوسن) ثم قطع حديثه والذهول يترسم على وجهه وهو ينظر للوح البلوري، قبل أن يصرخ:

- هؤلاء الهمج فعلوها، لابد من إبلاغ القائد، لابد من إبلاغه.. حافظي على حياة هذا الحقير بأي ثمن ..

قالها ثم اندفع خارجًا، فاندفعت خلفه، و..

وأظلم كل شيء.

لأجد نفسي في غرفة القائد، الذي كان يجلس جلسه تأملية، أنهاها قبل أن يدخل عليه مساعده (أوسن) -وكأنه شعر به- والذي دفع باب الغرفة، ودخل بوجه ممتقع وكأنه يحمل خبر هلاكه شخصيًا.

وعندما وقع بصر قائده عليه ابتدره قائلًا:

- هل انتزعتم من عقله المعلومات؟.

أجاب مساعده في توتر:

- لقد تأكدنا من صحة المعلومة للأسف أيها القائد (أوناس)، لقد قاموا بتحرير (السرعون) وهجومهم الغادر كان لتقدير قوة الحامية على البوابة، إن هدفهم الأساسي يتعدى الغرفة بكثير.. كان علينا أن نُبيد هؤلاء الملاعين قبل أن تقوى شوكتهم بمثل هذه الطريقة.

وهنا صمت القائد (أوناس) لبعض الوقت، وكأنما لم يعجبه

طريقة مساعده في الحديث، ثم قال في صرامة:

- لم يفت الأوان بعد يا (أوسر)، لقد منحنا الملك كل الصلاحيات، وأمام هذا الخطر غير المسبوق، آمرك بأن تستدعي قوة (سخمت) كاملة.

شهق (أوسر)، وقال بلهجة مستنكرة:

- هل ستواجه الشر بشرٍ أعظم منه؟.

هزّ القائد رأسه وقال:

- لا يفلُّ الشر إلا الشر.

وهنا أظلم كل شيء، وعدت لأهوي في نفس الهوة المظلمة من جديد، لأجد أمامي الكاهن الفرعوني المهيب وهو يخرج من نطاقه منشور زجاجي يشبه الذي كان يحمله الجنود، ضغط على مقدمته فتدفق منه شلال من الضوء أحاط بي، لأشعر بطاقة هائلة تملأ جسدي، لأنتشي للحظات قبل أن أشعر بألم ممض في كل خلية من خلاياه.

شل الألم لساني، فلم أقوَ على الصراخ أو الاعتراض.

وبغتةً تركز الألم في رأسي، وشعرت بمخي نفسه ينصهر ويسيل، فقبضت على رأسي بيدي، وهنا انفجرت في رأسي آلاف من الصور والمشاهد والمعلومات.

شيء ما من أعماقي أخبرني أن أقاوم، ألا أدعها تتسرب من رأسي.

لم أفهم هل هي تتدفق إلى عقلي، أم العكس..

عقلي يسيل وجسدي يحترق.

أفتح عيني..

تلتقي عيني بعيني الكاهن، ثم أرى الأنياب التي تهمُّ بنهش عنقي، فأصرخ ثم أستيقظ.

لأجد الكاهن يلصق مفتاح الحياة المجنح على صدري، والمفتاح الذهبي يلتهب ليحرق صدري.

أصرخ من الألم، وأستيقظ..

كان حلمًا بداخل حلم...

رائحة عطر (الكيفي) تدير رأسي، والكاهن يقبض على رأسي من الخلف، ويضع سكينة على عنقي وينطق بكلمات ذات وقعٍ ثقيلٍ، وعندما بدأ دمي يسيل تألقت الغرفة بضوء أبيض رهيب.

بداخل حلم..

لأسمع الصوت السمج، يرج عقلي رجًا:

- استيقظ، استيقظ أيها الأحمق.. لا تستسلم لألاعيب الغرفة.

هببث جالسًا في مكاني غير مصدق أنني استيقظت، وأنا أقول في دهشة:

- يا إلهي.. أنا حي.. كيف هذا؟ لقد ذبحني الكاهن.

هتف الصوت في ضيق:

- كُف عن حديثك الساذج هذا، فالغرفة تعبث بعقلك.

هتفت ذاهلًا:

- لم يكن الأمر كله عبث، لقد رأيت بداية الـ

قاطعني في غضب:

- لا تخبرني بشيء.. وتعلم أنها أسرارك وحدك.. لا تفشها لأحد.. وهلم تحرك من مكانك، الحارس على وشك الخروج، وبطريقتك هذه لن تنجز مهامك، عليك تفعيل ساعتك البيولوجية الخاصة، لا تكن على هذه الدرجة من الإهمال، فلا أحد سيقوم بعملك، ولا معجزات تحدث هنا.

تذكرت الأهوال التي مررت بها، فانقبض قلبي، وشحب وجهي، وزاد توتري وكراهيتي لصاحب هذا الصوت الذي بث لا أطيقه، وأصبح في نظري كنبي الكوارث، كل أحاديثه نبوءات تبشر بمصائب قادمة لا تنتهي، وسألته في حيرة وآلاف من المشاهد تتدفق إلى عقلي وتربكني:

- أنجو من ماذا؟

رد بكل برود:

- كل شيء ضدك في هذا العالم، وعليك أن تقهره.

لعنته في سري وأغمضت عيني قليلًا في انتظار أن يهدأ شلال الذكريات المتدفق.

وقبل أنا ينتهي الأمر، اهتزت الغرفة أسفل قدمي ومعها راح مخي يرتج في رأسي، فانتفضت واقفًا.. ومشهد زوائد (أنوبيس) القاتلة، وإصابة ساقي لا تفارق مخيلتي..

أصابني ذعر شديد، وهممت بأن أتحرك لأستدعي الباب ثم توقفت.

صوتٌ هادرٌ يتردد بلغة الأجداد في ذهني يحثني ألا أهلع، ويستفز شجاعتي، فيتبخر ذعري كأنه لم يكن وأقول في تصميم:

- لن أهلع..

الصوت يتردد في أعماقي:

- أنت جزء من الغرفة، والغرفة جزء منك.

فأهتف في صرامة، وأنا أثبت قدماي على أرضية الغرفة:

- الغرفة جزء مني، وأنا جزء منها.

لأشعر بطاقة رهيبة تتدفق إلى جسدي..

بل منه وإليه.

لتشملني السكينة ويتلاشى فزعي ويحل محله ثقة لا متناهية، فانتهزت الفرصة لأحاول التواصل مع حارسها لإخضاعه، فصرخت بحزم وباللغة المصرية القديمة:

- الخطر انتهى.. لا تظهر إلا عند استدعائك.

اهتزت الغرفة بقوة، وكأنما حديثي لا يأتي على هوى

حارس الغرفة.. فعدت لأهتف في صرامة:

- الخطر انتهى.. ولا حاجة لوجودك.

تجسد الباب الأسود أمامي، وتألقت الشمس المجنحة التي تزينه بشدة، وبدأ الضوء الأحمر يتسرب من تحته منذرًا بخروج الحارس، لكني لم أكن أبالي، وعدت لأهتف في صرامة أكبر:

- مهمتك حمايتي وحماية الغرفة.. ما تفعله يناقض ما لقّنك إياه القائد (أوناس).

وكأن ذكر (أوناس) أصابه بالجنون، راحت الغرفة ترتج بشدة، فباعدت بين قدمي وفردت ذراعي، وشعرت بطاقة باردة تتخلل كل خلايا جسدي، فوقفت في منتصف الغرفة متجاهلًا الضوء الأحمر الذي بدأ يتكاثف، وصرخت في قوة:

- توقفي أيتها اللعينة.. لن تطيعي أحدًا غيري.

وهنا شعرت بصدري يشتعل، وبنقش مفتاح الحياة المجنح الذي طبعه الكاهن على صدري يتألق، ومعه تتألق ستة من مفاتيح الحياة المجنحة على الجدران الأربعة والسقف والأرضية، ليتضاعف الارتجاج وتبدأ الغرفة في الدوران من حولي، وأنا على وقفتي التي تشبه رسمة الإنسان الفيتروفي، قدماي متباعدتان، ويداي ممدودتان على جانبي جسدي.

كنت أتابع الجنون الدائر حولي بهدوء.

شيء ما بداخلي يتغير، ورابطة عميقة تنشأ بيني وبين

الغرفة.

أشعر وكأن الغرفة نفسها تنبض بالحياة..

بل وتتنهد وتتنفس في راحة..

شعور عارم بالاحتواء يتملكني..

وكأنما تربت الغرفة على روحي..

الغرفة تعرفت على قاطنها أخيرًا.

الغرفة تشعر بالامتنان لأنه حررها أخيرًا.

وقاطنها يبادلها الامتنان.

أغمضت عيني وتركت تلك الطاقة الباردة تتخللني، ودون أن أفتح جفوني، رأيت حارس الغرفة يعبر الباب بخطوات ثابتة، وزوائده تنطلق نحوي.

لم أفزع أو أهلع..

فصحيح أني أعدت تواصلي وسيطرتي على الغرفة، ولكن حارسها ما زال على تمرده.

قبل عدة ساعات كان يمكن أن أهرب؟.

ولكني الآن عليّ أن أواجهه أو..

يا إلهي.. على أن أؤجل المواجهة لوقت آخر؛ فأهم معلومة وأخطرها منحتها لي الغرفة الآن.

إن الغرفة سلاح رهيب، وتقدم لقاطنها دعمًا لا محدود.

إنها تعمل بكامل طاقتها الآن.

وتحدد أولوياتي.

الآن بتُّ أعرف أين توجد المقبرة المحرمة.

وعليّ أن أتحرك في أسرع وقت.

لذا، وبكل مرونة ورشاقة، قفزت جانبًا وتفاديت الزوائد القاتلة لحارس الغرفة الذي أطلق خوارًا غاضبًا وحاول اقتناصي مرة أخرى، فهبطت خلفه، ثم دفعته بقدمي ليرتطم بجدار الغرفة، ويعود ليهاجمني وأنا أبتسم.

وقبل أن تلتف زوائده القاتلة حولي، تواصلت مع الغرفة عقليًا، ودون تأخير ظهر أمامي الباب، فابتسمت مرة أخرى وأنا أردد هامسًا:

- كم أنتم عظماء أيها الأجداد.

ثم اندفعت نحو الباب، وبلا تردد قفزت خارجه، لأهبط على قدمي في نعومة، ليصدم بصري مشهد الصحراء المترامية الأطراف التي ألقتني إليها الغرفة، لأهتف في عبثٍ:

- أتمنى ألا تخبئي لي تحت رمالك أي مفاجآت.

كان تأثير تلك الطاقة الباردة مذهلًا، فهي لم تمنحني السكينة فقط بل القوة الجسدية والذهنية، إن خطأ أبي الكبير أنه حاول ترويض الغرفة ولم يحاول التواصل معها، واعتمد على قوته التي منحها له عقار الزواحف.

لم أشعر بأي وحشة في الصحراء، بل شعرت بطاقةٍ هائلةٍ تسري بيني وبين رمالها، فرحت أمسح المكان ببصري ليخطفني منظر الرمال المتوهجة المهيب، والكثبان الرملية التي ظهرت لعيني على مدى البصر كقبابٍ لامعةٍ.

تاريخ المنطقة القديم كله يتدفق إلى عقلي.

فمنذ ثلاثين ألف عامٍ، لم تكن هذه المنطقة صحراء جرداء كما هي بل كانت جنة من النباتات، يتوسطها نهر عظيم، لكن الأمور اختلفت الآن ولم يعد هناك إلا الرمال.

وبكل هدوء بدأت رحلتي، ورأيت ما نتج عن الانفجار البركاني القديم الذي حوّل المنطقة إلى صحراء ميتة.

الطريق يختلف كثيرًا عمّا حفظته الغرفة في ذاكرتها، لكنني أمتلك الآن حواسًا حادةً قادرة على ترجمة المعلومة القديمة وفرضها على أرض الواقع.

القمران يظهران في قبة السماء كعينين ساخرتين، ولكني أواصل طريقي بكل همة، فلا شيء هام ينجز ببساطة.

وبعد نصف ساعة من السير البطيء المجهد وسط الرمال الناعمة، وجدت نفسي أمام حفرة متوسطة الحجم مدعمة جوانبها بالأخشاب المتوهجة، ويستند إليها سلمٌ بدائي مكون من الخشب والألياف يستخدم للهبوط والصعود منها، وتكشف عن مدخل مقبرةٍ حجريةٍ قديمةٍ تدل حالة المعاول البدائية الملقاة حولها في عشوائية أنه تمّ إزاحة الرمال عن مدخلها منذ وقتٍ قريب.

وجود المعاول وحدها أثار قلقي، فرحت أرمق الصحراء الخالية من حولي بشيءٍ من التوتر، وأنا أفكر:

- يبدو أنني قد تأخرت وهناك من سبقني إليها.

لم يكن هبوط السلم مشكلةً فبرغم حجمي الضخم ولكنه تحملني، إنه مصنوع ليتحمل أشخاص أقل وزنًا.

الآن أنا في قاع الحفرة.

هناك شيء خاطئ لا أعرف ما هو.

شيء بدأ يثير توتري، ويبث في عروقي طاقةً سلبيةً عنيفةً.

ولأنني لا أملك فعل أي شيء آخر، عزمت أمري وبدأت أتفحص ببصري مدخل المقبرة الذي يمتد أمامي لمترين أو يزيد بحرص خوفًا من أن يكون هناك أي فخاخ أو شراك خداعية منصوبة، وهيّأت نفسي للدخول.

كانت أرضية المدخل عبارة عن بلاطات متجاورة من مادة قريبة من المرمر، وجدرانها الداخلية تشع بضوءٍ خافتٍ يتيح رؤية معقولة، ويعد بالإصابة بتسمم إشعاعي.

ولكنه آخر مخاوفي الآن.

لم أرَ في المكان ما يريب، فسحبت نفسًا عميقًا وعبرت المدخل الخارجي، وقطعت الرواق القصير الذي أفضى بي إلى حائطٍ مصمتٍ، به فتحة صغيرة لا تكفي لعبور جروٍ صغيرٍ، لا بد وأن من حفروا الحفرة وحاولوا نقبه بالمطارق..

أوقفهم شيء ما.

وقفت أتطلع للثقب متوقعًا أن يخرج منه مسخ أو أن يبتلعني، أو ينطلق منه أي شيء لعين ليفتك بي.

ولكن كل شيء ظلّ كما هو، ففكرت أن أحمل المطرقة وأكمل ما بدأوه.

شعور غير مريح يجتاح كياني، وفكرة مرعبة تقفز إلى عقلي، جعلت يدي تتسمر فوق المطرقة.

فكرة زرعت شكًا رهيبًا في أعماقي تجاه الغرفة.

فالأمور سارت معها بسلاسة عجيبة.

فهل أنا من سيطر على الغرفة أم أنها هي من سيطرت علي؟.

ربما أنا مخدوعٌ الآن وأنفذ مخططهم.

ربما هذا هو ما يرغب الزواحف مني في فعله، وهو ما سيؤدي لخراب كل شيء.

صحيح أن هناك حربًا كونية مستعرة، وشرًا قديمًا يحاول العبور إلى الأرض، ولكن متى لم يكن هذا يحدث؟.

إن من يهمني في العالم الآن هما اثنان، أمي و(ندى) ولا أعتقد أن العبث في الزمن قد يمنحهما حياة أفضل.

لقد عاشت أمي ما يكفي من آلام وأحزان ولا يجب أن أقامر بجعلها تعيش حياة جديدة قد تنتهي نهاية أسوأ، و(ندى).

يا إلهي..

هل سأدع (ندى) تعاني ما عانته أمي بهجري لها، وبقائي في أسر الغرفة؟.

اللعنة..

ماذا يحدث لي؟.

أي شرٍ لعينٍ يسكن هذه المقبرة.

هل المقبرة تُحرر المخاوف؟.

أهذا هو المسخ الذي أثار ذعر من حفروها؟.

إن الفزع يتملك مني بشكل مفرط.

ولابد أن أغادر المكان.

أعتقد أن قتل نفسي قد يتسبب في..

اللعنة..

ما الذي أفكر فيه؟.

ركلت قطعةً من الصخور في غضب، ورحت أتتبعها وهي تصطدم بالجدار الذي تموج بشكل عجيبٍ.

وهنا تألقت ذكرى قديمة في عقلي، ورأيت نفسي محتجزًا بداخل المقبرة وسط ظلامٍ دامس.

تضاعف هلعي، وهممت بالخروج من المقبرة، عندما لمحت بعيني التحذير المنقوش أعلى الجدار المثقوب.

كان التحذير مباشر ومفزع في الآن نفسه، وقرأته بكل بساطة وكأنه كتب بلغتي الأم:

(من يجرؤ على تدنيس المقبرة المحرمة، لن يجد الموت الذي يريحه من عذابه الأبدي).

بليغةٌ هي لغة القدماء، بل ومفزعةٌ، وقادرةٌ على تغيير القناعات إلى الأبد.

هزني التحذير من أعماقي، وجعل قشعريرةً باردةً تزحف على عمودي الفقري؛ فأي إنسانٍ عاقلٍ لن يكمل طريقه بعد أن قرأ هذا التحذير الذي يعد بالأسوأ من الموت.

بالعذاب الأبدي.

وبكل هلعٍ تسلقت الحفرة خارجًا من المقبرة.

وقبل أن أقفز خارجها، لمحت سحابة الرمال والغبار التي كانت تتقدم نحوي.

أصابني هلع مضاعف، وصرخت وأنا أقفز عائدًا إلى الحفرة:

- إنهم قادمون من أجلي.

وما أن لامست قدماي الرمال، حتى سمعت صوتًا حلقيًا متكررًا، فاستدرت بسرعة لأجده يقف خلفي ولسانه المشقوق يتحرك بين شدقيه.

لقد كان أحد السحالي البشرية بهيئته المفزعة.

لقد أطبق الفخ عليّ من كل الجوانب.

ولم يعد هناك مفر.

وقبل أن أقوم بأي رد فعل، أطلق ذلك الكائن الرهيب صيحةً هائلةً مزقت طبلة أذني.. ليصعقني الألم.. وأفقد الوعي.

***

صندوق أوزوريس

لأنك رأيت كل شيء

عندما فتحت عيني أصابني الذعر، فقد كان هناك ستة أزواج من العيون المفزعة تتفحص وجهي.. عينان سوداوتان بلا بياض، وعينان صفراويتان يتوسطهما بؤبؤ أحمر، وعينان فيروزيتان لامعتان.

وعلى الفور نهضت من مكاني وأنا ألوّح بقبضتي صارخا:

- أذناي أيها الوغد.

ثم انتبهت لأنه لم يعد هناك أي أثر لذلك الزاحف البشري المخيف الذي يستخدم الموجات الصوتية كسلاح فتاك، وأن أذناي بخير وأسمع صوتي بسهولة، وأنني أقف أمام ثلاثة من مسوخ هذا العالم الملثمين.

الأول نحيل جدا وهو صاحب العينين الصفراوين ذواتي البؤبؤ الأحمر، والثاني قصير وبدين، ويقع في تلك المسافة المحيرة بين القزم والشخص القصير وهو صاحب العينين الفيروزيتين، والثالث أعتقد من تضاريس جسدها كونها فتاة وبالطبع هي صاحبة العينين السوداوين، والثلاثة كانوا يرتدون أزياء مموهة تستطيع بألوانها القريبة من لون الرمال أن تخفيهم في قلب الصحراء، وخلفهم ثلاثة مخلوقات غريبة تشبه آكل النمل، لكنه في حجم ثور بالغ.

رمقني الثلاثة بتركيز وكأنهم ينتظرون منّي أن أقوم

بالخطوة التالية، فتراجعت خطوتين للخلف ثم سحبت الحزام من سروالي، ولففت الجزء الجلدي حول يدي، وتركت الجزء المعدني حرًا لأستخدمه كسلاح مرتجل.

وقبل أن أقوم بأي رد فعلٍ عنيف، أزاحت الفتاة لثامها عن وجهها وقالت في لهجةٍ عابثةٍ:

- مرحى لقد تلبستك أخيرًا روح الأجداد.

تنفست الصعداء وأنا ألتهم ملامح وجه الفتاة الحرباء ببصري غير مصدق ظهورها في هذه اللحظة، وهذا المكان، وهتفت في امتنان:

- لم أتخيل يوما أن أكون سعيدا برؤيتك مثلما أنا الآن.. هل رأيتما ذلك الزاحف البشري؟

تبادلا النظرات، ثم أجابت:

- عندما وصلنا إلى هنا.. لم يكن هناك أحد غيرك.

قلت في حيرة:

- ربما عاد إلى المقبرة.

عادا يتبادلان النظرات، وقالت:

- أي مقبرة؟.

استدرت لأنظر إلى الحفرة، فلم أجد إلا الرمال..

لا مقبرة..

لا حفرة..

لا زاحف بشري.

وهنا صمتٌ لفترة أعيد فيها ترتيب أفكاري، ثم قلت في حسمٍ:

- حسنًا.. سنحفر هنا..

هزّت رأسها متفهمة، ثم قالت بجدية:

- أخبرتك أنك من ستحدد الوقت .. وها أنت وصلت للمكان أيضًا.

ابتسمت لإجابتها ورحت أتأملها هي ورفيقيها وحيواناتهم الغريبة، ثم قفز السؤال إلى رأسي:

- أنا لم أكن أعلم لأين أتوجه، ولأين تقودني قدماي، عندما ألقت بي الغرفة إلى هذه الصحراء.. فكيف علمتم بمكاني؟.

أجابت ببساطة، وهي تشير للرجلين أن يتقدما:

- نحن لم نتركك لحظة واحدة سواء داخل الغرفة أو خارجها، صحيح أننا لم نجرؤ على إخبارك بكل شيء، ولكن حان الوقت لتعلم من كلفهم أبيك بحمايتك.

قالتها ثم أشارت للنحيل الذي تقدم منّي في رهبة، ورفع اللثام ليظهر أسفل منه وجهٌ نحيلٌ تبدو بداخله العينان الصفراوان بالبؤبؤ الأحمر كثقبين، وأحنى رأسه محييًا في مهابةٍ دون أن ينطق بكلمة، فقالت:

- (جام) من السكان الأصليين للكوكب، وقد نذر الصوم عن الكلام حتى يتم مهمته والوعد الذي قطعه لأبيك، أنت لا تعلم مكانته عنده وعند قومه.

وهنا هتفت دون تفكيرٍ:

- هذه المعلومة لدي بالفعل، لقد رأيت قلادة أحدهم وأدركت أن هؤلاء الوثنيين يعبدون أبي، ويقدسونه.

هتفت في استنكار:

- من أين لك بمثل هذه الأفكار الشاذة، إن جنس (البوريد) لا يعبد سوى إلهًا واحدًا، إنهم فقط يرون كل قاطن للغرفة مبعوث من السماء، لأن من هداهم إلى هذا الإله هو قاطن الغرفة الأول، ولذلك يحملون لهم كل تقديسٍ واحترامٍ.

أراحتني إجابتها كثيرًا، فلم أكن أحب أن يتم العبث بعقائد أي شخص، ناهيك عن شعبٍ بالكامل، ثم توترت وأنا أفكر في كُنه ذلك الإله الذي دعاهم لعبادته القاطن الأول، حينما قفزت الإجابة لعقلي فابتسمت وأنا أهز رأسي لـ (جام) محييا، ثم تطلعت إلى مرافقها الآخر الذي نزع لثامه، فتساءلت في غموض:

- ألم تتعرف عليه بعد؟

هززت رأسي، وأنا أتأمل هيئته المريبة.

كان قصيرًا وبدينًا، له وجه كثيف الشعر، وشعر أجعد أحمر اللون، وأذنان مستدقتان عند الأطراف، ولديه جفن إضافي

على عينه الفيروزيتين المتألقتين، ويحمل في يده هراوة ذات رأس مسنن، عليها بقايا دماء وأشلاء.

لم تكن لهيئته أو ملامحه أي صدى في عقلي، فقلت في دهشة:

- إنه من هيئته لا يبدو بشريًا، وأنا لم أقابله من قبل قط.

وقبل أن ترد علي، تحدث البدين بصوت لم تخطئه أذناي قائلًا:

- أنا (سور) من جنس (الأوبال) أول من تواصل معك على هذا الكوكب.

شهقت من المفاجأة، وقلت في عدم تصديقٍ:

- نبي الكوارث.. أنت صاحب الصوت المستفز.

ردّ في فخرٍ:

- كانت مهمةً خطيرةً ولكنني تصديت لها، فمقتفي الأثر كانوا قادرين على رصد اتصالي معك.. وتعقبي واصطيادي.

قلت في شكٍ:

- الصوت صوتك حقًا.. ولكن كيف استطعت التواصل معي بهذا الوضوح؟

أخرج من جيبه قدّاحتي، ولوح لي بها:

- بواسطة هذه.. وهي نفسها من قادتنا إلى موقعك الحالي.. فأنا أفضل متقصي أثر بين بني جنسي.

رمقت القداحة في دهشةٍ، وهتفت:

- ألم يعد أبي إلى عالمنا.. ألهذا لم يتواصل معي من بعدها؟.

تبادل نظرة مترددة مع الفتاة الحرباء التي قالت بحسم:

- المعرفة على قدر الحاجة، إنك عائد لا محالة إلى الغرفة، ولا يجب أن نكشف لك كل الأوراق قبل أن نتأكد من أنك بسطت سيطرتك عليها بشكلٍ تامٍ.

كان حديثها منطقيًا، ويوافق هواجسي، فسألتها بلهفةٍ صادقةٍ:

- هل هو بخير؟

فأجابت بحياديةٍ:

- كل شخص، وكل شيء، سيكون بخير لو أتممت مهمتك.. لا تفكر إلا في مهمتك، نحن في منطقةٍ مكشوفةٍ ويسهل تتبع أثرنا الطيفي، أخبرنا أين نحفر تحديدًا؟.

هتفت في دهشةٍ:

- لماذا تتعاملين معي بمثل هذه الثقة؟.

قالت في إيمانٍ:

- لأنك رأيت كل شيء.

قلت في عنادٍ:

- ربما رأيت، ولكني لا أذكر منه شيئًا، فهل فشلنا قبل أن

نبدأ؟.

قالت في تفهم:

- نحن سنحفر، و(جام) سيساعدك على التذكر.

وعندما اقترب مني (جام) تراجعت إلى الخلف، ورسمت على وجهي نظرة محذرة، لكنه تحرك أسرع من تفكيري ووضع يده على رأسي، فأظلم كل شيء كما حدث في أحلامي مع الكاهن.

وعندما انجاب الظلام رأيت نفسي بصحبة القائد (أوناس) نقف أمام المقبرة، التي لم تطمرها الرمال بعد.

عبرت المدخل خلفه، إلى أن وصل إلى الجدار الذي لم يثقب بعد، وعيناي تمران على النقوش التي تمثل التحذير المخيف، وعقلي يترجمه بشكل لاإرادي.

(من يجرؤ على تدنيس المقبرة المحرمة، لن يجد الموت الذي يريحه من عذابه الأبدي).

ضغط (أوناس) بطرف إصبعه على أحد النقوش البارزة، فظهرت خلفه فجوة، مد يده بداخلها وأخرج صافرة على شكل مفتاح الحياة المجنح، وضعها بين شفتيه وأطلق صفيرًا منغومًا.

وعلى الفور سمعت صوت هدير دوران بكرات هيدروليكية عملاقة، وهبط الحاجز الصخري إلى أسفل ليكشف عن ممرٍ قصيرٍ يبلغ طوله ثلاثة أمتار، قادنا إلى ممرٍ أقصر، انحرف بنا

في النهاية إلى غرفة جانبية خالية.

رأيته يتقدّم نحوها ثم يقف في منتصفها، ويطلق صفيرًا خاصًا بتتابع معين، التصق في ذهني إلى الأبد.

ما حدث بعدها كان ضربًا من الخيال، فقد تباعدت بلاطات الغرفة عن البلاطة الوسطى التي يقف فوقها (أوناس) لأرى أسفلها هوة عميقة تتوهج جدرانها الصخرية.

كان من الواضح أن المقبرة أُنشئت فوق مجموعة من الكهوف الجوفية العميقة.

وبنعومة راحت البلاطة تهبط إلى أسفل، دون أي روافع أو حبال.

إنه الاستخدام الأول للتكنولوجيا المضادة للجاذبية.

لقد قرأت كثيرًا عن فرضية صندوق أوزوريس وكيف كان الكهنة يرفعون صخور الأهرامات التي تزن عشرات الأطنان مستخدمين صندوقًا صغيرًا يحمله الكاهن لمسافة تصل لثلاثين ذراعًا كل مرة.

ولابد أن هنا أصل هذه التقنية.

هبطت بنا البلاطة إلى عمقٍ كبيرٍ، والغريب أن الهواء على عكس المفترض كان باردًا، فهل توصلوا لتكنولوجيا تبريد الهواء أيضًا؟.

هناك مئات الدلائل عن وجود حضارات أكثر تقدمًا من حضارتنا الحالية، فماذا حدث لكل هذه العلوم؟.

حاولت أن أستدعي الإجابة من أعماق ذاكرتي، لكنها كانت الإجابة الوحيدة التي تشوشت في عقلي، وكان هذا يعني أن وراءها سر خطير، سأسعى ذات يوم لكشفه، فلا أتوقع أن نكون آخر سلاسة ناجية كما قال أبي، فكل هذه العلوم والتقنيات والتقدم لا يمكن أن يندثروا بهذا الشكل.

وقطع أفكاري رؤيتي للقائد (أوناس) وهو يغادر البلاطة بعد أن وصلت إلى قاع الهوة ويقف في منتصف الكهف الهائل الاتساع كالتمثال وهو يرهف سمعه، كأنه يتأكد من أنه لا يوجد من يتبعه.

وبعد برهة من الزمن، وضع الصافرة بين شفتيه وأطلقها بتتابع مختلف، لتصعد من باطن الأرض بلاطة أخرى فوقها صندوق زجاجي مزدوج متوهج من باطن الأرض، يرقد في نصفه العلوي الزاحف المخيف الذين نسخوا ذاكرته.

وبهدوء اقترب منه القائد (أوناس) ومسّ الزجاج بكفيه، وراح جسده يرتجف للحظات قبل أن يتم التواصل.

وفي هذه اللحظة دارت أعجب محادثة في التاريخ، بين قائد عسكري مصري همام تعود حضارته لثلاثين ألف عامٍ ويزيد، وبين أسير من جنس بشري هجين يحمل للأرض شرًا مستطيرًا.

ودون مقدمات دوى صوت ذلك المخلوق في رأسي:

- لقد عجزتم عن قتلي بالوسائل العادية.. فضولك يقتلك

لمعرفة السبب أليس كذلك؟.

أجابه القائد (أوناس) بصرامةٍ:

- نحن نعلم من تكونون وما الذي تبدل في بنيتكم، بسبب ذلك العقار الذي تحقنون به أنفسكم وحيواناتكم حاصدة الأرواح ونعرف النبات الذي تستخرجونه منه، ونعرف كيف نعثر عليكم.. وسنبيدكم جميعًا.

انتابت الحيرة المخلوق، وهو يتساءل:

- حسنًا.. لماذا أنت هنا؟.

أجاب القائد (أوناس) في هدوء:

- لأنني قادر على هذا.

ردّ المخلوق في جدية:

- ليست طبيعتك.. لقد درسناك جيدًا.. هناك سبب قهري أجبرك على إخراجي من سباتي.

أجاب (أوناس) في بطء:

- أرغب في أن توصل رسالة لقائدك.

قال المخلوق في لهفة:

- هل ستطلقون سراحي؟.

أجابه (أوناس) ببطء:

- نعم.

قال المخلوق في توتر:

- وماذا تنتظرون إذا؟.

أجابه:

- أن ينتهي منك.

ظهر التوتر على وجه المخلوق:

- ما الذي تعنيه؟.

وهنا وقع بصري على أغرب شيء رأيته في حياتي، ففي قاع الصندوق كان هناك آلاف من المخلوقات الدقيقة التي ميزتها بصعوبة، تعمل على استنساخ ذلك الزاحف الرهيب بشكل بطيء كأنهم يغزلون جسده من ملايين الخيوط المتوهجة.

كانت مفاجأة من العيار الثقيل، جعلتني أتساءل هل نحن حقا على بعد ثلاثين ألف عام من زمني في الماضي السحيق!!

لو أن أجدادي امتلكوا هذه الحضارة وكل هذا التقدم العلمي، فكيف لا نحكم العالم الآن؟.

وقبل أن أغرق في المزيد من الأفكار والتساؤلات شعرت بوعيي ينسحب ويعود لعالم الواقع، فرحت أنظر حولي في ذهول، لتبتدرني الفتاة الحرباء قائلة:

- هل تذكرت؟.

أجبتها في غضب:

- أعيدوني لم أنته بعد.

أشارت إلى (جام) الذي بدا على وجهه الإنهاك، فوضع يديه حول رأسي لأعود بذاكرتي لتلك اللحظة التي هاجمت فيها المخلوقات الدقيقة جسد ذلك المخلوق ومزقته إربا، لتندفع بقاياه إلى نسخته الموجودة في قاعد الصندوق المزدوج، ويخرج طيف أسود مضطرب تم احتواؤه بداخل الصندوق العلوي.

وعندما فتحت النسخة عينيها، تألقت عينا القائد (أوناس) في ظفر، ثم استدار إلى مساعديه.

وهنا أيقنت أنها ذكرى أخرى مختلفة تلي الذكرى الأولى، وبرغم هذا أنصتّ له بكل جوارحي، وهو يقول في حماس:

- لقد انتهى عملنا هنا.. كانت مخاطرة كبيرة بكل المقاييس، لقد دمجنا عددًا من العلوم المحرمة لنقوم بهذه العملية، ستبقى نسخته الطيفية حبيسة التابوت، ولن يسمح بحصدها لأي مخلوق حتى نعثر على الطريقة المناسبة التي ندمرها بها، فبعد أن اندمج وعيانا، أصبحت تلك النسخة تحمل أسرار العالمين، ولابد من تأمين المقبرة بشكلٍ كامل وحمايتها إلى الأبد، فالزواحف جنس حقير لا يمل أو ييأس، وسيرغب في العودة والانتقام.

حاولت أن أرى وجه من يحدثه، لكن الظلام أحاط بي ورأيت وجه الفتاة الحرباء يطالعني في اهتمام، فهتفت:

- اللعنة.. ماذا تفعلون؟.

أجابت في صرامة:

- لقد كشفنا مدخل المقبرة.. و(جام) لن يستطيع أن يواصل أكثر من هذا، لقد كاد قلبه يتوقف من المجهود المبذول.

صرخت في غضبٍ:

- ولكني لم أحصل على أي إجابات كافية.

هتفت في صرامةٍ:

- لابد أن تمنحه وتمنح نفسك بضع ساعاتٍ من الراحة.

كان فضولي قد استعر، ومخاوفي تأجّجت..

إننا نحفر مقبرة تحتوي على أخطر أسرار القدماء، عدوّ رهيبٌ يمتلك ذاكرة الزواحف بكل معارفهم وشرورهم، وذاكرة القدماء بكل ما تحتويه من أسرار ومعارف وعلومٍ محرمة، فهل تحريره شيء صائب؟.

لم أخبر الفتاة بأي من هذا، بل ابتعدت عن مكانهم قليلًا وغفوت، وفي عالم الأحلام رأيت (ندى).

كنت بحاجة إليها لأتحدث معها، لأشكو لها ما أنا واقع به، ولكنني رأيتها أمامي في أسوأ حال.

تبكي، وتلومني، وتتهمني بالخيانة.

كان الأمر ثقيلًا على روحي فلم أتحمله واستيقظت، وأنا أشعر بالاستياء؛ فحتى عقلي انقلب ضدي.

وعندما استيقظت كان الهدوء يسود المكان المحيط بالمقبرة والمعاول ملقاة على الرمال، ولا أثر لأي منهم.

وهذا دفعني للنظر بداخل الحفرة، التي لم تمنحني إجابات، فتبعتهم إلى أعماقها، وهناك رأيت المطارق والثقب الذي في الجدار، ولا شيء آخر.

فهل أنا أحلم؟.

أم أهذي؟

كل هذا تكرر من قبل..

فهل عدت أنا بالماضي، أم أنني؟.

اللعنة..

هل غادرت الحفرة أم لم أغادرها؟.

خرجت من الحفرة فلمحت كتيبةً كاملةً من حاصدات الأرواح يقتربن من موقعي في سرعة كبيرة، وهم يركضون على أطرافهم الأربعة كالسعادين، فقفزت إلى داخل الحفرة لتؤلمني قدمي.

لم أبال بالألم، بل نهضت بسرعة وأسقطت السلم الخشبي كي لا أمنحهم وسيلةً سهلةً لتتبعي، واندفعت أعبر المدخل إلى داخل المقبرة ومسكت المطرقة، وبدأت أنقب في الجدار.

ومع كل ضربة كان مخي يرتجُ في رأسي..

والألم يتضاعف، لكني لم أتوقف..

الضربات تتالى، لكني لم أتوقف..

أشعر برأسي يدور.. لكني لم..

هناك شيء خاطئ..

وفجأة شعرت كأن حرارة رأسي ترتفع، ومخي يكاد يسيل من عيني، فصرخت وفتحت عيني، لأجد نفسي ممددًا على الأرض ورأسي الغارق في العرق بين يدي الفتاة الحرباء، و(جام) يثبت يديه على صدري ويزوم بشكلٍ مفزع، ولم يتوقف عما يفعله إلا عندما انتبه لأنني استفقت، لتقول الفتاة الحرباء في اضطراب:

- لقد اعتقدنا أننا فقدناك، أكثر من أربع آلاف دقة قلب ونحن نحاول إفاقتك، لقد نفّذنا المطلوب وفتحنا المقبرة.

وقبل أن أرد عليها، هتف (سور) في روعٍ:

- لم يعد هناك وقت للراحة.. إنني أرصد أثر أطيافهن.. حاصدات الأرواح في الطريق إلينا.

هتفت في جزعٍ:

- لا يمكن أن يصلن لما بداخل المقبرة أو يحصلن عليه، هل لديك وسيلة سريعة لردمها او تفجيرها أو...

وهنا قاطعني صوت (سور) قائلًا:

- ألف دقة قلب ويصبحن هنا.

صرخت في اضطراب:

- كم من الوقت يعني هذا؟

أجبت الفتاة الحرباء:

- عشر دقائق بتوقيت عالمك.

هتفت في لوعةٍ:

- ألا يمكن أن يكون (سور) مخطئًا؟.

هزّت رأسها لتنفي الأمر، فقلت في توترٍ:

- حسنًا.. أعيدوني هناك.

قال (سور) في قلقٍ:

- أليس من الأفضل أن نغادر ونعود في وقتٍ لاحق.

لا أعرف لماذا أصررت على موقفي، وقلت:

- لا لن يغادر أحدنا قبل أن أنتهي.

هزّت الفتاة الحرباء رأسها بالموافقة، فاقترب (جام) الذي شحب وجهه من الإرهاق، ووضع يديه على رأسي.

لحظاتٌ ووجدت نفسي في تلك القرية القديمة، وتحديدًا أمام بوابة النجوم الحجرية التي هاجمهم منها الزواحف الخفيون، بينما اصطف على جانبيها العشرات من الجنود الذين أحاطوا أنفسهم بتلك الهالات الفيروزية، وقد تألقت نصال المنشور الزجاجي في يد كلٍ منهم بلونٍ أزرق بارد.

ومن وسط الجنود تحرّك ذلك الزاحف المستنسخ ليعبر

البوابة في الاتجاه المعاكس، لتسحبه بداخلها وتتوهج وهجًا شديدًا أضاء المكان، وأعمى العيون قبل أن يسود هدوء حذر.

ليظلم كل شيء، وأجد نفسي داخل إحدى القاعات السفلية لأحد المنازل، وقد جلس القائد (أوناس) ومساعديه (أوهارا) و(أوسر) فوق بلاطة بلورية دائرية كان في منتصفها دوامة ضوئية تتحرك من الداخل إلى الخارج في انسيابية.

وعندما توقفت الدوامة تصلّبت أجسادهم وثبتت نظراتهم، وبدأ وكأن وعيهم في مكان آخر.

وعندما رأيت ما يرونه.

أدركت حقيقة الخطر الذي يواجه الأرض..

وانقبض قلبي.

***

بداية النهاية

فهذا الكائن الدخاني، هو الشّر الرهيب الذي حرّره الزواحف من سجنه الأزلي.

هذه المرة أدركت أن وعي القائد ومساعديه اندمج مع وعي النسخة البديلة لذلك الزاحف المستنسخ، وأنهم من خلال عينيه وحواسه يتجسسون على عالم الزواحف الرهيب.

كانت تجربةً مذهلةً وفريدةً من نوعها لأن وعي الزاحف المستنسخ فور دخوله مجال كوكبهم اتصل بوعي الزواحف الآخرين، وبدأ يبثهم القصة الملفقة التي أعدها (أوناس) ومساعديه، وفتح أمامهم كنزًا من المعلومات والمعارف والأسرار الرهيبة.

وعندما تعمقت معهم في عقول الزواحف، تأكدت أن أصولهم ليست أرضية خالصة، أدركت لماذا يقاتلهم الأجداد بهذه الضراوة، ولماذا يحاولون منعهم من العودة إلى الأرض.

فالزواحف مخلوقات هجينة بين البشر الأوائل وزواحف ذكية من خارج منظومتنا الشمسية، وهم نتاج لإحدى تجارب كيان غامض من الكيانات الكونية العليا، لا تتوفر عنه معلومات كثيرة في ذاكرة الزواحف أنفسهم، الذي كان يهدف لتخليق كائنات خارقة القوة، يستخدمهم لخدمة أغراضه الخاصة، فراح يجمع المخلوقات الذكية من أرجاء الكون المختلفة، ويهجنهم مع بعضها البعض.

وكان نصيب الأرض منها ذلك الجنس الجهنمي المسمى بالزواحف، والذي جعلهم يستوطنون المنطقة الشمالية الباردة وأخضعهم للعديد من التجارب، لينشأ عنهم العديد من الفصائل ذات الصفات المختلفة، فمنهم الجوف أرضيين، والمائيون متوسطو الذكاء، والجنس الأعلى الذي يجمع بين صفات الجنسين، بالإضافة إلى قدرته على المحاكاة والاختفاء، والذين كانوا أذكى هذه الفصائل وأشدهم دموية.

وبرغم تنوع هذه الفصائل، لم تسفر هذه التجارب عمّا أراد ذلك الكيان الغامض، لضعف الجين البشري وعدم تحقيقه لطموحه، ولذلك أوقف تجاربه وغادر للبحث عن جنس آخر يحقق أهدافه وتركهم خلفه، فعاثوا خرابا بالكوكب وأفنوا أجناسًا وحضارات كاملة في البر والبحر، وصارت الدماء أنهارًا، واستنجد من تبقى من قاطني الشمال بأجدادنا العظام الذين حملوا عليهم، وتصدوا لهم بجيوشهم وأسلحتهم المتطورة.

وبعد حرب ضروس أفنوا فيها غالبية الفصائل، توارى من تبقى منهم من الجوف أرضيين في شقوق الأرض واستوطنوها، وهرب المائيون إلى الجزر البعيدة، بينما استغلت الفصيلة الأذكى البوابات النجمية التي صنعها القدماء، وهربوا إلى خارج الكوكب.

السؤال هنا لماذا لم يلاحقهم القدماء ويبيدونهم، كما فعلوا مع البرمائيين؟.

والإجابة، وجدتها هناك في ذاكرة القائد (أوناس)، فعلماؤهم رصدوا الكوكب الذي ألقتهم إليه بوابة النجوم، ووضعوهم تحت الملاحظة والدراسة، وظنوا أنهم سيستطيعون التحكم فيهم في النهاية لاستخدامهم كسلاح ضد الأعداء عندما يحين الوقت.

وللأسف توصل الزواحف بذكائهم غير المعهود لطرق توجيه البوابات النجمية، فاستخدموها لينتقلوا إلى كوكب آخر بعيدًا عن أعين القدماء، وراحوا يطوّرون من أنفسهم وقدراتهم، ويتكاثرون بشكل رهيب على حساب أجناس أخرى في كواكب عديدة، حتى صاروا قوة لا يستهان بها، وبدأوا في مهاجمة معظم قواعد القدماء على الكواكب المختلفة، مما جعل القدماء يدمرون معظم البوابات النجمية العتيقة لقطع الطريق عليهم، ويبقون على بعضها فقط تحت الحراسة لمتابعة تطورهم، فلم ييأسوا منهم بعد بل وطوروا من تقنيات الانتقال وأنشأوا الغرف والجسور الأكثر إحكامًا.

ووكل إلى (أوناس) الذي لم يكن قائدًا عسكريًا فقط، بل عالمًا فذًا خطة القرار الأخير في مصير هؤلاء المتوحشين.

لذا فإنه وضع خطته على زرع جاسوس بينهم قادر على دراستهم من الداخل، جاسوس لن يخونهم أو يخذلهم.

وها أنا ذا أجني معهم ثمرة نجاح خطته، وها هو الجاسوس يمدهم بكل ما أرادوه من معلومات بعد أن تواصل وعيهم الجمعي بوعيه، وصار حلقة وسيطة بينه وبين (أوناس)

ومساعديه.

كانت خطةً عبقريةً، لكنها لم تنجح بشكلٍ كاملٍ للأسف.

وهذا ما أوضحته الذكرى التالية التي وجدت نفسي فيها أقف في تلك القرية القديمة، وصوت صرخات رهيبة يرج المكان.

لم أفهم ماذا يحدث للوهلة الأولى؟.

كان وعيي يجوب المنازل والساحات متتبعًا الصرخات الرهيبة.

ثم ظهرت مجموعة من جنود الفراعنة العمالقة الذي يبلغ طول كل منهم ثلاثة أمتار، ويرتدون زيًا مدعمًا بالدروع لم أره من قبل، عليه شعار مفتاح الحياة المجنح، وهم يطلقون من أسلحة أسطوانية ذات خزانات بلورية دفقات من الموجات الصوتية الارتجاجية، نحو كائنٍ دخاني رهيب في حجم ناطحة سحاب، يتخلل المباني والجدران وكأنه شبح وينقض على أي كائن حي يقابله ليمتص حيويته ويحوله إلى بخار.

حاولت أن أفهم.. أن أعي ما يحدث.

ثم أدركت الكارثة، فهذا الكائن الدخاني هو الشر الرهيب الذي حرره الزواحف من سجنه الأزلي، وأحضروه هنا ليكون رأس حربتهم لتحرير الطيف المحتجز في المقبرة، بعد أن كشفوا سر الجاسوس واستغلوه لصالحهم.

ولكن القدماء كانوا مستعدين لكل الاحتمالات وتصدوا لهم بقوة (سخمت) الباطشة.

وما أدركته في هذه اللحظة، أن هؤلاء العمالقة الغامضين الذين يعتبرون أحد أسلحة القدماء المحرمة، لم يكن هدفهم القضاء على ذلك الشر الرهيب، بل كان هدفهم توجيهه إلى مكان محددٍ، وهو ما نجحوا فيه مع تضحيات كبيرة.

وفي النهاية، وصلوا إلى حيث نصبوا له الفخ.

وتألقت دائرة هائلة من الرمال، وانطلق منها شعاع ضوئي هائل يبلغ نصف قطره أكثر من خمسين مترًا، راح يدور كإعصارٍ وأحاط بذلك المخلوق الرهيب الذي راحت تتصاعد من داخله شرارات نارية عنيفة، قبل أن يرتج المكان كله بخوار رهيبٍ ولا يبقى منه إلا بعض الأبخرة.

وهنا أدركت طبيعة الحرب الدائرة في هذه الحياة البديلة، وأدركت أن ما تحتويه المقبرة هو هدف الجميع.

فمن يحصد ذلك الطيف الذي يمتلك أسرار القدماء والزواحف معًا، قادر على التحكم في الغرف والبوابات، والعوالم السبعة، والحصول على المعارف والعلوم المحرمة.

الزواحف يسعون إليه رغم مرور آلاف السنين.

وقاطنو الغرف، آخر خط دفاعي لتلك العوالم يحاولون منعهم..

لقد اختار أبي أسوأ حياة بديلة لحضارتنا.

فأي أهوال أخرى عايشها ليختار لي هذا الجحيم..

و...

وهنا شعرت برأسي يرتجّ، وبموجة عاصفة تطيح بجسدي ليرتطم بالرمال.

لم يكن هذا مجرد ذكرى بداخل عقلي، بل كان واقعًا مؤلمًا.

وعندما فتحت عيني، رأيت الفتاة الحرباء تتفحص جسد (جام) المسحوق، وفي عينها نظرة حزن هائلة.

في اللحظة نفسها التي اندفع (سور) وعاونني على النهوض والفرقعات الصوتية العالية تكاد تدمر أذني.

وعندما نظرت حولي لأحيط علمًا بما يحدث رأيت الهول نفسه، فأجساد حاصدات الأرواح كانت تتفجر بطلقات خفية، سحقتها سحقًا.

لم أفهم ما يحدث، حتى أوضح (سور) قائلًا:

- ما أن اقتربت حشود الحاصدات من محيط المقبرة حتى تباعدت كثبان الرمال، وارتفعت من أسفلها منصات بلوريةٌ عجيبة، انعكست على كل منها صورة لمجموعة من الحاصدات، ثم راحت كل منها تنفجر لأشلاء، وتختفي هي وصورتها من الوجود.

وعندما سألته عمًا أصابنا، وتسبب في مقتل (جام)، أخبرني أن ما أطاح بنا مجرد ارتداد عكسي لأقربها، والذي سحق في طريقه (جام) المسكين.

ما قصّه على مسامعي أيقظ في عقلي ذكرى لمعلومة قرأتها عن المسعودي في مواضع عديدة من كتاب (أخبار الزمان) و(مروج الذهب)، عندم ذكر أن قدماء المصريين صنعوا (البرابي) التي كانت ترصد الأعداء، وتظهر صورهم فيها، ثم تدمر هؤلاء الأعداء بتدمير صورهم عليها، وكأنه كان يصف شاشات رصد مزودة بمدافع صوتية كالتي أراها الآن.

بل وذكر أنهم قاموا بصنع نطاقٍ قادرٍ على قتل الحيوانات والحشرات التي تعبر من خلاله، بل ولديهم وسيلة صناعية لإسقاط الأمطار، وتماثيل من نحاس تخرج النيران من أفواهها.

والحقيقة أني وأنا أسترجع هذه المعلومات الآن وأرى بعضًا من صنيعهم بعيني أصبت بالذهول.

إن أسرارهم المحرمة لا يجب أن تقع في يد الأعداء، خاصة سرّهم الأعظم.

وهذا هو السبب الرئيس الذي خاض من أجله أبي كل هذه الأهوال، وبسببه أحضرني أبي إلى هنا.

إنه لا يريد إعادة ضبط الزمن، فما ذهب لا يعود، وهو أثبت هذا بنفسه عندما فشل.

هو يرغب فقط في الحفاظ على أسرار أجداده، ولم يتم هذا إلا بهزيمة الأعداء والحفاظ على الغرفة، حتى يعود الأجداد من رحلتهم الكونية الطويلة إلى خارج الأبعاد السبعة.

وكل هذا سيبدأ من هنا..

من المقبرة المحرمة..

أنا أعلم الآن مكان الصفارة التي على شكل مفتاح الحياة المجنح، وأعلم فائدتها.. وأعلم أي روح سأحصدها..

وأي مصير قد اختاره لي أبي..

صحيح أني لم أنجب..

ولكن هذه معضلة ستحل في وقتها.

والآن عليّ أن أقوم بما يقوم به كل قائد عسكري بعد المعركة..

أن يدفن قتلاه..

وبكل احترام وإجلال، حملت (جام) على كتفي وهبطت به إلى الحفرة، لأنني قررت أن تكون المقبرة المحرمة هي النصب التذكاري الذي سيخلد بطولته.

ولم يعترض أي من رفاقه على قراري، أو يتبعني أي منهم لأنني أمرتهم بعدم الهبوط من بعدي؛ فأسراري كما قال (سور) هي أسراري وحدي.

عبرت مدخل المقبرة وسلكت نفس الطريق الذي سلكه القائد (أوناس)، ووقفت أمام الجدار، وضغطت النقش البارز، وتناولت الصفارة وأطلقت نفس الصفير المنغم من الممر إلى الغرفة واستخدمت الصفارة والبلاطة، وهبطت إلى

أسفل، وعلى أرضية الكهف وضعت جثة (جام) في رفق، ثم استدرت ووقفت أمام التابوت لبضع لحظات، وأغمضت عيني واستعدت صورة (ندى)، وأمي وكأنني أودعهم إلى الأبد، فهي مغامرة لا أدرك عواقبها.

ثم ألصقت يدي بجانب الصندوق الزجاجي، وأطلقت أعنف صرخة ممكن أن تتحملها أحبالي الصوتية.

وحصدت أول الأرواح وأخطرها، وأصبحت أنتمي إلى هذا العالم إلى الأبد.

ولن أخفي عليكم مقدار نشوتي أو ما شعرت به من قوةٍ وعظمةٍ.

إن أسرار وعلوم الزواحف أخطر جنس مخلق بين يدي، ومعها علوم وأسرار القدماء التي تفوق كل ما نُقل عنهم أو نسب لهم من أساطير.

لقد كانوا وما زالوا أعظم حضارة وجدت في هذا الكون.

وما زالوا حتى هذه اللحظة يبذلون الجهود في معركتهم الأبدية لحفظ التوازن الكوني، والجنس البشري.

لقد نفّذت الآن الجزء الأهم في خطة أبي الكبرى، وعليّ الآن القيام بمهمتي الأخيرة بعد استعادة الغرفة، وهي وترويض حارسها، ولكن هذا لن يتم إلا بعد أن أصلي على (جام)، فله فضل كبير في نجاحي، كما أنه يؤمن بنفس إلهي.

وفي اللحظة التي هممت فيها ببدء الصلاة عليه، تفاجأت

بوجود أبي أمامي، وعلى وجهه ابتسامة شيطانية، وهو يخرج من نطاقه خنجرًا حادًا، ويستعد للفتك بي.

وقبل أن أتحدث أو أقوم بأي ردّ فعل، رأيت نسخة ثانية بل ثالثة من أبي تهاجمه، وتطعنه بخنجرٍ حادٍ مماثلٍ، ثم يسقط أرضًا وهو يقول في وهن:

- انتهت مهمتي، لم يعد هناك نسخ أخرى مارقة أو خائنة.

قالها ثم راح يسعل، ومن فمه خرجت بعض الدماء فمسحت دماءه بكمي، وسألته في لهفةٍ:

- أبي .. أأنت بخير؟.

ابتسم ابتسامة باهتة، ثم سألني:

- على العهد يا ولدي؟.

فأجبته في لهفةٍ:

- على العهد يا أبي، ولكني لم أفهم.

قال في وهنٍ:

- أنت المنارة يا ولدي.. أنت الشيء الصحيح، وسط كل هذا الارتباك الكوني، لديك كل العلوم والقوة لتحافظ على ميراثنا.

قلت في تصميمٍ:

- سأعيدك يا أبي.

هتف في استنكارٍ:

- لا يا ولدي، لقد كان هذا اختياري.. من أجلك.. ومن أجل ابنك.. (سليمان)..

هتفت في دهشة:

- ابني.. أي حديث هذا .. أنا لم أتزوج.

ابتسم، وقال:

- لم يكن الزمن بحاجة إلى ضبط كما فهم الجميع، فالقوة التي تسيره لا سيطرة لأحد عليها، بل كان بحاجة لإزالة ما يعترضه من مخلفات وعوائق صنعناها بجهلنا وغرورنا، ستعود بفضل توفيق الخالق العظيم إلى حياتك الحقيقية.

فحافظ على الغرفة يا ولدي وانقل العهد والمعرفة، ولا تخطئ خطأ جدك، أو النسخة الطامعة من أبيك التي أرادت أن تمتلك كل شيء، وتتحول إلى نصف إله.. كان الأمر أكبر من استيعابي، ولكن لساني نطق بلا وعي بما يوغر صدري في لهفة:

- هل توجد (ندى) في حياتي هذه؟

وهنا لم يستطع الإجابة لأن الروح فارقته.

وهذه المرة، بكيت كما لم أبكِ في حياتي.

وبقلب ممزق، وضعت جثته بجوار جثة (جام).

وصليت عليهما.

ليرتج الكوكب من تحت قدمي وكأنما أصابه زلزال عنيف.

وتتوتر جثة أبي وتتلاشى من أمامي.

وقبل أن أتحرك.

تهاوت الأرض أسفل مني، وانطلق الوميض الرهيب.

وأظلم بعدها كل شيء.

***

الخاتمة

- ماذا تقولين يا (ندى)؟

قلتها في حيرة، فاستدارت نحوي (ندي) لتضيء ملامحها حياتي وهي تقول في توتر:

- عندما تعود من مهمة العمل الجديدة، أريدك أن تجلس مع (سليمان) الصغير، لقد عاد لأحاديثه الغريبة عن الغرفة، والمتحورين، وحاصدات الأرواح، والزواحف، إنه يخيفني..

ابتسمت لها وأنا أضمها إلى صدري في حنان، وقلت:

- لا داعي لتعطي الموضوع أكبر من حجمه، إنه مجرد طفل والأطفال خيالهم باتساع المحيط، ربما يصبح كاتبًا ذات يوم.

هتفت في استنكار:

- يكفيني كاتبٌ واحدٌ في المنزل، لن أحرم من ابني كما أحرم منك كلما أتاك الوحي، أو أردت كتابة عملٍ جديدٍ.. ثم إن كتاباتك جميعها مرعبة، هل كانوا يعذبونك وأنت طفل، أم أنك تخاوي كل هؤلاء الوحوش والمسوخ الذين تكتب عنهم؟

ضيقت عيني في خبثٍ وقلت:

- من التي تحاول إثارة ذعر من الآن؟ لا لم يكن هناك من يعذبني في طفولتي، كما أن كل الوحوش التي أخافتني في طفولتي تسكن الآن بين صفحات كتبي.

غمزت بعينيها وهي تشير إلى (سليمان) الصغير، وقالت:

- وفي رأس هذا الشقي الذي يحمل جيناتك.

قبلتها على جبينها، ثم ناديت على (سليمان)، وقلت في جدية:

- لي كلمتان مع هذا الرجل.

ضيّق (سليمان) عينيه بتلك الطريقة الطفولية الساحرة وهو يقبل نحوي بخطوات متباطئة قائلًا:

- أقسم لك أنني لم أخبرها بأي شيء مما أخبرتك به، بل هو فمي أثناء نومي.

سألته باهتمام:

- الرجال لا يفشون الأسرار، ونحن لسنا مثل الآخرين.. نحن مميزون ولدينا أسرارنا.

هزّ رأسه مؤكدًا:

- (سليمان) لا يفشي الأسرار.

قبلته على وجنته، وأوصيته أن يحمي أمه في غيبتي، وغادرت المنزل، وركبت سيارتي، وتوجهت صوب منزلنا القديم.

تأملت صورة زفاف أبي وأمي وابتسمت، وقلت هامسًا:

- من كان يصدق أن تنتهي قصتهم بتلك النهاية؟.

ثم تذكرت ذلك اليوم الذي مات فيه أبي بين ذراعي، وكيف بعدها بدأ الكوكب يرتج في عنف، وانطلق الوميض وأحاط

بي الظلام، لأجد نفسي على كوكبي ذي القمر الواحد، وبداخل شقتي، وبصحبة (ندى) زوجتي، ولم يمض على زفافنا سوى ساعات.

وعندما زاحمت ذكريات حياتي الجديدة، ذكريات حيواتي العديدة السابقة، وأبرزها حياتي الأخيرة، ساعتها أدركت معنى كلمات أبي والفتاة الحرباء بأنني مميز، لأن الموجة الزمنية العاتية التي نظفت مجرى الزمن بعد مصرع أبي ونسخه العديدة، لم تمخ أي ذكرى أو حدث أو معلومة عاصرتها في حيواتي المختلفة.

وللأسف، لم تكن هذه الحياة التي ضحت فيها أمي بنفسها لتنقذ طفلي من براثن أحد الزواحف بعد أن صارحها أبي بكل شيء، وضحّى فيها أبي بنفسه عدة مرات ليمهد لي الطريق بعد أن استخدم العلوم المحرمة، هي التي كنت سأختارها، أو سأقبلها.

ولم أدرك الغاية من هذه التضحية ولا قيمتها، إلا بعد أن أنجبت (سليمان) الصغير، وأدركت كيف يمكن أن أضحى بحياتي من أجله بدون تفكير أو تردد.

وهذا ما فعله والدي.

نهاية شبه سعيدة للقصة أليس كذلك.

هل هذا ما توقعتموه.

أن أكتب الآن تمت، لتغلق الكتاب.

وللأسف لن يحدث هذا، لأنها لم تكن النهاية، بل البداية، فمهمتي التي ظننتم أنها انتهت قد بدأت لتوها.

فالقدماء استطاعوا بالفعل إفناء الشر القديم، ولكن الزواحف ما زالوا هناك في كوكبهم، وما زالوا أذكياء، ويطورون من قدراتهم، والكثير منهم ما زالوا بيننا، غير تلك الكائنات التي تعيش في أعماق المحيطات، وفي جوف الأرض والذين قد ينقلبون علينا في أي وقت.

إن مهمتي ليست الحفاظ على الغرفة السابعة، والغرف الستة الأخرى فقط بل مهمتي هي حماية الجنس البشري من الغزاة، ومن أنفسهم..

وحتى يعود الأجداد من رحلتهم الغامضة، فهذه مهمتي ومهمة أولادي، وأحفادي من بعدي..

أعتقد أنها لحظة مناسبة لكم لنكتب كلمة تمت..

حسنًا لن نكتبها الآن!

هل تسمعون هذه الطرقات التي على الباب؟

نعم..

إنهم رجالنا، وقد استطاعوا اقتناص أحد (الزواحف)، الذي وصل لمنصب كبير في وزارة الدفاع.

هل أدركتم الآن خطورتهم؟.

ولماذا أحضروه مقيدًا، ومكممًا إلى هنا؟.

لأنه مهمتي الجديدة.

ولأن الغرفة ستظهر هنا.

الآن أنتم ملمون بكل التفاصيل، بإمكانكم الآن النوم براحة، فأجدادكم وأحفادهم يسهرون على حمايتكم.

ولو في يوم من الأيام رأيتم بابًا معدنيًا أسود يزينه نقش لمفتاح الحياة المجنح، يظهر أمامكم من العدم.

تجاهلوه، وغضوا الطرف عن الداخلين والخارجين منه..

وليبقى سر الغرفة السابعة..

سرنا المشترك.

تمت بحمد الله.

إصدارات الكاتب

صوت الشيطان – رواية

عزيف – رواية

الاستدعاء الأخير – رواية

همسات – رواية

المسخ – مجموعة قصصية

سايكو – مجموعة قصصية

شمس المعارف – رواية

لقاء مع ميت – رواية

أوديسا الظلام – رواية

أحبك أكثر – رواية

الطوطم – رواية

سايكو ٢ – مجموعة قصصية

بدم باردة – رواية

مخطوطة ابن الشيطان – رواية

سر الحانوتي – رواية

بعد الحب – رواية

طقوس شيطانية – رواية

الرسائل السوداء – رواية

العفريت – رواية

صندوق نهاية العالم – رواية

إلا أنتِ – رواية

بئر برهوت – رواية

التجلي الأعظم- رواية

عين الحياة – رواية

وحي الشيطان – رواية

كريبي باستا– مترجم

للتواصل مع الكاتب

A_elmenofy@yahoo.com

https://www.facebook.com/profile.php?id=750695622